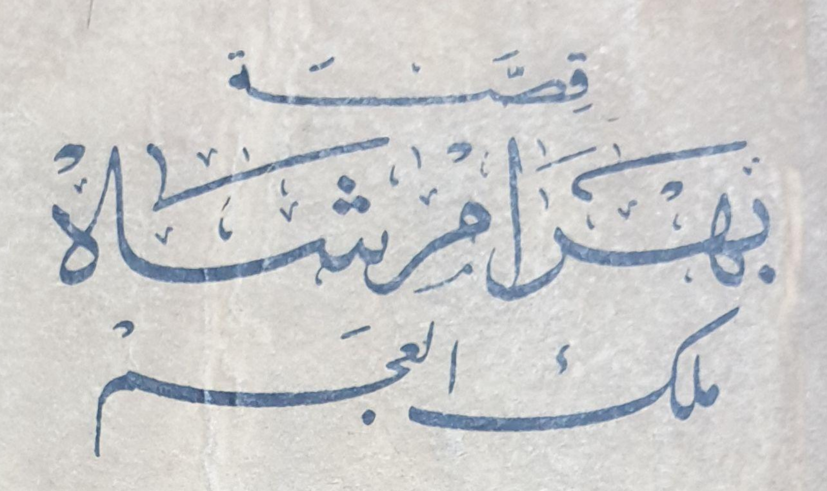


وما جرى له فى بلاد الملك النعمان وتملكه عرش مملكة فارس
والأقاليم السبعة وقهر ملوكها العظام وزواجه
بالسبع بنات ملكات البهاء والجمال

وهى قصة تاريخية واقعية
منقحة ومهذبة وبها زيادات بقلم

(عبد الله الصاوى)

الجزء الاول والثانى

ملتزم الطبع والنشر
عبد الحميد احمد حنفى
بشارع المشهد الحسينى رقم ١٨
المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٣٧

اشتريته يوم الخميس ١٠/ذو القعدة/١٤٤٣هـ
٢٠٢٢/٦/٩م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

قصـــة

بهرام شـــــاه

الملقب ببهرام (جور) ملك العجم

ما جرى له فى بلاد الملك النعمان وتملكه عرش مملكة فارس
والأقاليم السبعة وقهر ملوكها العظام وزواجه
بالسبع بنات ملكات البهاء والجمال

وهى قصة تاريخية واقعية

منقحة ومهذبة وبها زيادات بقلم

عبد الله الصاوى

الجزء الاول

عبد الحميد احمد حنفى

بشارع المشهد الحسينى رقم ١٨

المراسلات : مصر - صندوق بوستة الغورية رقم ١٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

يحكى أنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك عظيم الشان من بنى ساسان ملوك مملكة إيران اسمه الملك يزدجرد تولى مقاليد الحكم وهو فى الخامسة والعشرين من العمر لا يعرف الخداع والمكر . ومكث فى ملكه إحدى وعشرين سنة ملكا عظيما يحكمها ويدبر أمر رعاياها حتى ظهرت عليه أمارات الكبر وبدت فى جسمه علامات الكهولة ، وكان قد ولد له إلي ذلك الحين عدة أولاد لكن لم يعش واحد منهم بل كانوا يموتون الواحد بعد الآخر وقد كان لذلك حزيناً جدا لأن الاولاد زينة الحياة الدنيا ، ولأن لذة الأولاد والبنين تفوق ملذات الدنيا ، ولاسيما أنه لم يخلف ولدا يكون وليا لعهده ، فكان يصرف أوقاته في التأوه والغموم والحسرات كلما قرب من الشيخوخة . ففى ذات يوم انفرد فى خلوة وصلي وبعد الصلاة رفع يديه إلى قاضى الحاجات وقال : إلهى وربي ومعبودى ارحمنى وأفرج كربتى ولا تغلق باب رحمتك عن أسرة بنى ساسان وارزقني الولد الوارث للملك الذي وهبته لهم ، إلهي انى أتضرع اليك وأسألك من خزائن جودك ياغنى يا كريم أن لا تحرمنى من خلف يرثنى وتزول به آلام قلبي وتنفرج كربتي فأنت السميع المجيب .

وبعد أن انتهى من صلاته أتى زوجته وقلبه معتقد أن الله يفرج كربته ويجيب دعوته ويتقبل صلاته وكأنما كانت أبواب السماء مفتحة فقد سمع الله دعاءه وأجاب نداءه فلم تمض عدة أيام حتي ظهر الحمل على زوجته فبعثت اليه تبشره بذلك فتلقى البشارة بالفرح والمسرة وقام وسجد عدة مرات على كرسى العرش كأنه فى مقتبل العمر وعنفوان الشباب وقد تجدد فيه الصبا وعاد اليه رونق الحياة وفتح الخزائن وأخرج الأموال ففرقها على الفقراء والمحتاجين شكرا لمولاه القدير ودام على ذلك الحال طول مدة الحمل وهو فى فرح لا يحيط به الوصف .

وبعد أن مضي على حمل زوجته تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع ساعات وتسع دقائق

وضعت زوجته غلاما ذكرا فزاد سرور الملك وقوى نشاطه وحسب نفسه فى ذلك الحين من أسعد الناس وأما الرعية وأهل المملكة فانهم فرحوا فرحا عظيما بابن الملك الجديد ، وأقيمت الأفراح فى كل ناحية من نواحى المملكة وأمر الملك بأن تزين العاصمة وأرسل الى كل البلاد التابعة له بالبشائر فأقيمت فيها الزينات ودامت الاحتفالات مدة شهر على التمام كما أعفي جميع الرعية من الضرائب مدة سبع سنين كاملة .

وجاء المنجمون والسحرة وأخذوا الولد على أيديهم ثم نظروا فى طالعه وراجعوا كتبهم وبحثوا في الاحكام وفى هذا المعنى وحسبوا الأبراج والدرج والمنازل ورسموا الاشكال والزايرجات ودققوا البحث والنظر فقالوا للملك اعلم ياسيدنا ان هذا الولد سيكون سعيد الطالع جدا فقد تبين لنا أنه يملك السبعة الأقاليم والممالك التى لم يملكها غيره من ملوك ساسان ، فتضاعف فرح الملك وغمر المنجمين بالأنعام والاكرام ودعي اسم الطفل بهرام وأخذ ينظر فى تربيته والاعتناء به

وأما المنجمون فانهم بعد أن أخذوا نصيبهم من التحف والهدايا والنعم التى أغدقها عليهم الملك يزدجرد رجعوا إلى منازلهم وعقدوا فيما بينهم مجلس مشورة وقالوا إذا كان الطفل يبقي في المدينة ويتربى فيها فانه يتخلق بأخلاق أبيه وتسرى اليه قسوة القلب فيظلم الشعب ويكرهه العباد .

وبعد التفاوض نهضوا وجاءوا الملك فأمرهم بالجلوس مبدياً لهم كل الاحترام والاكرام . ثم سألهم عن سبب رجوعهم اليه

فقالوا له بكمال الوقار والاحترام أيها الملك السعيد أعزك الله وأطال عمرك المديد وأبقاك انا ماأتينا اليك ثانية إلا لصالح الملك والمملكة وأنت تعلم أنه قد ولد لك قبل الآن عدة أولاد ولم يعش واحد منهم والآن ننظر فى أمر حياة الطفل الجديد وقد دلتنا القرانات وعلوم التنجيم على أن الواجب أن يتربى هذا المولود في مكان حسن المناخ عذب الماء جاف الهواء غير هذه البلاد وهذا الأمر هو سبب حياته ووسيلة بقائه فى هذه الحياة الدنيا .

فلما سمع الملك كلام المنجمين رآه عين الصواب لأنه كان كثير الاعتقاد فى المنجمين وخاضعا لأوامرهم وكان لايصدر منه أى عمل إلا بعد أخذ رأيهم وقد خاف من موت الطفل ولم يخطر له أن الأجل إذا دنا لايمنعه المناخ والموقع وعلى أثر ذلك جمع اليه الوزراء ووكلاء الدولة وعرض عليهم ماسمعه من المنجمين

فاستحسنوا هذا الامر وغاصوا فى التفكير وأخيرا قال أحد الوزراء انه لمن المعلوم عند سيدى الملك أنه لا يوجد فى هذه الدنيا قوم اتصفوا بالشجاعة و لاقدام والفصاحة فى الكلام والمروءة والكرم والوفاء بالعهد والصدق فى القول وحماية الضعيف ونصرة المظلوم ومحبة الخلق ومعونتهم ومواساة المحتاجين إلا العرب فانهم حصلوا على كل مزية حسنة فاذا وافق سيدى الملك على الرأى الذى أعرضه لديه فليستدع اليه الملك النعمان بن امرىء القيس فهو مطيع لنا صادق فى محبتنا وولائه لنا فيسلمه الغلام . ومن المحقق أنه يعتنى به ويربيه على مانحب ونريد .

ولما سمع باقى الوزراء والاعيان ماقاله الوزير قالوا له بلسان واحد أحسنت وأصبت ، فان الملك النعمان لا يقصر فى مثل هذه الخدمة وبلاده من أحسن البلاد وأظهروا للملك استحسانهم واجماع آرائهم على صواب رأى رفيقهم وفى الحال أمر الملك أن تسطر رسالة إلى الملك النعمان يطلب حضوره اليه فكتب الكاتب الرسالة ودفعها إلى الملك فقرأها وختمها ودفعها إلى الرسول وأمره بسرعة السير إلى مدائن الملك النعمان

فسار الرسول الليل والنهار يقطع البرارى والقفار والسهول والاوعار حتى وصل إلى أرض الحيرة فدخل على الملك النعمان فقبل يديه ودعا له بدوام العز والاقبال وقال له لقد أتيتك على جناح السرعة والاستعجال أحمل اليك هذه الرسالة باسمك من سيدى الملك يزدجرد وناوله الرسالة فأخذ الملك النعمان يتعجب ووقع فى حيرة وقال فى نفسه ترى ما هو ذلك الامر العظيم الجليل الذى اضطر الملك الاكبر إلى أن يرسل إلى برسالة مستعجلة . وفى الحال أخذ الرسالة من يد الرسول وفتحها ولما قرأها وعرف أنه ولد للملك يزدجرد غلام وأن فى نيته أن يسلمه إياه ليتولى أمر تربيته كاد يطير من الفرح ، وفى اليوم التالى أعد ما يحتاج اليه فى سفره ووكل أمر تدبير البلاد إلى ولده المنذر وكان شجاعا مقداما وحكيما عاقلا .

ثم اختار لصحبته مائة وخمسين فارسا أشداء بواسل ليكونوا تحت أمره فى رحلته ثم ركب قاصدا مدينة ايران ومازال يقطع المفاوز والوهاد ويمر بالجبال والقرى والبلاد ويجد السير حتى قرب من المدينة فأرسل رسوله إلى الملك يخبره بوصوله فأمر الملك فى الحال أن يخرج الوزراء والاعيان لملاقاة الملك النعمان وأن يدخلوه إلى المدينة بالاجلال والاحترام

ولما قرب الملك النعمان من عرش الملك خر على وجهه ساجد بين يديه كما جرت العادة التي جرت عليها الملوك الأشروسنية فى الدولة الساسانية منذ القدم فرفعه يزدجرد عن الأرض ، وأخذه بيده وأجلسه على سرير عال بجانب سريره ، ورحب به ترحيبا عظيما ، وبالمثل كان الملك النعمان دعا له بدوام العز وطول البقاء وبارك له الغلام الجديد . وهنأه بميلاده ولم تمض برهة وجيزة حتى نهض يزدجرد شاه وأدخل الملك النعمان إلى حرمه الخاص بعد أن هيأ للنعمان قصرا عظيما مزينا بأحسن الأثاث الفاخر والرياش الثمين وفيه من الخدم والحشم عدد كثير وسأله أن يستريح فيه من مشاق السفر وعنائه ومشقة طول الطريق ، فدخل النعمان القصر واغتسل من وعث الطريق وغباره وغير ملابسه ونام فى دعة وراحة إلى أن أقبل المساء .

أما ما كان من الملك يزدجرد فانه بعد أن استراح خرج إلى تخت السلطنة واجتمع من حوله الوزراء وأكابر رجال الدولة وعظمائها وبقى ينتظر قدوم الملك النعمان ولما لم يأت أرسل إليه أحد الحجاب فدخل عليه الحاجب ودعاه بكل حشمة وأدب ثم أخبره أن الملك فى انتظاره فعند ذلك نهض النعمان من فوره وسار إلى قصر السلطنة وحال دخوله وقف له الوزراء وجميع من كان حاضرا فى الديوان حتى الملك يزدجرد نفسه نهض له واقفا وأخذه إلى جانبه . وقد أحضر إلى ذاك المجلس المباخر الذهبية تسطع بأطيب أنواع العود والمسك والصندل والشمعدانات المضاءة بالشموع المرصعة بالبلور وأنواع اليواقيت والجواهر المختلفة التي تزيد فى أضواء الشموع وأدخلت مائدة الطعام يحملها خمسة عشر رجلا يلبسون الثياب النظيفة البيضاء الفاخرة ومناطق الذهب فى أوساطهم وفى أيديهم المناشف والأباريق لغسيل أيديهم وعلى المائدة من أشكال الطعام ما تشتاق إليه النفوس ويسيل له اللعاب وتتفتح له الشهية وأقام حولها خمسة عشر غلاما بالملابس الذهبية وعلى يد كل واحد منهم شمعدان من الذهب المرصع وبأثمن أنواع الجواهر وكانوا مردا لا نبات فى وجوههم من أجمل خلق الله حسنا ومما زاد فى حسنهم ملابسهم المرصعة ولمعان الشمعدانات الوهاجة التي تشتعل فيها شموع الكافور المصبوب بالمسك والند فجلس الملك يزدجرد وأجلس النعمان إلى جانبه ثم أمر الوزراء والأمراء أن يجلسوا فى الجهة الثانية على حسب مراتبهم ومن ثم باشروا تناول الطعام نوعا فنوعا طبقا للنظام الفارسى فى مملكة ايران . ولما فرغوا من تناول الطعام

نهضوا وقدمت لهم أباريق الذهب محمولة على أيدى مماليك حسان الصور كالاقمار فغسل الملك يزدجرد يديه ثم تبعه النعمان وبعده الوزراء والاعيان بترتيب منازلهم وعلى حسب درجاتهم وبعد ذلك عادوا الى مجلسهم الاول كل فى مكانه الذي أعد له .

وبعد مضى ساعة من الزمن دخل عليهم الخدم يحملون الاقداح الفضية وآنية الشراب الذهبية . فطافوا على الجلوس واحدا بعد واحد بالشراب المنعش المرطبات والحلوى التى تحيي النفوس بعد الفناء وبعدذلك دخل المغنون والمطربون وبأيديهم النايات والاعواد وآلات الطرب وجعلوا يغنون ويضربون على آلاتهم حتى كاد المجلس يرقص طربا وطرب الملك طربا عظيما فخطر على باله ولده فأمر أن يؤتى به الي المجلس في تلك الساعة فأتى به فحمل اليه فأخذه على يديه وقبله فى فمه وبين عينيه وقبل عنقه ثم قدمه للملك النعمان فلما رأي الملك النعمان الغلام ورأى ماهو عليه من البهاء والجمال وشاهد ما طبع على جبهته من الذكاء والنبوغ وحسن الطالع أحبه كثيرا ومن عظم ما لحق به من الفرح سقط من عينيه بعض نقط من الدموع . فلما نظر الملك يزدجرد حالة النعمان وما وقع فى قلبه من محبة الغلام طار قلبه من السرور وأمل أنه يسير به بقلب مملوء من الحب فسأله الاعتناء والاهتمام به .

فقال النعمان لو سلم لى طفل كهذا وكان ابنا لأشد الناس عداوة لى لربيته كما أربى ولدى فكيف وهو ابن سيدى الملك الذى أحبه كنفسي فشكره يزدجرد وأثنى عليه . ثم أمر بأن يعاد بهرام الى أمه

ولما بلغ أم بهرام أن ولدها سيؤخذ الى بلاد الملك النعمان يتربى هناك ويبقى الى ان يشب ويكبر وقع الحزن فى قلبها وشعرت بأن مرارتها انفطرت ولم تعد تقوى على شيء . وكانت رحيمة القلب كثيرة الحنو تحمل قلب الامهات الوادعات وأخيرا قررت فى نفسها أن تطلب من الملك أن يرجع عن عزمه فاذا أصر تسأله أن يسمح لها بالسفر والبقاء مع ولدها واذا أبي شربت السم وقتلت نفسها حبا فى ولدها ولكى لا تكدر خاطرها بالبعد عنه لحظة .

وأما الملك يزدجرد فانه بعد جلوسهم للسمر مدة طويلة من الليل مع الملك النعمان على الحظ والصفاء أدرك النعاس الجميع فأمرهم الملك يزدجرد بالانصراف كل الي منزله وركب هو الي حرمه فلما رأته أم بهرام داخلا استقبلته وصاحت

الرحمة ياسيدى وألقت بنفسها على رجليه ورفعت ذيله على رأسها ، وقالت له إذا كنت تفصلني عن ولدى وحشاشة كبدى فاني هالكة لا محالة فارحم ضعفى وساعد حنو قلبي ولا تمتني بيدك ، وتقتلني ظلما وأنت سيدى وعزى ، وإذا كنت مصمما على إبعاد ولدى وسند حياتى فأبعدني معه ودعني أعيش معه أينما كان وكيف وجد فارحمني واجبر كسر قلبي . ثم أخذت فى البكاء وتسكاب الدموع والعبرات على أقدامه .

ولما نظر الملك عمل زوجته تحركت الشفقة فى قلبه وسقطت الدموع من عينيه بالرغم منه ، فرفعها بيدها وقبلها فى خدها ، وقال لها لك ما تريدين ، فاذهبي برفقة ولدك وكونى معه مدة غربته فى بلاد الحيرة .

فلما سمعت إذن الملك لها بمرافقة ولدها بهرام شعرت بأن الحياة عادت اليها من جديد ، ودعت له بالبقاء وطول العمر ودخل الملك فنام على سريره وعند الصباح خرج إلى دار الحكم فجلس على العرش وجاء النعمان وباقي الأعيان فأخبره الملك بالذى كان من أمر زوجته وأنه سمح لها بالسفر معه ففرح النعمان لهذا الخبر علماً منه بأن لا أحد يعتني بالولد كأمه وأظهر للملك صواب هذا الرأى وحسن أثره في تربية ابنه بهرام وبعد أن مكث النعمان في بلاد إيران مدة الضيافة سبعة أيام أقامها فى السرور والحظ والصفاء استأذن الملك الاكبر بالسفر الى بلاده فأمر الملك ان تهيأ معدات السفر وأن ينصب لبهرام ووالدته تختروان ، وأن تحمل المؤن والذخائر والاموال التي تنفق عليهما فامتنع الملك النعمان من قبول شيء من تلك الاشياء وقال له ان عندى من أنعام سيدى الملك أكثر مما أمر لى به ولا تسمح نفسى بأن آخذ شيئا ، فكل ما فى بلاد الحيرة ملكك وتحت أمرك فلا حاجة الآن الى حمل شيء من هنا فألح عليه الملك يزدجرد فأبى وأصر على عزمه . وفى ثانى الايام رفعت الاحمال اللازمة على ظهور البغال وركبت الملكة هودجها وعلى صدرها ولدها بهرام وركب النعمان وجماعته وخرجوا من المدينة فرافقهم الملك يزدجرد بموكبه عدة ساعات ثم عاد تاركا برفقتهم مهجة قلبه وفلذة كبده ومسرة خاطره . وسار النعمان فى طريقه الى الحيرة وهو مسرور القلب والخاطر من عمل الملك وركونه اليه ، وكان يسير الهوينا رفقا ببهرام ووالدته من التعب وحر الطريق . وكان فى المساء يضرب صيوان الملكة الى جانب صيوانه ويقوم بنفسه في خدمتها ولم يزل على مثل ذلك حتى قرب من

ديار الحيرة فأرسل الرسل الى ولده المنذر يخبره بوصوله فخرج مع أمراء العشائر لاستقباله ولما دنا منه قبل يديه وقبل بهرام وقد سر به كثيرا ومن ثم دخلوا المدينة بطنطنة هائلة وضجة عظيمة وأنزل النعمان بهراما ووالدته فى قصره الخاص وعين لها الخدم والحشم وكل ما يكفل راحتهما واختار لنفسه قصرا آخر يسكن فيه . وكان المنذر لما شاهد جمال بهرام أحبه كثيرا فكان يأتى القصر فى كل يوم أربع أو خمس مرات ليمتع ناظره برؤيته ولا يرتاح الا عند مشاهدته وقد مر على ذلك نحو الشهرين تقريبا . وبعد الشهرين دعا النعمان بولده المنذر وقال له انت تعلم ياولدى ان الملك الاكبر قد خصنا بتربية ولده والاعتناء به الى أن يشب ويكبر وتحتاجه البلاد للجلوس على التخت، ولذلك يجب علينا الاهتمام به ورعايته، وإنى الآن فى قلق من أجله ، لأن حر المدينة شديد وجسم بهرام لطيف نحيف فربما لا يوافقه شدة الحرّ ولذلك يلزم أن تفتش على مكان لطيف الهواء حسن المناخ عذب الماء فنضع فيه ابن الملك ونضع له من يربيه ويخدمه فاستحسن المنذر ورأى أبيه وقال له انى من هذه الساعة أسعى فى المكان المطلوب عساى أجد المحل المناسب الذى تأمرنى به .

ثم ان الملك المنذر فكر قليلا ثم قال لأبيه الملك النعمان الرأى عندى أيها الملك المعظم أن تسكنه فى قصرك المسمي بالخورنق ولا أظن أن قصرا يعد له فى الدنيا وهو أيها السادة قصر جميل البر خلفه والبحر تجاهه لو صعد الانسان الى أعلاه لرأى الحوت والضب والظبي والنخل وهو بنا لم تبن الملوك أحسن منه بناه الملك النعمان فى ستين سنة بظاهر مدينة الحيرة انتقاه له كبار المهندسين وأعلم الناس بمواقع البناء واعتدال الهواء واختلاف الأجواء بعد أن طوفوا فى الممالك المجاورة والبلاد التابعة للملك النعمان حتى اهتدوا اليه وأجمعوا على أن لا يمكن أن يكون أعظم منه فى كل بلاد العالم .

وعرض النعمان على مهندسي دولته وبناني مملكته أنه يبنوه ويضعوا فيه العجائب والمدهشات وأن يبدعوا فيه ويتفننوا ووعدهم باجزال العطايا والاموال الكثيرة وطلب منهم أن يكون قصرا منفردا وحيدا يفوق بمحاسنه جميع قصور الدنيا يحس الجالس فيه بالنعيم وينسي هموم الدنيا وأمرهم ان يوجدوا فيه مزايا كثيرة وأوصافا عديدة

ولما كان المهندسون يدركون بذكائهم رغبة الملك النعمان ، ويعرفون أن قصده

الملك النعمان أن يبني على شكل مدائن وقصور مدينة إرم ذات العماد وقصور الملك سليمان التي بناها له مردة الجان فانهم أبدوا لهم عجزهم من بناء القصر على الشكل الذى يريده . فحزن الملك من هذا الامر وقال ماذا يا ترى يجب أن أعمل؟ ألا يوجد فى مملكتي رجل يبني لى قصرا على هذه الاكمة يكون نادر المثال فى هذا الزمان .

فقالوا كلا ياسيدى لا يوجد في كل مملكتك من يقدر أن يشفي غرضك ويبنى لك هذا القصر البديع العديم المثال الذى تشير اليه ولا يقدر على ذلك الا رجل مشهور فى بلاد الروم اسمه سنمار وهو وحده القادر على اتمام رغائبك .

فلما سمع النعمان هذا الكلام سر جدا وزال عنه الحزن وفي الحال بعث بالرسل الى بلاد الروم ، وأمرهم بالتفتيش على سنمار وأن يأتوا به ويعدوه بالاموال الغزيرة والثروة الدائمة فسار الرسل إلى أرض الروم وبحثوا عن سنمار حتى اهتدوا اليه فأخبروه بالقصة من أولها الى آخرها وقالوا له ان أنت بنيت للملك القصر المطلوب غمرك بالعطاء وأغناك وأغنى نسلك الى آخر الدنيا ففرح لهذا الخبر ووافق الرسل على السير معهم الى بلاد الملك النعمان فهيأ نفسه وسار الى أن وصل الى مدينة الحيرة أرض النعمان ودخل على الملك النعمان فرحب به وأكرمه غاية الاكرام وقربه اليه وأخبره بعزمه على بناء القصر بشرط أن لا يكون قد ابتني مثله قبله ملك .

فقال انى رهين أمر سيدي الملك فلا أحد غيري يقدر على مثل هـذه الخدمة انما القصر النادر المثال يلزم أن يكون فى موقع نادر المثال فأرنى الموضع الذى ترغب بناء القصر فيه لأرى اذا كان يصلح أم لا .

فركب الملك وسنمار الى المكان الذي اختاره المهندسون فلما رآه سنمار أعجبه جدا وتعهد للملك باتمام مقاصده وأن يبنى له قصرا لم يبن مثله في سالف الاعصار ففرح الملك لما أبداه من مهارته ووعده بكل جميل ووضع تحت أمره خزائنه كلها يأخذ منها ما يريد وما يحتاج اليه من الدنانير لبناء القصر وفرشه .

وفى الحال باشر سنمار استحضار المواد اللازمة وبدأ العمل فى بناء القصر فكان يقيم فى بناء القصر السنتين والثلاث ويغيب الخمس سنوات وأكثر من ذلك وأقل فيغتاظ الملك النعمان لتأخير السنمار عن مباشرة البناء وانهائه ويطلبه ليوقع عليه أشد العقاب فلا يجده فيشتد غضبه ويكثر حزنه ولكنه فى آخر الامر يعلم أن

الحزن لاينفعه وأنه لاأحسن له من الصبر فينتظر الى أن تسوق اليه المقادير سنمار ويستأذن فى الدخول على الملك النعمان ويبلغ الغضب من الملك أن يأمر بقتله من دون سؤال فى سبب تغيبه وانقطاعه عن البناء ويطلب من السياف أن يأتيه برأسه فيذهب السياف اليه فيجده قد أقبل وهو يحمل من الخرائط والرسومات الجميلة المحيرة للعقول ويطلب فقط عرضها على الملك من قبل ان ينفذ فيه عقوبة الاعدام ويرى الملك النعمان مافى الرسوم والخرائط من المبانى العجيبة والرسوم المتقنة مايذهل عقله ويتمنى أن يكون القصر مبنيا على مثالها فيأمر بادخاله اليه فيدخل ويقبل الارض بين يديه ويعتذر له بأن هذه الخرائط كانت مودعة فى بلاد الروم وفى بعض المرات يعتذر اليه بأن القصر ينقصه قطع المرمر وأصناف الجواهر التى يعز وجودها فى الدنيا وهو لم يتغيب الا لاحضارها والواقع أن سنمار كان مثالا للجد والاجتهاد ولم يكن وقته يضيع فى غير مصلحة البناء وقد فهم الملك النعمان حقيقة امره فكان كلما غاب يعلم انه ذهب لقضاء بعض الاشياء الضرورية لبناء القصر ولم يزل سنمار على هذا المنوال حتى انقضى عليه ستون عاما فى البناء

ثم أتم سنمار بناء القصر وزينه بالنقوش الفاخرة وكان متين البناء واسع الهيكل مزخرف الحيطان مرتبا على نسق لم ير مثله ملك وقد أتقن فرشه واستحضر من بلاد اليونان والرومان والعجم كل ماهو نفيس وفاخر من الفرش والرياش والاثاث والمصنوعات الثمينة ووضع عليه من الخارج الجواهر الكبيرة المضيئة فكانت تلمع كالشمس لا يقدر الرائي أن يحدق نظره فيها ومع أن حيطانه لم تكن من زجاج لكن الرائى كان يرى نفسه فيها أجلى من المرآة الصافية وكانت فى كل ١٢ ساعة تتغير إلى ثلاثة ألوان أبيض وأصفر ومائى

فعند الصباح أى عند شروق الشمس وإرسال أشعتها على القصر كانت تظهر على لون مائى وفى نصف النهار تصير من شدة وهج الشمس صفراء كالذهب وعند المساء تصير بيضاء كالفضة

والحاصل أن سنمار بعد أن أنهى بناء القصر وفرشه كما تقدم قدمه للملك النعمان فلما رآه ادهش من صناعته ومن كل ما رآه فيه وتأكد أنه ما رأى مثله ولا سمع بمثله فى شرق الدنيا وغربها ولذلك أظهر شكره وامتنانه من سنمار وأفرغ عليه خزائن الاموال والجواهر أضعاف ما كان يؤمل حتى ادهش

سنمار أيضا من عطاء الملك وكاد يطير عقله وبعد صيت ذاك القصر وانتشرت أخباره فى الآفاق فأخذت الناس ترد أفواجا للتفرج عليه .

وكان كل من رآه يعجب من صنعه ويأسف على بانيه وقد زرعت حوله الرياحين والزهور وحفت به الحدائق والرياحين حتى كانت الروائح العطرية تشم على بعد ساعة من جهات القصر الاربع ، وعلى الخصوص عند هبوب نسيم الصباح فان الاماكن المجاورة كانت تنتعش بذلك النعيم متوهمة أن هنـاك الجنة التى يسمعون عنها .

هذا ما كان من القصر والملك النعمان أما ما كان من سنمار فانه بعد اتمام بنائه وسرور الملك النعمان منه وسروره أيضا بما وصل إليه من العطايا الوافرة والاموال الجزيلة والهبات الكثيرة أقام فى أرض الملك النعمان مكرما معززا يشار إليه البنان وقد سأله الامراء والعظماء أن يبني لهم قصورا تضارع قصر الملك النعمان فكان يتأبى عليهم ولا يقبل من أحد منهم شيئا ويقول إنى لست فى حاجة الى البناء لان الملك النعمان أعطاني وأغناني وأنا قد عزمت على ترك مهنة البناء وسأقضى بقية عمري فى السياحة والنزهة والاستمتاع بالطيبات أيضا فانه قد أدركه الشيب وضعف جسمه وقلت قوته عن مباشرة الاعمال فى البناء أو غيره من المهن الكثيرة التى كان يتقنها ولا أحد فى الدنيا يعرفها سواه .

وقد اشتدت رغبة سنمار إلى العودة الى بلاده كأنه أحس بداعي المنون يدعوه واقتراب الاجل فأراد أن لا يموت الا بين أهله ولا يدفن الا فى أرضه ووطنه فأخذ يعد العدة للرحيل .

غير أن الزمن غدار والدنيا لا أمان لها ففي ذات يوم أصبح الناس فوجدوا سنمارا جثة هامدة بجوار القصر العظيم الذى بناه

وعلت ضجة الناس لذلك وراحوا يتساءلون عن سبب قتله وازهاق روحه الامر الذي كان خافيا عن كل أحد من رعية الملك النعمان كما أنهم سألوا حاشية الملك ووزراءه فوجدوا أن لا علم لهم بسر مقتله ودام أمر قتله مكتنفا بالغموض والابهام .

غير أن بعض ندماء الملك النعمان سأل الملك ذات يوم عن هـذا الحادث فى أثناء الشراب .

وقد حنق الملك على نديمه لتجرؤه على السؤال عن سنمار وعن مقتله ولكنه

عنقه وأمره أن لا يسأله مرة أخرى فعفا عنه وكان قد أمر بقتله .

غير أن هذا النديم انتظر سنة كاملة يترقب يوم سعده وكان للملك النعمان يوم بؤس ويوم نعيم فاذا لقيه أحد بيوم بؤسه قتله واذا سأله أحد يوم نعيمه أغناه ولم يخيب له سؤالا فسأله نديمه في يوم نعيمه فأخبره بأنه هو الذي قتله فان سنمار لما فرغ من بناء القصر صعد مع النعمان على رأس القصر وأعلى مكان فيه فنظر الى البحر تجاهه ورأى السمك والحيتان من شدة صفاء الماء .

ثم اتجه إلى خلفه فرأى البر وبه الضباب والظباء والغزلان والاشجار والنخيل ومختلف أنواع الزروع فقال ما رأيت مثل هذا البناء قط فقال له سنمار ياملك الزمان انى اعلم فى هذا القصر مكان حجر لو رفع عن مكانه لسقط القصر كله .

فقال الملك النعمان أيعرفه احد غيرك قال لا فقال النعمان والله لا ادع احدا يعرفه في الدنيا ثم امر به فقذف من أعلى القصر الى اسفله فتقطع .

وتناقلت هذه القصة على ألسنة الناس غير انه شاع بين عامة الناس ان سنمار لما فرغ من بناء القصر قال للملك لو كنت اعلم انك ستعطيني كل هذه الاموال لكنت اعتنيت بالقصر أكثر مما اعتنيت فجاء اعظم مما هو بثلاثة اضعاف وعوض ان يتغير فى النهار الى ثلاثة الوان فقط كنت جعلته يتغير الى مائة لون

فلما سمع النعمان هذا الكلام تغيرت احواله واضطرب فى داخله وقال لسنمار أتقدر على بناء قصر اعظم من هذا اذا دفع لك اموال كثيرة ؟ فأجابه سنمار نعم ياسيدي والله اني اقدر ان أبنى قصرا لا يحسب هذا القصر شيئا بالنسبة اليه ، فزاد غضب الملك واحتدم من الغيظ وقال انى متأكد ان لا نظير لهذا القصر فى الدنيا فاذا بقي سنمار على قيد الحياة فانه يبنى قصرا اعظم منه فينحط شأن القصر وتذهب شهرته .

ثم أمر أن يؤخذ سنمار في الحال ويرمي من أعلا القصر الى أسفله فرمي وقضى نحبه (وقد ضرب فى ذلك المثل فقيل عند مجازاة المليح بالقبيح جوزى كما جوزى سنمار)

ومن يفعل المعروف مع غير أهله   يجازي الذي جوزي قديما سنمار

وبالاختصار وافق الملك النعمان ابنه المنذر على صواب رأيه واتفق أن ينقل الملك بهرام مع أمه إلي قصر الخورنق

ومنذ نقل بهرام إلى ذلك المكان والملك النعمان ملازم للقصر لا ينفك عنه دقيقة واحدة معتنيا بأمر الغلام وتربيته ، ففي ذات يوم كان النعمان جالسا مع وزيره في القصر فجعل يفكر في حسن إنشاء القصر وزخرفته وما حف به من الرياحين والعطريات .

فقال لوزيره اني متحقق أن الدنيا جميعها لم يبن فيها قصر جميل مزين بالنقوش والصور كهذا القصر فالدقيقة التي يصرفها الانسان فيه تزيد في عمره ألف سنة ، فأجابه الوزير إن ما أشرت اليه من جهة القصر فهو الحقيقة لكن الله سبحانه وتعالى قد أنصف في عباده وعدل ورحم فما الثروة والنعمة بنافعة للانسان ولو صرف المرء ألف سنة في هذا القصر لا يمكن أن تزيد عمره دقيقة واحدة فلا بد من الموت ليتساوى به صاحب هذا القصر وغيره ممن لا مأوى لهم ويسلك في طريق ومضمار واحد السيد والعبد والمالك والمملوك

فلما سمع النعمان من وزيره هذا الكلام تأثر له جدا وتغير لون وجهه واصفر بلون الزعفران وامتلأ قلبه من الخوف والرعب وجعل يصيح كالمجنون ونهض بعجلة وعينه تسكب الدموع بغزارة وخرج من القصر ومقر ملكه ودار حكمه يجول في أطراف البراري وهو لا يكف عن البكاء والنحيب حتي غاب عن العيون

وأما الوزير فانه ندم على ما أبداه للملك حيث لا ينفع الندم ثم ذهب من ساعته الي ولده المنذر بن النعمان وأخبره بما كان من أمر أبيه ، فركب المنذر وركب رجال الدولة وفرسان المملكة يقتفون أثر النعمان بن المنذر عساهم يدركونه أو يجدوا من يدلهم عليه وطافوا اطراف البرية الواسعة وأوسعوا في جنباتها الاربعة . يبحثون عن الملك فلم يقفوا له على أثر ولم يقفوا له على جلية خبر كأن الارض ابتلعته فرجعوا وهم في أشد اليأس واعظم الحزن وكذلك رجع المنذر يائسا من لقاء ابيه فبكي على فراق ابيه وما أصابه ، ثم أمر ان ترسل الرسل بالكتب الي جميع الممالك المجاورة والبلاد النائية وببعث السؤال في البراري والقفار ويسألون عنه الغادين والرائحين لعلهم يعرفون له مقرا فسارت الرسل والسعاة أشهرا واياما ولكن دون جدوى ولا فائدة وبعد ذلك عادوا الى المنذر وأخبروه بحبوط مساعيهم وخيبة أمانيهم فزاد كدره ولكنه صبر على حكم الزمان وفوض أمره الي اللطيف الخبير وجلس في مكان أبيه يدبر أمور الرعية وينظر في أحوالها

حتي نسي ما أصاب أباه شيئا فشيئا وكان للمنذر ايضا ولد اسمه النعمان كاسم ابيه ولد في السنة التي ولد فيها بهرام بن يزدجرد فكان يعيشان معا ويدرسان على استاذ واحد، ويأكلان على مائدة واحدة، وكان المنذر محبوبا من الجميع تطيعه قبائل العراق جميعها وتدعو له بطول العمر والبقاء وقد صرف اعتناءه الى تربية بهرام اكثر من ابيه حتي انه كان لا يرضي بأن يفارقه دقيقة واحدة ولما وصل بهرام الى سن التاسعة عين له الاساتذة والمعلمين فكانوا يلقنونه العلوم والفنون وطرق الآداب والكمال وكان مع صغر سنه على جانب عظيم من الذكاء والفطنة والفهم والاجتهاد.

وكثيرا ما كان يفحم اساتذته عندما يأخذ معهم بالجدال وطرح الاسئلة الصعبة ولذلك لم يمر عليه ثلاث سنين حتى أتقن العلوم اتقانا عظيما وبرع في كل من اللغة العربية والفارسية والهندية حتى أن أساتذته كانوا يتعجبون من فرط ذكائه وحذقه وقد تعلم علم الهندسة والرياضيات وبقي العلوم المتفرعة عنها بطريقة يعجزون عنها أنفسهم ولذلك لم يعد في حاجة اليهم . وكانت محبة المنذر لبهرام تزيد يوما فيوما فكان يطوف حوله كالفراشة

وأما بهرام فكان من فرط ذكائه واجتهاده جميل الطلعة وضاح المحيا وكلما تقدم يوما في العمر أفرغت عليه العناية الالهية حللا من الحسن والبهاء حتي كان الذي يراه لحظة واحدة يشتد تعلق قلبه به وتنطبع صورته في مخيلته فلا تفارقه لحظة واحدة . وبعد أن أدرك بهرام السنة الثانية عشرة وهو على ما هو عليه من الحسن والجمال والآداب والكمال والبراعة في العلوم وغزارة المعارف عين له البهلوانات والفرسان لأجل تعليمه الفنون الميدانية الحربية وركوب الخيل ولكي يتفرد أيضا في ذلك لازمه المنذر بنفسه وجعل يدربه ويعلمه . فكانوا في كل يوم يأخذونه إلى ميدان متسع ويعلمونه الرمي بالسهام والضرب بالسيف والطعن بالرماح والحراب وضرب الدبوس واستعمال كل أنواع السلاح . وفي مدة ثلاث سنوات برع بهرام في كل هذه الألعاب وامتاز بها على من سواه .

فانه لم يكد يبلغ الخامسة عشرة من سنه حتى بذ الاقران وتفوق على الشجعان في كل فن من فنون الحرب والصراع وشهد له الجميع بطول الباع وقوة الباس وشدة المراس وصار يتخرج من نفسه بكل أنواع القتال وعلى الخصوص رمي السهام فكان يذهب الى الميادين الواسعة ويضع علامة صغيرة على مسافة بعيدة ويأخذ السهام

فيرميها بها فيصيب الاهداف ولا يخطئها مرة واحدة وكان المنذر ورجاله عندما يرون منه هذه الاعمال تأخذهم الدهشة والحيرة ويثنون عليه ويمدحون شجاعته وبراعته فى كل فنون القتال

ومن ذلك الحين تولع بهرام بالصيد والقنص فكان كل يوم يخرج الى البرارى فى طلب الوحوش والغزلان . وكان الملك بهرام منذ صغره وصباه يميل كثيرا لمطاردة حمار الوحش فيصطاد منه دائما .

ولما كان يقال لهذا الحيوان باللغة الفارسية (چور) وكان بهرام مولعا بصيده اشتهر بهذا اللقب عند الفرس وهو المشهور فى العالم باسم (بهرام چور) ومعنى ذلك أن اسمه بهرام صياد حمار الوحش .

فكان الملك بهرام يصرف نهاره فى الصيد والقنص يتجول فى البرارى والقفار فاذا أقبل الليل وأسدل ذيوله على الفضاء عاد الى القصر وأقبل على الحظ والمسرات ومن أعجب الامور أن بهرام كان يصطاد هذا الحيوان بالوهق يرمى به الوحش فيتكتف ولا يستطيع الافلات منه ويقبض عليه حيا والحيوان الذى لا يتجاوز عمره الاربع سنوات يعطف عليه ويخلى سبيله أما مازاد عن الاربع سنوات فكان يبقيه عنده وكل حيوان يطلقه كان يطبع على رجله اليمنى خاتمه وفى بعض المرات يدمغه ويختمه في أذنه ثم يطلقه وكان يقصد بذلك أن يظهر للذى يقع فى يده حيوان من هذه الحيوانات أنه طليقه ولكي يعرف هو أيضا ذاك الحيوان فيما بعد اذا وقع فى يده .

ولما دخل بهرام فى سن الفتوة وأتم تعليمه ودراسته كان يكثر من الخروج الى الفلوات ففي ذات يوم خرج الى الصيد والقنص وخرج معه المنذر وكثير من رجاله ولما صاروا فى البرارى جعلوا يطردون فى طلب الصيد ، وفيما كان بهرام مشتغلا بطلب حمار الوحش كعادته وجد غبارا يرتفع إلى الجو فتنشره الرياح فأطلق لجواده العنان قاصدا ذلك الغبار ومع أن المنذر وجماعته ساروا فى أثره لكنهم لم يدركوه لسرعة سيره . وعندما قرب من محل ذلك الغبار وجد أسدا عظيم الجرم كبير الهيكل افطس الانف هائل الحجم والمنظر قد قبض بمخاليه على حمار وحش وقد علا فوقه وعزم على افتراسه ولما رأى بهرام ذلك عدم صبره وطار عقله مخافة ان يغتال الاسد حمار الوحش ويقتله قبله فتناول سهما من كنانته ووضعه فى القوس ثم اطلقه بعزم قوي فخرج من يده صوت دوي

كما كرة مدفع وبأسرع من لمح البصر وقع فى ظهر الاسد فخرج من بطنه وكذلك اصاب حمار الوحش من بعد الاسد فخرقه من جهة الى اخرى وهذه الرواية مشهورة عند الفرس وقد سمر الأسد وحمار الوحش معا وفى هذه اللحظة وصل المنذر وجماعته فرأوا ذاك المنظر المدهش وتلك القوة العجيبة فكادت عقولهم تطير من رؤوسهم وقد هالهم منظر الأسد وهو ميت وامتدحوا الملك بهرام وهنأوه على ما أعطاه مولاه من القوة والبسالة والتفنن فى استعمال السلاح فشكرهم على حسن فعلهم معه وكلامهم له ولما رجعوا إلى المدينة أذاعوا فى أهلها ما كان من أمر الأسد وحمار الوحش وكيف أن بهرام قتلهما بسهم واحد فأخذ الناس يتقاطرون إلى تلك الجهة للتفرج على الأسد . وأما الملك المنذر فانه أحضر مهرة المصورين وأمرهم أن يصوروا فى قصر الخورنق صورة بهرام وبيده القوس موتورة والاسد وحمار الوحش وقد دخل فيهما السهم فسمرهما إلى بعضهما وقد أتقن المصورون عمل تلك الصورة حتى أن الناظر فيها عند وقوع نظره عليها تشتبه عليه بالحقيقة فيظن أنها صورة حقيقية ولا يقدر أن يدرك أنها رسم أبدا إلا بعد الامعان والاقتراب منها .

وفى ذات يوم خرج بهرام أيضا كجارى عادته فى طلب الصيد والقنص وصيد حمار الوحش وفى رفقته المنذر ورجاله ولكنهم لما صاروا فى القفار أطلقوا لخيولهم الأعنة وسار كل واحد فى جهة أما بهرام فانه انفرد وقصد إلى أحد الأطراف بعيدا عن رفاقه وأخذ فى مطاردة الوحوش وفيما هو على تلك الحالة رأى حمار وحش عجيب الشكل والصورة بطنه أبيض كالثلج وظهره أحمر كالقرمز مرقط بنقط تزين جلده بهيئة لم يسبق له أن رأي مثلها وقد جاء ووقف أمام جواده فكاد يطير من الفرح والسرور مع ماهو عليه من التعب والاعياء لانه لم يكن شاهد قبل ذلك الحين مثل هذا الحيوان لونا أو استثناسا وأمل أن أن يمسكه حيا فأخذ الوهق فى يده وعزم علي أن يرميه عليه لكن لما رآى ذلك الحيوان المسكين آلة الصيد فى يده خاف على نفسه فجمع يديه الى رجليه وقفز إلي جهة نائية وواصل الجرى فى البرية . فعزم بهرام على أن لا يرجع مالم يقبض عليه فتبعه ففر من أمامه ووقف بعيدا ينظر اليه فسار فى أثره وماهو زال علي مثل تلك الحالة يطارده أربع ساعات تقريبا وكل مااقترب منه فر وابتعد حتى قارب النهار علي الزوال ولم يبق منه أكثر من نصف ساعة وحينئذ وجد بهرام أنه

عن المنذر أكثر من خمس ساعات ورأى أن الليل صار قريبا فأخذه الملل والضجر ولما لم يكن قد رأى منذ يوم خروجه للصيد إلى تلك الساعة حمار وحش كهذا سريع الركض عجيب الهيئة واللون وقع فى حيرة عظيمه وقال فى نفسه ياللعجب أهو حمار وحش بالحقيقة أم هو عفريت مسحور فى صفة حيوان من خلقة الرحمن . ثم عول على الرجوع الى أصحابه لكنه كان قد تعب من كثرة المطاردة والركض فوقف ينظر الى الحيوان فوجده قد توارى عن عينيه فى مغارة عند ذيل جبل هناك .

فلما رأى تلك المغارة قال فى نفسه لقد هان الامر على لاريب فانى أستطيع ان أمسكه فى داخل المغارة لانها على كل حال أضيق من الخلا فساق جواده الى الامام ولم يتقدم أكثر من أربعين أو خمسين خطوة حتي شعر بوقوع فيح عظيم علي وجهه وقد وقف جواده عن التقدم وشخر ونخر فزادت حيرة بهرام من ذلك وغاص فى بحار الفكر ولاسيما عندما شعر بأن قوة الحر الذى وقع على وجهه بغتة قد انقطت عنه بغتة

وبعد أن وقف متفكرا مقدار دقيقة حملته جسارته وشجاعته على الدنو من المغارة فأرغم جواده على التقدم من باب المغارة ، وقد نظر إلى الداخل فوجد أفعى هائلة كالتنين لون جلدها أسود كالزفت يتلوى ويتقلب على نفسه وعيناه كالمشاعل تقدح نارا ويخرج من فمه نفث كالدخان الاسود شديد الحرارة ينتشر فى أطراف المغارة فلما رأى بهرام هذا المنظر المخيف لحق به بعض الخوف والرعب لكن شجاعته تغلبت فلم يهرب ولم تطعه بسالته على الرجوع إلى الوراء أو التقهقر بل وقف فى باب المغارة مقدار نصف ساعة تقريبا وهو ينظر الى ذلك الحيوان وكبر هيكله حتى قرب المساء وكاد الظلام يغطى وجه الارض بسواده المشابه سواد تلك الافعى الهائلة وكان يفكر ويقول فى نفسه ما الذى قادنى الى هنا وأين ذلك الحيوان المرقش الذي يشبه حمار الوحش ولولاه ما جئت الى الى هذا المكان ولا تعرضت للخطر وهل هذا الافعى طلسم يا ترى وما الذى حمل حمار الوحش على أن يقودنى الى هذا المكان البعيد ، ويعرضنى الى الخطر الجسيم بهذه الحية العظيمة لاريب أنه متضرر من هذا الافعى وأنه أذاه وهو خائف منه وقد جاء بى الى هذا المكان يطلب الى أن أنتقم له منه .

نعم لا يبعد أن يكون الأمر كذلك وأن هـذا الحيوان اللطيف البديع قد استجار بى واستنصرنى لنجدته وقادنى خلفه حتى أوصلني إلى هذه المغارة ومن يعلم ما هي المضرة التي أضره بها أهلك له ولداً أو زوجا فبشراك يا أيها الحيوان الظريف الحكيم لقـد عرفت كيف تنتقم من عدوك وأصبت باستجادك بفتى لا يخيب أملا ولا يضيع سؤالا فاصبر قليلا تر ما يسرك هذا هو الليل قد أقبل وأرخى سدوله ولكن لا يمنعني عن الانتقام لك من عدوك فهلم وانظر

ثم تناول كنانته وأخرج سهما ذا إبرتين فوضعه فى القوس ونظر إلى داخل المغارة فوجد الأفعى ملتفا على بعضه كهيئة الجمل ورأسه إلى باب المغارة وعيناه تقدحان بالشرر وكأنهما مصباحان مشتعلان فصوب السهم اليهما وأوتره بعنف ثم أطلقه فخرج كالبرق من بين أصابعه وبأسرع من لمح البصر وقع السهم فى عينى الأفعى فاخترقهما فتخبط الافعي ونفخ وعلا ضجيجه وضرب برأسه المغارة وهو لا يعى من شدة الألم وقد ظن بهرام أن الجبل الذى يعلو المغارة قد اهتز تهز من شدة عزم الافعى وقوته ولذلك لم يترك له فرصة للاستراحة بل أسرع فنزل عن جواده واستل سيفه ودخل المغارة وهو كالاسد الكاسر وأقبل من جانب الافعي وضربه بقوة زند تهتز له الجبال فأصاب عنق الافعى فقطعه وتدفقت الدماء من جوفه كتدفق الانهار وجرت من باب المغارة إلى الخارج .

ولكن بهرام لم يقنع بقطع رأس الافعى بل أراد أن يشق بطنه ليرى ما فيه ولاى سبب يطلب حمار الوحش الانتقام منه ، وقد صح تخمينه وصدق ظنه فانه بعد أن شق بطنه وجد فيها اثنين من أجرية حمار الوحش فتعجب من ذلك أشد العجب وقال فى نفسه سبحان الله ان للحيوانات عقلا وفكرا حسنا فكيف طاف هـذا الحيوان البرارى باحثا على من يأخذ له بثاره ، وكيف أدرك بفراسته أننى الذى أصلح للاقتناص له من عدوه وإهلاكه .

والحاصل أن بهرام بعــد أن أتم عمله أراد الخروج من تلك المغارة قبل اشتداد الظلام فركب جواده ، وعزم على المسير وما لبث أن خطا خطوة واحدة من باب المغارة حتى أبصر حمار الوحش قد ظهر وأسرع فى الدخول إلى المغاره فزادت حيرة بهرام واضطر إلى أن يرجع الى المغارة ثانيا وهو يقول عجبا ألهذا الحيوان عدو آخر يتمني الانتقام منه وما لبث أن دخل خلفه حتى وجد فى زواية المغارة لمعانا وبريقا فتقدم نحوه وإذا به يرى ذاك الحيوان قد كشف عن كنز

كان مدفونا في جانب المغاره مملوءاً بالجواهر النفيسة وقطع الماس الكبيرة والذهب الوهاج وبه مقدار عظيم من الاحجار الكريمة التي لا يوجد مثلها في أكبر خزائن الملوك وأعظمها .

فلما رأى بهرام هذه الجواهر اندهش وتعجب والذي زاد عجبه وجود مثل هـذا الكنز العظيم في تلك المغارة المنفردة وقد علم أن الحيوان أراد أن يقدم له هذا الـكنز النادر في مقابلة قتله الافعى التي قتلها أخذا بثاره .

ولكنه بعد التفكر برهة عاد فركب جواده وأبقى تلك الجواهر في محلها وفي عزمه أن يطلع المنذر عليها فيرفعها إلى خزائنه غير أنه لم يسر إلا مسافة قصيرة حتي سمع وقع حوافر الخيل على حصباء تلك الارض تقترب منه فتقدم اليه ، فعلم أن المنذر ورجاله قد افتقدوه وانتظروا رجوعه . ولذلك فان المنـذر ورجاله لما طال عليهم الانتظار جعلوا يطوفون في تلك النواحي للبحث عن بهرام فمكث ينتظر وصولهم ولم يمر غير بضعة دقائق حتى اجتمع بالمنذر . وكان من أمرهم أنه لما غاب بهرام عن أعينهم وهم مشغولون بالصيد ومتفرقون في تلك النواحي ظنوا أنه يطارد حمار الوحش كعادته فلذلك لم يتتبعوه ولكنهم لما طال غيابه وقرب المساء انتظروه فلم يرجع فشغل بال المنذر عليه وقد خاف أن يكون قد وقع في محذور أو أصابه أمر مكروه أو افترسه وحش كاسر لانه كان على كل حال صغير السن ولم يبلغ مبالغ الرجال ولم تكتمل قوته فجعل يدور عليه في الجهة التي سار فيها ورجاله من خلفه يبحثون عنه حتى يسر الله الامر والتقى به في ذلك المكان على سبيل الصدفة فلما رآه فرح كثيرا وسأله عن حاله وعن سبب تأخيره في ذلك المكان الي مثل تلك الساعة حتى سبب شغل أفكارهم .

وكان بهرام قد سر كثيرا من لقائه للمنذر بالقرب من المغارة فأخبره بكل ما جري له ثم نزل عن جواده وأخذه من يده ومشى به نحو المغارة ثم أدخله اليها ولما رأى المنذر هيكل تلك الافعى العظيم التي لم ير مثله ولا سمع من أحد بوجود نظيره وكان الدم لا يزال ينساب من بطنه الى الخارج تعجب وارتعب وعظم شأن بهرام في عينيه أكثر من قبل وقال له والله يا ولدى انك نادرة زمانك وفريد عصرك وأوانك ولو لم أر هذه الاعمال بعيني لما صدقتها ولو حكاها لي أبي أو قرأتها في سير الاولين وأخبار العلماء الماضين وكتب الانبياء والمرسلين لعظم على

تصديقها فليساعدك الله ويقويك ويحرسك من كل عدو ويقيك شر عيون الحاسدين . فقبل بهرام يده وشكره ثم قاده الى مكان الكنز وأراه الجواهر فزاد تعجبه أكثر من الاول وطار صوابه وقال من أين كل هذه النفائس فلا ريب أن أحد الملوك العظام كشداد بن عاد او غيره من الذين ملكوا أكثر أقسام الدنيا دفنها في هذا المكان لسبب لا يعلمه الا الله .

ولما كان الوقت قد مضى والليل قد اشتدت ظلمته صرفوا ليلهم في ذاك المكان يتحدثون عن بهرام واعماله وقد نصبوا الخيام وفرشوا مامعهم من المفروشات وأوقدوا النيران وشووا مامعهم من الصيد واكلوا وناموا الى ان اشرق الصباح فهبوا من رقادهم وارسل المنذر السعاة الى المدينة فأتوهم بالجمال والبغال فحملوا تلك الجواهر المتقدم ذكرها ورفعوا الذهب على ظهورها وكان يبلغ قناطير كثيرة . ومن ثم رجعوا الى المدينة وهناك امر المنذر المصورين ان يذهبوا الى تلك المغارة فيروها ويروا ذاك الافعى ومن ثم يصوروا بهرام وقد اطلق سهمه على الافعي في وسط المغارة فقتلها والدم يجري كالنهر في حوائط القصر بجانب صورة الاسد .

وشاع خبر بهرام وقتله الافعى في المدينة فأخذ الاهلون كبارا وصغارا رجالا ونساء يتقاطرون افواجا ويتسابقون الي تلك الناحية للفرجة على تلك العجيبة وما من احد الا وقد دهش وكاد لا يصدق ان انسانا يقدر على مثل هذا الحيوان الذى لو ضرب جبلا لزعزعه ولو راى اسدا لقتله وازدرده دفعة واحدة وزادت محبة بهرام في قلوب الاهلين فكانوا يحلمون به ويحلون قدره ويتمنون ان يروه في كل ساعة واصبح اسمه في فم الكبير والصغير وكان الجميع يمدحونه ويدعون له بطول العمر والبقاء .

فهذا ماكان من المنذر ورجاله وأما بهرام فانه عاد إلي القصر كجارى عادته كأن مافعله من الأمور العادية التى لاتثير اهتمامه ولم يكن يفكر في شيء مما حدث ولا الجواهر ولا الافعى إلى أن رأى نفسه ذات يوم ضيق الصدر متكدر الخاطر فجعل يتنقل من غرفة إلى غرفة ينظر في القصر وبنيانه قاصداً التلهى والتفريج عن نفسه ليذهب مابه من الانقباض والوحشة .

وفيما هو على مثل ذلك رأي بابا مقفلا وكان قد رآه قبل ذلك كثيرا لكنه لم يكن يحفل به أما في هذه المرة فقد تاقت نفسه الي معرفة مافى داخله وقال

عجبا انني منذ وجودي في هـذا القصر وأنا أرى هذا الباب مقفلا ولم يفتح يوما واحدا فلماذا يا ترى وماذا يكون داخله فلا بد لهذا الأمر من سبب .

وفي الحال دعى اليه خادم القصر خضر فقال له اني منذ جئت الى هذا المـكان وأنا أري باب هذه الغرفة مقفلا كما هو ولم أر أحدا فتحه فلأى شيء هو مغلق دائما وماذا يوجد في هـذه الغرفة قال خادم القصر اني يا سيدى لا علم لى بشيء من ذلك وغاية ما أعلمـه أن الملك النعمان سلمني مفتاح هذا الباب وقال لي أبقه معك الى حين يطلبه منك الملك بهرام واني اعتقد ان لا أحد يعرف ما داخل هذا الباب الا سمار الذى بني القصر فانه كان حكيما ماهرا والا الملك النعمان .

فزادت رغبة بهرام في الوقوف على ما في هذه الغرفة من الخبايا وقد ثبت لديه أنه يوجد شيء هام مهيأ له منذ طفولته وقد أوصى الخادم بأن يكتمه الى حين كبره .

ثم ان الملك بهرام أخذ المفتاح من الخادم فوضعه في الباب وفتحه ونظر الى ما في داخله واذا هو يرى سبعة كراسي مطلية بالذهب الوهاج مرصعة بالجواهر والياقوت وعليهـا سبع بنات حسان كأنهن الاقمار جالسات كالملوك على عروشهن فأخذته الدهشة والرجفة في الحال لأنه لم يكن ينتظر ان يري مثل هذا المنظر البديع فوقف مبهوتا وعيناه جامدتان في البنات يري ولا يعى وبقى غائصا في بحار الحيرة مقدار ساعة تقريبا .

ثم بعد ذلك عاد اليه وعيه وشجاعته فتقدم الى الامام ودنا من الاسرة بقلب واله وعقل تائه وأحدق في البنات فاذا هن رسوم لا جسوم قد صنعت بيد فنان ماهر ومصور مبدع قادر فتن بصنعه القلوب وموه على الابصار فلا يقدر الرائي على التمييز الا باللمس عن قريب وبعد مدة ارتد الى بهرام وعيه وأفاق من غشيته قليلا لكنه بقي غائصا متأملا في وجودهن وصنعتهن وعجيب وصفهن وهو يتأمل ويحاول أن يميز جمال واحدة عن أخواتها فلم يقدر أن يحكم لواحدة بالتفوق في الجمال وأخذ عند ذلك الحب يتجسم في فؤاده بفعل العناية حتي كاد يقع الى الارض وهو لا يعرف ماذا يفعل وقد زاد تأسفه وهيمانه لمـا رأى ان ما أمامه ليس الا رسوما وصورا لا تحس وود لو انها كانت أجساما حقيقية وكان قلبه يخفق عند وقوع نظره على كل واحدة منهن والافـكار تتلاعب به

وتبين له ان لا بد من اصل لتلك الصور القائمة على عروش البهاء والكمال وانها ما صنعت الا لغاية تتعلق به وأمر يختص له وقد حفظت كل ذاك الزمان فى ذلك المكان على أمل أن يراها وقد أوصى بانى القصر والملك النعمان خادم القصر باخفاء مفتاح تلك الغرفة الى حين يكبر فيسلمه اياه ورجح عنده ان لا بد لذلك من سر عجيب وأمر غريب .

وفيما هو على تلك الحالة تارة تتجاذبه الافكار وتتلاعب به التخيلات والاوهام ودواعى المحبة والغرام وطورا يقف عند البحث فى سبب وضع هذه الصور فى ذاك المكان واحيانا يعود اليه الصبر والجلد فيعزم على الخروج والتخلى عن عن تلك المناظر البديعة التي لا يستفيد منها الا الحسرة والحزن لانها جوامد غير ناطقة واذا به يري كتابة فارسية بحروف فضية دقيقة بارزة على ألواح من الذهب الاصفر .

كل منها معلق بكرسى من الكراسي السبعة ، فأدرك أنها أسماء الملكات الجالسات على هذه الكراسي فاقترب من تلك الألواح وأخذها بيده وقرأ مافيها وإذا به يجد مكتوبا على اللوح الأول (هذه صورة نور بنت ملك الهند) وعلى اللوح الثانى (هذه صورة لقمان بنت ملك الصين) وعلى اللوح الثالث (هذه صورة برى بنت سلطان خوارزم) وعلى اللوح الرابع (هذه صورة نسرين بوش بنت ملك الصقالبة) وعلى اللوح الخامس (هذه صورة درستى بنت كسرى من نسل كيكاون) وعلى اللوح السادس (هذه صورة هماى بنت قيصر الروم) وعلى اللوح السابع (هذه صورة اذربون بنت سلطان الغرب) فلما قرأ بهرام تلك الكتابات وعرف أسماء صاحبات تلك الصور زاد فى الحيرة والاندهاش وجعل يبحث في أطراف الغرفة وتحت الكراسى عله يقف على أثر آخر يزيده علما أو يوضح له شيئا من أمر تلك الصور أو صاحباتهن وإذا به يعثر صدفة على لوح آخر مكتوب عليه ما يأتى « إن المنجمين وعلماء الدولة والمطلعين على أحوال الملوك وأدوار السلاطين والعارفين بحوادث الدنيا وموجوداتها أخبروا أن بهرام ابن الملك يزدجرد سعيد الطالع وقد قدر الله سبحانه وتعالى أنه يملك السبعة الأقاليم ويحصل على بنات ملوكها السبع أجمل بنات الدنيا ويكون له من المجد والعظمة مالم ينله غيره قبله من الملوك » فلما قرأ بهرام ذاك اللوح وقف متفكرا فى أمر هذه الدنيا وكيف أن الله سبحانه وتعالى خلق فيها أناسا يبحثون عن

أحوال المستقبل ويعرفون ما سوف يقع في مستقبل الايام وأنهم على الدوام يصيبون . ولذلك استغفر الله وخر ساجدا شكرا له على عظيم فضله ونعمه وبعد أن صلى وطلب المعونة من الله عاد الى صور البنات ووقف أمامهن وقد زادت محبته الى صاحباتهن حتى أصبح لا يقدر أن يفارق ذاك المكان بسهولة . ثم قال في نفسه يجب أن أرى أية صورة اجمل وابدع فنظر في الاولى وأحدق فيها وقال لاريب أن هاته أبدع الجميع حسنا وبهاء وجسماً وقدا واعتدالا وبقى محدقا بها حاكما بوحدانية جمالها وكمالها إلى أن انتقل إلى الثانية فجعل يتأمل فيها وقال لأ بل هذه أبدع منظراً فكل مافيها كامل ومحبوب وبقى كلما وقع نظره على صورة يحكم بأنها أبهى الجميع حتي حكم للسبع بنات بأن كل واحدة أحسن من الثانية ودام على حاله مدة من الوقت وقد انسحب قلبه وهطلت دموعه تكراراً وهو يفكر في الطريق الذى يوصله إلي البنات وفيما هو على مثل ذلك عاودته شجاعته وبسالته ودبت في جسمه حرارة الجد والسعى فقال في نفسه ماالفائدة من وقوفي في هذه الغرفة أمام الاصنام الواقفة والصور الصامتة التى لا تحس ولا تشعر ووقوفي لايزيدنى إلا حسرة وألا أزيد الا تأوهاً فالافضل لي ان اتكل على ما اعطانيه الله من الشجاعة والعقل فأسعى خلف صاحبات الصور ولابد لى من العمل بجد وحزم لأحصل على اصحاب هذه الصور الجميلة ولو خضت بسببهن لجج البحار او طويت الفيافي والقفار وماقدره الله على فلابد من وقوعه ولو حال دونه ألف حائل .

ثم انه خرج من تلك الغرفة واقفل الباب ووضع المفتاح في جيبه ورجع الى ما كان عليه من قبل من الخروج إلى الصيد والقنص في النهار وفي المساء يعود الى القصر فيدخل علي الصور وينظر اليها وكثيرا ما كان يخاطبها بقوله وهو سكران بخمر جمال صاحباتها « يا أيتها الملائكة الجالسات على عروش البهاء والجمال من منكن يلزم أن أحب فأخصص لها نفسى لا يمكن أن أعطي قلبي لكن دفعة واحدة وهو لا يطاوعنى الا على محبة الجميع فماذا ياترى اعمل » وكان يحزن ثم يتسلى ثم يسر ثم يعود الى حزنه واخيرا يخرج من تلك الغرفه ثم يعود الى جارى عادته من الصيد والقنص بالنهار ثم الاقبال على الطعام والشراب والانس بالالعاب بقية النهار وعند المساء يدخل الغرفة فيصرف وقتا طويلا على الوصف الذى

قدمناه وكانت الايام تمر عليـه وهو على تلك الحالة الى ان بلغ سن الخامسة عشرة من عمره .

في ذات يوم جلس في القصر مع الملك المنذر وأخذا يتباحثان في شتى الأمور فخطر على فكر بهرام أمر أبيه فقال للمنذر عجبا انى منذ زمن طويل لا أعرف شيئا عن أبى فلماذا ياترى هل نسيني ولم أعد أخطر له فى خاطر فأجابه المنذر انه مطمئن البال عليك وان كثرة أشغاله هي التى حملته لا يفكر إلا فى أمر المملـكة . فلم يقنع بهرام بهذا الجواب بل في الحال أحضر رسولا وأرسله إلى ايران لينظر فى أحوالها ويعرف أبيه وهل هو حى أم لحقه المنون .

فسار الرسول وغاب عدة أيام ورجع وهو بحالة حزن ويأس ودخل على بهرام وقبل الارض بين يديه ووقف ذليلا حزينا فخفق قلب بهرام وأدرك أن أباه توفى لامحالة وأنه شرب كأس المنون التي يشربها العالى والدون ، ويجرعها الصعلوك كما يتجرعها الملوك فقال للرسول أخبرنى بما رأيت ولا تخف وعليك الامان فقال : إعلم يا سيدي أنى خرجت من هنا وسرت بعجلة فى طريق ايران حتى صرت قريبا من ضواحيها وقبل ان ادخل صادفت فلاحا فى حقله فسألنى أين تقصد فقلت له قصدى المدينة قال ارجع من حيث أتيت فلا أحد يقدر ان يدخل ومن يرونه داخلا يقبضون عليه فاما يقتلونه واما يبعدونه فانى أنصح لك ان لا تدخل والسلام ثم دار ظهره ومشى فسألته عن السبب فلم يجبنى بجواب وزاد اضطرابى ونويت أن لا أرجع فتقدمت وكان الليل قد أقبل فأخفيت نفسي فى احدي الزوايا الى ان مضي اكثر من نصف الليل فتسللت الى داخل المدينة دون أن يرانى أحد لكن كنت خائفا أن أسأل أحدا فيعرفني غريبا فيقبض على وبقيت متحيرا الى ان خطر لي خاطر وهو ان اذهب الى بيت اناس كنت اعرفهم قديما وهم أنسباء زوجتى فأتيت البيت وطرقت الباب ففتحوا لى ولما راونى عرفوني ورحبوا بى وادخلونى وسألونى عن امرى فقلت لهم قبل كل شيء اريد ان اعرف لماذا منع دخول الغرباء المدينة ولاى سبب .

فقالوا لى ان الحكومة الحاكمة الآن منعت دخول كل من يأتى من الخارج ولذلك ترانا متعجبين من دخولك البلد ووصولك الينا

فقلت وما السبب لهذا العمل مع ان الملك يزدجرد كان يسمح لـكل غريب بالدخول والخروج فماذا حدث بعد غيابى وهل لا يزال الملك يزدجرد حيا

فتأوهوا وقالوا لا تسل يا نسيبنا فان الاحوال قد تغيرت والامور تقلبت وتوفى الملك منذ خمس سنين ومنذ ذلك الحين والطرق مسدودة فى وجه الداخلين الى المدينة والمسافرين اليها وذلك انه بعد ان توفى الملك يزدجرد كفنوه وطلب كبراء المملكة واعيانها الى الوزراء والوكلاء ان يستحضروا بهرام بن الملك فوعدوهم باحضاره وأروهم كتابة كتبوها يستدعونه بها لكنهم لم يرسلوا الكتابة بل اجتمعوا الى بعضهم البعض واعتمدوا ان لايضعوا احدا من اولاد الملك يزدجرد فيما بعد وصار كل ما سأل الاهالى عن بهرام وزمن وصوله يقولون لهم غدا يحضر وفى الشهر الآتى يحضر وهو مشغول الآن بالصيد والقنص ويختلقون أقوالا لاأساس لها وأخيرا عرفوا أن لا بد لهذه الحالة من نهاية فدبروا الامر فيما بينهم واجلسوا على العرش رجلا اسمه خسرو وساعدوه بالاموال والجنود واورثوه الدور والقصور والزمت الرعية السكوت وخصوصا لانها لم تكن تعرف شيئا عن ابن ملكها ولا تعلم أيأتى ام لا والآن هم صابرون على حكم القضاء واما الوزراء والملك خسروا فاهم في خوف دائم من وصول الملك بهرام او وصول اى رسول من قبله ولذلك لايتركون احدا يدخل المدينة ومن يدخلها يقبض عليه فيطرد واذا اشتبه فيه بانه ربما يكون رسول بهرام يقتل كي لايوصل اليه الخبر .

فلما سمعت ذلك خرجت فى الحال من البيت دون ان اصغي لدعوتهم لي وانسحبت تحت ذيول الظلام من المكان الذى دخلت منه ولما صرت فى الخارج أمنت على نفسي وشكرت الله على خروجى المدينة سالما لاصل اليك بخبر اولئك اللئام الذين حملتهم الخيانة والغدر على سلب الملك من يدك وهذا كل ما رأيته وسمعته يا سيدى .

ولما سمع بهرام من الرسول هذا الكلام كاد يختنق من الحزن على ابيه ومن الغضب على وزاء المملكة ووكلائها وقد احمر وجهه ثم اصفر واخذ يتلون نحوا من ربع ساعة حتى هدأ غضبه نوعاما ورجع اليه بعض روعه وحينئذ بكى على والده وسالت دموعه على خديه .

وفيما هو على مثل ذلك دخل عليه المنذر ولما رآه على ما تقدم كاد يطير صوابه واستفسر من الرسول عن السبب فأخبره بكل ما جرى فأخذ المنذر يسليه ويطيب خاطره وقال له ان موت ابيك يفطر قلوبنا ويحزننا كثيراً ولكن علينا

أن نتمسك بالصبر والتعزية لأننا سائرون فى أثره وسيحزن علينا خلفاؤنا كما نحزن نحن على أسلافنا والرجل العاقل هو الذى يدوس المصائب بقدمه فلا يقع تحتها فتسحقه .

وأما من جهة ذلك الذى جلس على العرش واغتصب حقوقك فاننا نسير اليه الجيوش ونحاربه ولابد أن ينضم الينا أكثر شعوب الفرس لعلمهم أنه مغتصب حقوقك متعد على ميراثك فيقلعونه بالقوة عندما يرونك واصلا إليهم ويشاهدون ما أنت عليه من الشجاعة وكمال السجايا وشريف الأعمال وها أنا ورجال العراق بين يديك نفديك بأرواحنا ونسير فى ركابك أينما سرت فأزح عن قلبك الهم والغم وانهض نهضة الاسد فما أنت ممن يعجز عن نيل مراده وأخذ ثأره من خصمه .
فقال بهرام أما ذهابى إلى ايران فلابد منه فانى أوافيها بصارمى الأبتر واجمع لى جيشا من محى أبى ومهما كان عدده فانى أهدم عليه المدائن وأدك أسوارها فوقه وأجعلها قاعا صفصفا وقد ظن أولئك الوزراء الخائنون اني كغيري من الضعفاء الذين تسلب أموالهم ويؤخذ الملك من يدهم فلا يتحركون وسيرون سيفا يقد الحديد وغربا تهتزله الجبال لكني لا أرغب أن أقودك وجيوشك إلى تلك البلاد وكفي ما تحملت من أجلى من العذاب والتعب خمس عشرة سنة وأنت موجه الى كل همك واهتمامك ، كأن لا شغل لك إلا شأنى والعناية بى فأنا مدين لك معترف بجميلك الى الابد وكل ما بى من شجاعة أو علم أو كرامة أنت سببها ومصـــدرها .

فأجابه المنذر عبثا تحاول ياولدى أمر الانفصال عنا فأنت ربيت عندى كولدى وأنا أعزك وأحبك أعظم من أولادى وأهلي ولا أريد أن أتخلى عنك وإن كنت انت لاتسير إلى إيران فها أنا أسير بنفسي من الغد وأستعين بالله على هذا الظالم الغدار وآخذ بثار أبيك لانه كان يعزنا ويودنا ويركن الينا فى أكثر الشدائد والملمات وما يعرض له من النائبات ولم ير من يودع عنده ابنه إلا أبى فانهض فما فى الـكلام فائدة .

ثم إن الملك المنـذر أمر من تلك الساعة بأن تتأهب جيوش العراق والحيرة وأن يكتب الى قبائل العرب أن توافيه برجالها وسلاحها فتقاطرت القبائل على خيولها ولم يمض الا يسير من الايام حتي ركب الملك المنذر وبهرام وركب من خلفهما مائة ألف فارس من الفرسان المعدودة كلهم بالدروع الداودية والسيوف

اليمنية وتحتهم الخيول العربية وساروا يقصدون مملكة ايران وتلك النواحى وما زالوا فى مسيرهم حتى وصلوا قرب مدينة ايران فنزلوا فى خارجها لأخذ الراحة والنظر فى تدبير الامر .

ولما بلغ الخبر الملك خسرو الذى أجلسه الوزراء على تحت فارس خاف لانه كان شيخا طاعنا فى السن وليس فيه من الشجاعة والقوة ما يثبت به فى ميدان الوغى والنزال ويقاوم به أخصامه الاشداء ولا سيما وقد ثبت لديه أن الرعية كلها ستجتمع إلى ابن ملكها ووريث العرش بعد أبيه ولذلك أحضر اليه الوزراء والوكلاء وقال لهم : انى أعجب من خيانتكم لملككم السابق وغشكم ملككم الحالى فما دام فى الدنيا وارث لتخت فارس فلماذا دعوتمونى وأجلستمونى عليه .

فأجابوه عفواً يامولانا اننا فعلنا ما فعلنا لعدم رغبتنا فى بقاء تلك العائلة فاننا لا نريدها وأكثر الاهلين ينفرون منها فضلا عن أن شدة رغبتنا وعلمنا بعلو مقامك ورفعة شأنك هما اللذان حملانا على أن نفعل ما فعلنا .

والآن لا يرهبنك هذا الغلام فانه ولد لم يتجاوز الخامسة عشرة فلا يقدر أن يقاومنا فى عزمنا ومن الواجب أن ترسل إليه تتهدده بكثرة الجيوش والابطال وتبين له أن اتكاله على جيوش العرب التي معه لا يدفع عنه شدة وتسأله أن يتنازل لك عن الملك ويهبك حق الميراث فلابد أن الخوف يحمله الى إجابة طلبنا فهو طفل على كل حال ونكون بذلك قد أرضينا الرعية عموما وارتحنا من اللوم والتنديد واستغنينا عن استعمال القوة وأبقينا السلام بيننا وبين العرب لانهم من أتباع دولتنا وما أخفينا أمر توليك عن الملك المنذر طول هذه المدة إلا لعلمنا بوجود بهرام عنده .

فاستصوب خسرو ذلك الرأى وثبت لديه صوابه وكتب لبهرام كتابا يقول له فيه بعد السلام والثناء إعلم ياولدى أن الله قد أحسن الى بتخت فارس وأوصلني اليه لا بسعى وجد ولا بجند وقوة ولا بميراث وحق لكن إرادة الله قضت بذلك لانه من المعلوم عند الناس أن الرجل الحسن الطالع تخدمه الاقدار . فالآن فانى مهما نظرت الى الملك والعظمة والسلطة فلا أرى نفسى سعيداً لان هذا كله يشبه العسل الممزوج بالسم . وانى كنت في غنى عن كل ذلك قانعا بثروتى ونفوذ كلمتي مرتاحا عن حمل هموم الغير فاجتمع الرعية والجنود وأخذونى من عيشتى فى الراحة والهدوء وأجبرونى على الجلوس على تخت السلطنة . . كلا . كلا . .

انهم لم يقيمونى ملكا بل غفيراً . وفى الامثال :

ان نصف الناس أعداء لمن ولى الحكم وهذا إن عدل

وعليه فأرى أن شابا مثلك فى أول عمره يقدر أن يتناسى الملك وينصرف إلى الملذات والملاهى ويعيش في نعمة وراحة وسكينة لا يتحمل أثقال الملك ومصاعب رجال الدولة بالنظر لاختلاف مشاربهم وغاياتهم وعلى أن أصحاب الامر والنهي فى بلاد فارس لا يريدونك ولا يتركوننى فأتخلى لك عن الملك الذى أكرهه فأنت الآن أكثر سعادة لأنك تتنعم بلذات هذه الدنيا خال من كل هم فتخرج الى الصيد عندما تريد وتجلس على موائد السرور والملذات مع أصحابك في أى وقت شئت لا يشغلك عن مشتهاك شاغل مع أنى فى هم وغصة بالليل والنهار أضطر إلى مداراة الخواطر ودفع نقمات العدو والتفكر فى التخلص من وساوس الذين لا يمكن لى أن أرضيهم وهذه أقل هموم الملك وكنت أرغب فى أن أسلمك العرش بهمومه وأثقاله وأعيش كما تعيش أنت بالصفاء والرخاء لكن الوزراء والجند والامراء لا يقبلون حكمك ولا حكم أحد من عائلتك لانهم يرون أن أباك كان أثيما ظالما مر الكلام يحتقر الكبير والصغير ولذلك لا يمكن أن أتخلي عن الملك لمن تكرهه الرعية ومن الموافق أن تتنازل لي عن حقوقك ولا ترغب فى قوم يكرهونك فاذا بقيت مصرا فتأكد انك لا تنجح فان جند فارس كثير لا يحصى له عدد وفى خزائن المملكة من الاموال ما يكفينا لأن نحارب ملوك العرب والروم والهند والصين وكل ملوك الارض ويترجح لنا الفوز لكثرة الجنود والاموال فانظر فى أمر نفسك نظر الخبير العاقل ولا تطوح بنفسك فتندم والسلام .

وبعد أن فرغ من كتابة هذا الكتاب أخذه اثنان من الوزراء وخمسة من حكماء الدولة وساروا به الى جيش العرب ليسلموه إلى بهرام وينذروه بالخطر وينصحوا له أن لا يتصدى لتخت فارس ولم يكن الا القليل حتي وصلوا جيش العرب وأرسلوا فأخبروا بهرام بوصولهم اليه فأمرهم بالدخول عليه فنزلوا عن خيولهم ودخلوا الصيوان وبعد أن أدوا رسوم السلام والاحترام علي حسب عوائدهم وقفوا بين يديه وكان بهرام جالسا علي كرسي مرصع بكمال الهيبة والوقار ونور جماله يملأ المكان فأمرهم أن يجلسوا في مكان عن يمينه فجلسوا فرحب بهم وبش لهم .

وأما هم فانهم عندما شاهدوا هيبة بهرام وعظمته وما هو عليه من الحسن

والاجلال تعجبوا ووقعوا فى حيرة وخوف . ومن ثم نهض أحد الوزيرين واقفا على الاقدام وبعد الدعاء ناوله رسالة الملك فأخذها من يده وناولها إلى كاتبه وأمره أن يقرأها بصوت عال . فأجاب الكاتب أمره وقرأها عن آخرها حرفا حرفا .

ولما سمع بهرام الرسالة وعرف مضمونها احتدم من الغيظ وصار وجهه أحمر كالدم وتطاير الشرر من عينيه وصبر على نفسه إلى أن استكن وعاد إليه لونه الطبيعى شيئا فشيئا وبعد أن جمع حواسه وقبض على أزمة غضبه أخذ يفكر فى الجواب برهة ومن ثم قال للوزراء بكمال الوقار والاحترام .

نعم قرأت الرسالة وعرفت جميع ما كتب فيها لقد أرسل ينصحنى ويشير على أن أبقى فى الصفاء والانس ولا يخفاكم أن عندي من الجواهر والاموال ماأقدر أن أشترى به السبع أقاليم وأملاك الدنيا من أولها إلى آخرها لكن أري من المفروض على أن لا أترك البلاد التى ملكها أبى وأجدادي والتخت الذي يحق لى ميراثه أن تصرف الآخرين وفى المثل . . إذا ادعى أبى الالوهية وجب على عبادته ، والانسان العاقل لا يسمح له عقله ولا يطيعه شرفه على التخلى عن حق كهذا كان من رغبة أبيه إيصاله اليه ومع ذلك فان كان أبى ظالما فأنا عادل وإن كان غضوبا فأنا حليم وإن كان قاسيا فأنا لين . وإن كان ليلا فأنا نهار ألا تعلمون أن الليل يولد النهار وأن الماس من الصوان . فاذا كنتم تقيسوننى بأبي فأنتم فى غلط مبين . وأما أنا فان كنت نائما إلى الآن فهاقد استيقظت وان كنت جاهلا الخبر فهاقد علمته وعرفت كل شيء ومع ذلك فأتجاهل كأنى لا أعرف شيئا فألتفت الى مصالح العباد ولا أنفصل عن النظر فى شأن المملكة دقيقة ولا أطمع فى مال أحد وروح أحد وأعفوا عن خيانتكم وخطئكم وأجرى ماهو لائق في حقكم ولا أدع الحكماء والعلماء بعيدين عن بابى وأطرد عنه كل جاهل وخبيث وأحافظ على أموال وأعراض الجميع سواء كانوا علماء أو جهلاء ولا أنظر بخيانة الي مال أحد ولا أضيع مصالح الاهالى والعباد وما يتعلق بهم الي غايات الوزراء ورجال المعية بل أراها بنفسي وأحكم فيها بعدل الله وحقه ومازلت حيا لا أقيم على المملكة وكيلا لى ولا أختار وزيرا الا من فلاسفة العصر وعقلائهم والحاصل أنى لن أغفل دقيقة عن أمور الملك ولا أفعل الا ما يرضى الله ويسر الرعية .

ولما فرغ بهرام من كلامه والوزيران ورجال الفصاحة والحكمة الخمسة يسمعون كلامه اندهشوا من فصاحته وطلاقة لسانه وحسن آدابه وكانوا قد انقادوا لهيبته وحسن طلعته فعرفوا أنهم فى غلط مبين وقد ندموا على ما سبق منهم لان مثل بهرام يفدى بالارواح والاموال ومضي عليهم مقدار ساعة وهم سكوت لا ينطقون ببنت شفة يفكرون مطرقين الي الارض فى ماذا يجب أن يعملوا . وبعد ذلك نهض الوزير الاول واقفا علي الاقدام ودنا من السرير الجالس عليه بهرام فعمله وبعد أن أكثر له من الدعاء والثناء قال له اننا نعلم ياسيدى أننا غلطنا وارتكبنا طريق الشطط ويكفى أن فصاحة لسانك الآن وحلاوة حديثك تنسينا كل مالاقينا قبلا من أبيك فوارث المملكة الحقيقي هو أنت ولذلك نرجو من لدنك العفو عن خطئنا وخيانتنا والآن نؤكد لك أن العرش والتاج والسلطان خلقت لك فلا تليق بغيرك وعلى الخصوص أنها ملكك وحقك فقد تركها لك أبوك وأجدادك ومن يطمع فيها فهو باغ واننا على يقين من ان عامة الرعية والجند يكونون ممنونين من توكيلك عليهم ويفرحون . لذلك كثيرا لكن ما الفائدة الآن فاننا نعترف لك بالحق الذى أنت أهله ونتمني من كل قلوبنا أن تكون سيدنا وسندنا وقد سبق لنا أن بايعنا خسرو وعاهدناه على الامانة وأقسمنا له الايمان العظام بأن نكون أمناء على شخصه وتاجه ولانخون له عهدا ولا ميثاقا وهااننا الآن نفدي أرواحنا فى سبيل خدمتك فقط نرجو منك أن تبحث لنا عن حجة نحتج بها لدى خسرو فاننا لا نقدر أن نقاومه وقد اخترناه من نفوسنا فيلزم أن نخرج من عهدنا بسبب الاعتراض عليه .

ولما سمع بهرام كلام الوزير سر منه قلبا وقالبا وتبين من وجهه صدق كلامه وحينئذ قال بكمال الاحترام والوقار لكم الحق بذلك لأن العهد والميثاق شيء عظيم لكن يلزم أن تتفقوا وتقرروا على مايأتى وهو أن تأخذوا تاج أبي وتأتوا به الى ميدان المدينة الواسع الجوانب وتأتوا بأسدين جائعين مدة أيام وتربطوهما الى تخت تضعونه فى نصف الميدان وتضعون التاج على التخت فمن يقدر أن يجتاز بين الاسدين ويأخذ التاج عن التخت ويلبسه يكون نصيبه عرش مملكة فارس ويتنازل له الآخر عن حقوقه عن طيبة خاطر ورضا وهاأنا راض بهذا الشرط وقابل لكل مافيه وحينئذ اتفق رجال مملكة ايران على هذا الرأي واعتمدوه فيما بينهم وهم في حيرة عظيمة من هذا العمل وقد وافق هذا الرأى مشربهم لانهم

علموا أنه يستحيل على كل واحد من الاثنين أن يجتاز بين الاسدين لكنهم تيقنوا أنهم لابدوأن يخلصوا من هذا المشكل ويتخلى عن الملك أحد الملكين أو يذهب فريسة الاسدين

وبعد أن قر قرارهم علي هذا الشأن نهضوا وقبلوا التخت الجالس عليه بهرام وخرجوا من حضرته وهم في حيرة عظيمة مما شاهدوا وسمعوا ولازالوا يتحدثون بأمر بهرام حتي دخلوا على الملك خسرو وأدوا له واجب الاحترام ثم أطلعوه على الكيفية وعلي ما اتفقوا عليه بهرام وحالما سمع خسرو بذكر الاسدين انخطف لونه وصار كالرماد وفي الدقيقة نفسها قام عن الكرسي ونزل الى الارض وقال لا أريد الملك ولا أنازل الاسود ، فها أنا اترك الملك لبهرام من الآن وأتخلي عن التاج لصاحبه فان الحياة لدى أغلى من الملك وليس فى وسعي أن أوافقكم فانكم عن قريب تضيعون لى حياتى وتفقدونى راحتي

الا أن الوزراء والوكلاء لما سمعوا أجابوه من حيث انك قد تخليت عن العرش من نفسك فنحن نقبله ونعيده الى الوارث الحقيقي قال افعلوا ما شئتم واذا كان بهرام يفعل كما تقولون وكما تزعمون بأن يأخذ تاج أبيه عن التخت الموضوع بين أسدين فلا أمانعه فى الملك ولا أزاحمه وأسلمه اياه من يدى وأحلكم جميعكم من عهودكم وميثاقكم واحفظ دماء العباد وأصون حياتي ، قالوا أصبت فاننا لا نسلم التاج لبهرام مالم يف بما وعد ونحن نرى من الصعب جداً أن يتخلص بهرام من مخالب أسدين عظيمين فاذا لم يجسر على الدنو منهما بقي العرش لك واذا حمله العنفوان والعتو والجهل والطمع علي المخاطرة بنفسه فلا يرجع سالما وعلي كل حال يبقى التاج لك فكن في راحة ، وبعد أن دار بينهم هذا الحديث وقر رأيهم على ما تقدم تفرقوا فى ذلك اليوم الى بيوتهم وفى الصباح التالى خرج الوزراء والوكلاء وأرباب الدولة وأهالي المدينة صغاراً وكباراً نساء ورجالا الى ميدان متسع فى نصف المدينة وجميعهم في حيرة عظيمة وارتباك ونفوسهم تطمح الى التفرج على مثل هذا المشهد العظيم الذي ماراأوا ولا سمعوا بمثله من قديم الازمان وكان الملك خسرو أيضا قد جاء لاجل الفرجة ومشاهدة شجاعة منافسه على العرش الملك بهرام وهو علي يقين أنه سيذهب فريسة الاسدين ، وحينئذ جاءوا بكرسى الملك فوضعوه فى وسط الميدان وجاءوا بالتاج فوضعوه عليه والناس تنتظر النهاية وفى الوقت نفسه جيء بالاسدين الى الميدان يقودهما و

مائة رجل من الرجال المنتخبين والشجعان المختصين بخدمة الاسود وقد أوصوهم منذ مساء الامس أن لا يطعموهما شيئا وكان الرجال يلاقون أعظم مشقة وأشد عذاب فى قيادة الاسود وقلوبهم ترتجف من الخوف لأن الاسد إذا جاع يأكل الحجارة إذا وصل اليها فضلا عن أنهما كانا هائلين جداً من أكبر الاسود وأعظمها هيبة ولما قربوها من التخت دقوا لهما الاوتاد فى الارض وربطوهما من جانبي الكرسى الواحد الى رأس الآخر بحيث لا يمكن للبرغوث أن يجتاز بينهما بسهولة وأما الناس المتفرجون فقد وقعوا فى عظيم الخوف والوجل وصاروا يرجفون من منظر الاسدين ويتأسفون علي فوات عمر بهرام متأكدين انه سيكون فريسة للأسدين وكان الاسدان فى غليان وهيجان من شدة الجوع وقد فتتا بأظافرهما الحجارة الكبيرة حتى جعلاها كالتراب المنخول وحفرا الارض بأيديهما وملأ زئيرهما القلوب خوفا

وفى ذلك الوقت أرسل الوزراء خلف بهرام يعلمونه بأن كل شيء قد حضر وأن التاج موضوع على كرسى الملك بين أسدين كما أمر وأنه اذا أخذه أخذ المملكة

فلما اتصل الخبر ببهرام نهض بدون تأخير ولا تأجيل وقد سار من جانبه الملك المنذر وبعض الوزراء والاعيان فدخلوا المدينة واجتازوا الميدان المذكور حيث ألوف الناس ينتظرون وصوله ليروه

ولما وصل ونظره الناس مالوا إليه وتعلقت قلوبهم به وقد تعجبوا من بهاء طلعته وصبوح جبينه وجسارته علي مفاجأة أسدين كاسرين عظيمين مع صغر سنه وأدركتهم الرحمة له وامتلأت قلوبهم محبة له وشفقة عليه وكثر القال والقيل وارتفعت التنهدات من الصدور والتحسرات عليه وكلهم يتمنون له الخلاص ولو فدوه بأرواحهم وقالوا فى نفوسهم هذا هو ابن ملكنا ووارث العرش فكيف نتركه عرضة لمخالب الاسود فجازى الله الوزراء والوكلاء فهم علة الخبث والفساد وتقدموا يريدون انتشاله من وسط الميدان فصاح بهم وأرجعهم عنه وقال لهم اجلسوا فى أماكنكم وانظروا بأعينكم عجائب ابن ملككم وتحدثوا عن أفعاله ولا يهولنكم ضخامة هذين الاسدين فهما عندى كهرتين ضعيفين وسترون صدق ما أحدثكم به ولما رأى الناس عناده واصراره رجعوا متأسفين عليه وأعينهم تقطر دما وقلوبهم تتفطر أسى ووقف كل واحد فى مكانه .

وأما بهرام فانه وقف فى مكان عال وأمر المنادين أن ينادوا أن تاج فارس موضوع الآن على العرش بين أسدين وهو مباح لكل فرد من شعوب ايران فمن أراده من الوزراء والاعيان ورجال الدولة وجنودها وعوام الناس فليتقدم ويأخذه ويضعه على رأسه وبذلك تنقاد لامره الرعية وأكون له من جملة الطائعين وأتخلى له عن حقوقي ويصبح ملكا على الدوله وحاكما فيها

وبعد أن طاف المنادى ثلاثا عاد إليه وما تجاسر أحد على المخاطرة بروحه فى جنب هذا التاج العظيم وقد تقدم إليه الوزراء وقالوا له لا أحد ياسيدنا يجسر على نوال هذه النعمة فهى مختصة لابك لغيرك وهذا أمر اقترحته أنت فأرنا فعلك ، فقال سترون بأعينكم وتتعجبون منه أشد العجب ثم نزل من مكانه إلى الارض فألقى عنه سلاحه ونزع عنه الدرع والطاسة فألقاهما إلى الارض ولبس قفطانا كعادة العرب وربط فى وسطه زنارا ونزع عن رأسه ما كان عليه وانفصل عن المنذر وقومه وتقدم إلى وسط الميدان وأقبل بوجهه على الناس يطوف ويسلم عليهم ثم رفع رأسه الى السماء ودعا الله سبحانه وتعالى فاستنجده وسأله المعونة ثم بعد ذلك تقدم نحو الاسدين

وأما الوزراء ورجال الدولة فكانوا يضحكون منه ويستهزئون به وقد حكموا بأنه مجنون وقالوا ان كانت هذه الحالة حالته فالاوفق هلاكه فتتخلص المملكة من الويل وسفك الدماء

وأما المنذر ورجاله فقد خافوا عليه وأخذت دموعهم تذرف وأعينهم شاخصة اليه وكذلك تلك الجماهير الكثيرة فانها رفعت أكفها الى الله سبحانه وتعالى تدعوه وتسأله خلاصه من هذه المحنة الوبيلة وأن ينزل من سمائه نارا وكبريتا فتأكل الاسدين ولا يصاب ملكهم بشر

وأما بهرام فتقدم من الاسدين بقلب لا يخاف من الموت ولا يهاب الاسود كثرت أوقلت ولما رآه الاسدان وقد صار على بضع خطوات منهما زأرا وهاجا وضربا بأكفهما الارض ففتحا فيها خلجانا وارتفع فوقهما الغبار حتى كاد يحجبهما عن الابصار لولم يفرقه الهواء ثم رفعا أيديهما وانحدرا بكليتهما فجأة على بهرام فلم يعبأ بهما بل بقي واقفا محدقا بهما يسأل الله نصرته وأن لا يتخلى عنه وانتظر حتى قرب منه رأس الاسدين فأسرع ومد يده كالبرق الخاطف وقبض على أذنى الاسدين وذكر الله قبل كل شيء ثم صاح بصوت ارتجت منه المدينة

وأرجف قلوب سكانها وقال أى كلاب البرية أتطمعان فى لحم مثلي وتقصدان مقاومتي ولا تحسبان لي حسابا وأنا سيد الأسود ومرجفها فسأجازيكما على سوء ظنكما بي مجازاه تستحقانها و كان الأسدان قد ارتجفا عند سماع صوته وارتعبا وقبل أن يتمكنا من فتح فمهما والايقاع به تمطى بكل قوته وشد على أذنى الأسدين فتألما أشد الألم وغابا عن الصواب ودارا على محورهما وأقعى كل منهما على مؤخرته ثم وقعا على الأرض جثة هامدة ونفسا خامدة لا يأتيان بحركة . وحينئذ انسحب بهرام من بينهما إلى التخت فأخذ التاج عنه فوضعه على رأسه وجلس فوقه كأنه لم يفعل شيئا .

ولم يلبث أن سمع دوى أصوات تلك الجموع المحتشدة من الناس يرعد فى الفضاء وقد علا صياحهم وكثرت أدعيتهم وكلهم ينادون فليعش ملك الفرس وسيدها فليعش إلي الأبد ولتمت حساده وتكمت أعاديه وتزاحموا يترامون فوق بعضهم البعض ويتبار كون بالنظر إلى محياه الصبوح الجميل .

وكان أول من وصل إليه خسرو الغاصب لكرسى المملكة فسجد بين يديه وقبل ذيله وبايعه ودعاله ثم تبعه الوزراء والوكلاء ومن بعدهم الضباط والجنود ثم الأهالي كبارا وصغارا وكلهم يدعون له بدوام العز وطول البقاء فكان يهش في وجوههم ويثني عليهم ويبدى لهم سروره منهم ومن بعد ذلك نهض من هناك وجاء الديوان والاهالى يحتاطون به من كل ناحية وقد أعلنت البشائر فى سائر نواحي المدينة وعمت الافراح وزينوا المدينة وقاموا بكل أسباب المسرات فأمر بهرام أن تفتح الخزائن وتوزع الاموال والكسي والاطعمة على الفقراء والمساكين وأعطى ووهب وخلع الخلع النفيسة على الاعيان وشمل بجوده الكبير والصغير حتى صبح الجميع كبارا وصغارا نساء ورجالا يثنون عليه ويعجبون من كرمه وحسن أخلاقه وكمال أوصافه وعظم مزاياه .

وعلى هذا الوجه جلس بهرام على تخت أبيه وأجداده وأخذ ينظر فى أحوال الحكومة ومصالح العباد وأول شيء عمل انه بعث المنادين ينادون فى الازقة والشوارع قائلين بلسانه (أنا بهرام بن يزدجرد بعد أن جلست على تخت الحكومة أعلن لكم أن الله سبحانه وتعالي لما وجد أن التخت والتاج يليقان بى أحسن على بهما ولذلك لا يمكن لي أنا الحقير أن أقف دقيقة عن الشكر له لعنايته بى لانه حمانى بحمايته ووقانى بنعمته وإنى لم أتوفق لاخذ التاج من بين الاسدين بشدة بأسى ولا بحسامى

بل بقوة ربى وخالقى وقدرته تعالى لأنه أهلك بين يدى الأسدين ومد إلي يد المساعدة حتي أصبحا بين يدى أضعف من كلبين وأذل من هرين صغيرين تعرضالى فوجب على تحصيل رضاه والعمل بموجب ارادته وعلى أن أعدل في الرعية وأعمل بينهم بالانصاف وأسهر على راحتهم وأرى أمورهم بنفسي وأقيم عليهم الحكام العادلين إلى غير ذلك من الأمور التي تكفل راحة عباده ورفاهيتهم وأنا أؤمل من أتباعى ووزرائى ورجال معيتى أن يعملو بين الرعية بالعدل والانصاف والحكمة وخوف الله لأن من شرط التابع أن يتأثر المتبوع فيسير على خطته وفى طريقه ولذلك أبشركم بتحسن الاحوال وصفاء الازمان والخصب والبركات فى الاعمال وفى الزراعات والطمأنينة والهدوء ولو فرض أن أحد الحكام ظلم الرعية وخالف الاوامر وسلك سبل الظلم والتعدى فعليكم فى الحال أن تعلمونى فأنصح له فى أول فاذا رجع عن عمله وسلك مسلكاً جديداً وعدل بين اخوته وأبناء جنسه أبقيت عليه وإلا فما دواؤه الا القتل لأنه لا فائدة فى حياة الظالمين العاملين على الغدر بعباد الله والمتعدين على رعايا الدولة وأهل الملة والعالم أجمع وليعلموا أن الله قد بعثني لأكون لهم غوثا على الزمان وعونا على الظالمين)

وكان المنادون ينادون بمثل هذا الكلام فى الأزقة والشوارع ويبثونه بين الشعب والشعب فى فرح زائد يدعو للملك المحبوب منهم بطول العمر والبقاء وقد أملوا وصولهم إلى درجة عالية من المجد وادراك النجاح على يده بعدأن شاهدوا منه ماشاهدوا وثبت عندهم أنه سيفتح البلدان ويدوخ العواصم ويملك الاقاليم لانه نادرة الزمان وقد خصه الله بكل السجايا الحميدة والمزايا الفريدة .

والحاصل أن بهرام تمكن من عرش الفرس وأحاط الرعية بعنايته وحبه فاتحا أبواب العدل والانصاف فى كل صوب مانحا الصناع وأرباب المعارف اخص اهتمامه ملقيا بغضبه وانتقامه على أهل الجرائم والمفسدين المضرين بالدولة والمكدرين راحة الامة وقد تأثرهم حتي قطع دابرهم وبذلك نشر على رؤوس الرعية علم الراحة والامان وباتت جيوش الدولة فى راحة بعد أن كانت لاترتاح يوما من جراء تعدياتهم وهجماتهم على الاطراف والضواحى وكانت كل دعوى تقع بين اثنين تقدم اليه فينظر فيها بحكمة ويساوى بين المتخاصمين فيرجعان وكل واحد منهما فرح بحصوله على حقه وأما المعتدي فكان ينصح له ويأمره بالامتناع ويسامحه فى الاول حتى إذا عاد ثانيا جازاه على مااستحق وبذلك أصبح الناس

فى أمن لامثيل له وقد تساوى الغنى والفقير فى عين الشريعة والقانون ومات النفوذ الاستبدادى من بين الحكام فلم يبق لظالم غادر حول ولا طول بل كانت عين الملك ترقب الجميع وتسحق شوكة المعتدى وتدوسها تحت أرجل العدالة

وكان الملك بهرام قد بلغ الثامنة عشرة من عمره وشهد له العقلاء والفضلاء من رجال المملكة أنه كان مولعا بحب الرعية وبالقيام بالعدل والانصاف وبذل الخير ومساعدة الفقير حتى لم يبق له عدو فى كل ايران وقد مر عليه أربع أو خمس سنوات على مثل ذلك لم يفتر دقيقة عما هو متوليه لكن مع ذلك كان لا ينسى ما كان قد زرع فى قلبه بيد العناية لان العشق قد جرح قلبه جرحا لا يندمل إلا بعلاج واحد وهو الوصال والحصول على المعشوق

وقد تقدم لنا فيما سبق أن الملك بهرام شاه كان قد رأى رسوم البنات السبع فشغلن خاطره ورمين قلبه بجمرة تزيد التهابا واشتعالا على مر الزمان والايام وعلى الخصوص بعد أن تأكد لديه أن لتلك الرسوم أصلا وأنه لا يتعشق الوهم بل الحقيقة وقد أقيمت تلك الاصنام فى القصر لحكمة خاصة به ولكى يذهب فى طلبهن فهن نصيبه من النساء ومادام الله قد كتبهن له فلابد له من الحصول عليهن . ولذلك كان يجلس عدة أياما على كرسى المملكة ينظر فى أمر عباد الله كما تقدم معنا الكلام وأحيانا يعتكف فى خلوته فلا يخرج قط إلى الخارج بل يتسلى بنظم الاشعار موجها كل أفكاره إلى من أحبهن قلبه فيناجيهن عن بعد ، ويسألهن الرحمة والعفو عن تقصيره وتأخره عن المسير إليهن لانه مضطر الى الاهتمام بأمر المملكة ومراعاة أهلها وتنظيم أمورها فكان واقفا بين أمرين عظيمين حبه للرعية والمملكة واعتقاده بأن خدمتها فرض لازم عليه وعشقه للبنات السبع وتعلق قلبه بهن لا يتخلى عنهن بل يزيد فى محبتهن يوما فيوما فيلتزم أن يطيعه لان سلطان الهوى لا يغلب وحكمه لا يقهر فهو حاكم القلوب ومستعبدها ونور الخواطر فلا يتسلط على أحد إلا ويذله ولا يصل إلى خاطر الا ويشغله

وبقيت هذه الحالة حالة بهرام وهو غارق ببحور العشق والغرام مشتت الافكار والبال اذا ما انفرد وبعد عن الناس ولكنه لم يدع أحداً يلحظ عليه ولا ترك أمراً من أمور المملكة الا وتناوله بمزيد الاعتناء والرعاية للشعب ومصالحه . وأخيرا خاف من السقوط وضياع نفسه فقال خير لى أن أتخذ لي ما يشغلنى عما أنا فيه فدخل دار الحريم واختار لنفسه جارية رخيمة الصوت

بديعة المحاسن باهرة الجمال اسمها فتنة وكانت بالحقيقة فاتنة فاتخذها لنفسه لكنه كان عندما يسمع رخامة الصوت ورنة العود يتأثر وتتجاذبه موجات الهوى والغرام وكان نظره إلى جمال فتنة يهيج فؤاده ويستحثه على الوصول إلى جمال من أحبها قلبه وهام بها ولذلك فانه كان عندما يجلس معها يصرف الوقت فى البكاء والأنين وهى تحاول أن تؤنسه وتبذل جهدها فى مسرته وانشراح صدره وقد صرفت عنايتها لاستجلاب خاطره

وكانت مع ما هى عليه من الجمال وحسن الصوت عاقلة أديبة حكيمة أدركت بذكائها أنه شغل بحب من لا وصول اليهن وقد أخذتها الغيرة النسائية ولكنها مع ذلك كانت تشفق عليه وتحكي له النوادر المضحكة وتنشده الاشعار الغرامية وتتحبب اليه يوما فيوما فتبعد بأفكاره عما يضمره ويصفو لها الوقت ودام الحال على ذلك حتى تعود عليها وصار يهواها ولم يعد له صبر على فرقتها . ومع أن قلبه كان لا يزال على حاله لكن فتنة فتنته بجمالها وعذوبة ألفاظها وقد زاحمت واجتهدت حتى دست بنفسها فى قلبه واحتلت فيه موضعا رفيعا فتعشقها وأصبحت موضع آماله فكان يخرج إلى دار الاحكام ويهتم بأشغال الدولة وينظر فيها كعادته ثم يعود إلى قصرها ويقيم معها على الحظ والصفاء وإذا خرج إلى برية متنزها أخذها الى جانبه فلا يفارقها أبدا

وفى ذات يوم عزم على الخروج الى الصيد فأمرها أن تذهب معه فأركبها مراكب العظمة والاجلال وسار أمامها موكب عظيم وعندما ساروا فى البرية أمر الفرسان أن تتقدمه وبقى هو وفتنة متأخرين يتمهلان فى السير وكتف الواحد الى كتف الآخر وقد أمرها أن تغنيه كجارى عادتها ففعلت حتى كاد يغيب عن الوجود وهو محدق بها وموجه بكل عقله وقلبه اليها وفيما هما سائران على مثل هذه الحال تاركين عنان الجوادين وإذا باثنين من حمر الوحش قد ذعرا أمامهما إلى مقدار مائة قدم ثم وقفا فتحركت فى بهرام الرغبة إلى مطاردتهما وقد تقدم معنا أنه كان مولعا جداً بصيد هذا الجنس من الحيوان ولذلك قال لفتنة إنى أرغب فى أن أرمى أحد هذين الحيوانين فأجابته افعل لأجل أن أعرف بنفسى شهرتك فى رمى السهام وقد سمعت عنك كثيراً لكن من المعلوم أن حمار الوحش عندما يرى سهم الصيد وقد تجاوزه يرفع احدى قوائمه ويحس بها اذنه ليرى اذا كان السهم لم يثقبها فالصياد الماهر يرمى سهمه ثانيا فيخترق اليد والأذن

معا فهل لك أن تفعل مثل هـذا قال ستر بن بعينك وقد تحركت فيه المروءة من كلامها وتاقت نفسه إلى أن يريها شدة براعته في رمي السهام فتقدم قليلا وأخذ سهما وأوتره في قوسه وأطلقه غير متعمد اصابة الحيوان فمر السهم كالنجم اذا زرق فرفع الحيوان يده ولمس بها أذنه وما لبث أن وصلت الى أذنه حتي كان سهم بهرام قد سمرها بهـا لأنه أخذ بأسرع من البرق سهما آخر وأوتره ورماه بدقة فأصاب المرمي وحينئذ تقدم من فتنة وقال لها أنظرت كيف فعلت فانظرى الحيوان و قد ثقبت أذنه ويده معا . فقالت وقد ضحكت مظهرة عدم الاكتراث والتعجب من سؤاله أتظن انى أعرف هذه الصنعة ومع ذلك أقول لك ان هذا الذى عملته لم يكن شيئا عجيبا لأنك تعلمت رمي السهم وألفته فرميك هذا السهم هو بحكم العادة ولم يكن مما يذكر .

فلما سمع بهرام كلامها تحركت فيه عوامل الغضب لانهـا أهانته وفى الحال ألقاها على ظهر الحصان الى الارض ولم يستطع أن يضبط نفسه ثم فكر فقال ان أبقيت عليها تزيد فى احتقارى واهانتي واذا قتلتها فلا يليق بى لأن من العار العظيم أن يمد مثلى يده على امرأة . فدعا اليه قهرمانه وقال له خذ فتنة واقتلها فى الحال ولا تطلع أحداً علي هذا الأمر وادفنها فى مكان خفى .

فلما سمع القهرمان من سيده هـذا الـكلام علم أنه فى غضب زائد فأطاع فى الحال وأخذ فتنة وسار من أمام سيده وفيما هو ذاهب يفكر كيف يقتـل فتنة وما الذى أوجب غضب الملك عليها حتى استحقت منه هذا الجزاء مع أنها موضع أسراره وآماله فماذا ياترى بدا منها فى حق الملك فلا ريب أنها أهانته لان لاشيء يغيظ الملك مثل الاحتقار به وجعل يتأسف عليها وهو سائر بها مطرق الى الارض فلحظت فتنـة منه ذلك وعلمت أنه يتأسف عليها فى نفسه ويبحث عن السبب فقالت له ، ياأيها القهرمان أنت تعلم أنى من أخص جوارى الملك بهرام ومؤنسته الوحيدة التى لا يصبر على فراقها دقيقة واحدة وأنت تعلم ما بيننا من العشق والمحبة ومع كل ذلك فانه غضب على لسبب وقع منى لم يوافق مزاجه فاعتبره اهانة موجهة منى اليه وربما كان اهانة لـكن من غير قصد فهاج فيه الغضب حتى قام مقام الحب وأعمى بصيرته فأمر بقتلى قبل أن يعى على نفسه فالآن اسمع واصغ لى واني أنصح لك بما فيه خيرك ففـكر وتأمل فيما أقوله لك . فاصبر على قتلى بضعة أيام فقتلى لم يكن أمراً عظيماً فابق علي واذهب الى الملك فمتى سألك عنى

قل له قتلتها وانظر اليه فاذا رأيته سر وفرح فارجع الى واقتلني وإذا رأيته حزن وظهرت على وجهه علائم الكدر فاعلم أنه سينتقم لي منك فانه ولو أنه هو الذى أمر بقتلي فلابد أن يخطر له أنه كان من اللازم أن تبقى على أنت وتنظر فى الأمر مرة ثانية فاذا كان لايزال مصرا أنفذت أمره واذا كان ندم أرجعت له جوهرته التي يأسف عليها وإنى أعرف الملك بهرام أكثر مما أعرف نفسي فهو حليم وليس ظالما وهو عاقل غير جاهل لكنه مملوء بالعنفوان والغطرسة والعظمة وهذا هو الذى هيج فيه غضبه على فلا يمكن أن ينام الليلة إلا آسفا على ماصدر منه فتأمل فى مصلحة نفسك جيدا واعمل ماتراه سببا لخيري وخيرك

ثم أخرجت من عنقها عقدا من الجواهر فيه سبع جوهرات نفيسة واعطته الى القهرمان فلما رأى الجواهر كاد يطير صوابه وعلى الخصوص فانه كان يرى أنها مصيبة في كل ما قالته وقال فى نفسه لابد للملك من أن يندم على قتلها فأنا أبقي على محظيته عندى فاذا سألنى أقول له قتلتها وأرى ماذا يكون منه ولا يصعب قتلها إذا تبين لى أنه لا يزال مسرورا من أمره . وفي الحال أخذ فتنة الى بيته وكان قريبا من تلك الناحية في ضيعة يملكها فوضعها فيها ثم أخذ عليها العهد وجعلها تقسم له أن تبقي مختفية ولا تبوح لأحد بوجودها فأجابته إلى طلبه وأقسمت له أن لاتغادر هذا المكان وتظل مختفية عن الانظار فودعها ورجع الى الملك بهرام . وكان المساء قد أقبل والملك ذهب الى قصره .

وفى اليوم التالى أخذ الملك يفكر فيما مر عليه وقد أدرك أنه أخطأ فى حكمه بقتل فتنة تحت عامل الغضب وندم على ما فعل وأخذ يلوم نفسه ويقول هذه ثمرة العجلة وحزن فى قلبه حزنا عظيما ودعا بالقهرمان فسأله عن فتنة ، فأجاب بناء على أمركم الكريم قتلتها . ولم ينته من هذا الكلام حتي رأى قطرات الدمع تتساقط من عيني الملك وقد ظهرت عليه علائم الحزن والكآبة . فسر القهرمان من ذلك وكاد يطير فرحا وقال حسنا فعلت فهو نادم علي ما صدر منه حزين عليها لأنه يحبها ولا يطيق فراقها ولو كنت قتلتها فعلا لندمت كثيرا لاني أكون قد ضيعت ثمرة الثروة وظلمت الملك ومحظيته ، ففتنة هي صاحبة ذكاء مفرط وفراسة عجيبة

وفى الحال خرج من بين يدى الملك وتركه لا يعى علي نفسه وركب الي بيته ولم يخبر فتنة بما كان وما رأى من الملك بل زاد فى اكرامها واحترامها .

وكان قد ابتني منذ أمد قريب قصرا جميلا فى أطراف الضيعة علي قارعة الطريق فأخذ فتنه اليه وعين الخدم لخدمتها وكان يصعد الى الطابق العلوى من ذلك القصر بسلم عالية فيها ستون درجة

وبعد أن أقامت فتنـة عدة أيام فى ذلك القصر تصرف الوقت لوحدها ليس لها من يسليها خطر لها خاطر وفى الحال دعت أحد الخدم وقالت له أريد منك أن تبحث لى علي عجل صغير ابن يومه أى تكون أمه قد ولدته فى هذا اليـوم وادفع ثمنه مهما طلب فأجاب طلبها وسار إلى الرعيان وأصحاب المواشي يسأل منهم عن بقرة تلد فى ذاك اليوم أو ولدت وبعد البحث وجد المطلوب فأخذ العجل فى الحال ورجع الى مولاته مسرورا ، ولما رأته فتنة فرحت كثيرا وأخذت فى أن تعتنى به وتربيه بذاتها فكانت تنزل اليه فى الصباح فتحمله علي عاتقها وتصعد به السلم أى الستين درجة فتطعمه وتسقيه ثم تحمله كالأول وتنزل به الى الأسفل وتفعل ذلك فى النهار ثلاث مرات ولم تنقطع عن هذه العادة يوما واحد ففى الاول كان العجـل صغيرا حقيقة لـكنه كان يكبر يوما فيوما وكذلك كانت قوة فتنة تزيد يوما فيوما ولم تكن تشعر بالثقل الذى كان يزيد فى العجل من مرة الى مرة بل كانت العادة تضيعه ، وقد دامت علي مثل هذا الشأن مدة ثلاث سنين لم تنقطع مرة واحدة قط عن حمل العجل حتي صار بقرة كبيرة سمينة جدا وهى لا تزال قادرة علي حمله فتصعد به إلى أعلى الدرجات ثم تعيده الى الا سفل فى الصباح والظهر والمساء .

ففي ذات يوم دعت اليها القهرمان وأخرجت له بعض حجارة كريمة كانت لاتزال معها وقالت له خذ هذه فبعها فى السوق ثم ائتني ببعض الخرفان والماعز وعدة أقات من السكر وماء الورد والعسل والشيء الفلانى والشيء الفلانى وجعلت تعدد له أشكالا وألوانا بعضها مأكولات وبعضها مشروبات وبعضها مشمومات حتي تعجب من ذلك القهرمان لـكن لما أعلمته الغاية ذهب فأتاها بكل ما طلبت ولما رجع قالت له الآن جاء وقت العمل ومن الواجب الانتفاع بنتيجة بقائي سواء كان لى أو لك . ومن حيث ان الملك بهرام يخرج كثيرا إلى هذه الاطراف لطلب الصيد فتوسل اليه أن يشرف محلك ويستريح عنـدك ويتناول ما يتيسر من الاطعمة والمرطبات وأنا أعرف أنه لا يرد لك التماسا لانه وديع متواضع القلب يحب رجاله كما يحب نفسه ويرغب فى أن يعرف كل مالم يعرفه ولا يرد

سؤال سائل . فلما سمع القهرمان كلام فتنة دخل فى خاطره من باب الأمل وتيقن النجاح والخير الكثير وأخذ يهيء أسباب الضيافة ويعدد من يوم الى آخر كل مايراه لائقا بالملك وبات يترقب خروجه الى الصيد فى تلك النواحي ليدعوه الى ضيافته وينفذ طلب فتنة .

ففي ذات يوم خرج بهرام شاه الى القنص مع رجال دولته كما سبقت عادته وكان القهرمان فى معيته وبالتصادف وقع طريقه من تلك القرية فجعل ينظر فيها فرأي قصر القهرمان فتأمل فيه وقال عجبا لمن هذا القصر فيظهر أنه متقن البناء وجميل المنظر من الخارج فهل ياترى داخله كخارجه . ولم يتمم كلامه حتى تقدم القهرمان بين يديه وقال له أطال الله عمر سيدى الملك وزاد في فضله ونعمه ان هذه الضيعة التي أحسنت بها على أحقر عبيدكم منذ توليت التخت قد اعتنيت بها وابتنيت فيها عدة بنايات وأقمت في هذا القصر على الطريق مكانا ترتاحون فيه إذا صادف مروركم من هذه الجهات والآن فقد خدمتنى العناية وقربتكم من بيت عبدكم فألتمس أن تشرفوا مسكنى بأقدامكم وتغمروا عبدكم الحقير بقبول ضيافته وان كان ليس من حقي أن أطلب تشريفكم بل يعد ذلك جرأة عظيمة لكني عبد أمين على خدمتكم وأعرف عنايتكم بالضعفا نظيري وأنا أكيد رغبتكم فى جبر خاطر المسكين وبذلك تكون قد شملتنى بعناية أحسبها سعادة عظمى وفضلا عميا لأنني منذ زمان طويل وأنا أترقب مروركم من هذه النواحى لأنال حظ تنازلكم بتشريفى وأنا أصلى الى الله وأدعوه حتى ألهمكم المرور من هنا فأشكره فهو السميع المجيب

فلما سمع بهرام شاه كلام قهرمانه سر منه وتاقت نفسه الى اجابة طلبه وقال له أحسنت ظنك أيها الأمين فاني أعترف بصدق خدمتك وأمانتك وسأجيب طلبك عند عودتى من القنص بحيث أكون محتاجا للراحة فأقيم عندك وآكل ضيافتك مع قوادي فاذهب الى قصرك وانتظر عودتنا .

وفى الحال وقع القهرمان على رجلى بهرام شاه فقبلهما ومن ثم سار الشاه فى طريقه وأسرع القهرمان الى القصر وهو يكاد يطير من الفرح والمسرة وبدقائق قليلة صعد القصر وقال بشراك يافتنة فقد استجاب الله طلبك وأرسل سيدى اليك كما كنت تشتهين وأعاد عليها ماكان من أمر بهرام شاه وكيف وعده أنه بعد ساعات قليلة يكون فى القصر فامتلأ قلبها فرحا وماصدقت أن سمعت هذا الكلام

حتي أسرعت الى تهيئة ما يلزم للضيافة من المآكل والمشارب شيء يليق بالملوك لانها في رأس نساء بهرام شاه وتعرف كل مايليق بشأنه وما تحبه نفسه وسكثت على هذا الحال وهي تعد الدقائق وفي كل برهة تذهب الى شباك القصر وترسل بنظرها الى البر لتتحقق أمانيها وكانت تعد نفسها بأنها ستعاد إلى بهرام فى ذاك اليوم لانها تحبه كثيرا لما تعلم من عظم محبته لها ولانه أوحد رجال عصره حسنا وأدبا وكمالا وهى تطلب من الله نجاح مساعيها وأنها اذا عادت وصادفت نعمة فى عيني الملك لاتعود الى مخالفته لانها كانت تعرف أن المرأة لاتتغلب على الرجل وتستجلب قلبه الا باللطف واللين والتحبب اليه والتزلف عليه والاغضاء عما يقع منه واستحسان كل مايبدو منه مليحا كان أو قبيحا .

ولما كان المساء رجع بهرام من الصيد فعرج الى القصر إيفاء بوعده وطلبا للراحة وحينئذ أعلمت فتنة القهرمان بذلك وأسرت فى اذنه بكلام يلقيه أمام بهرام شاه فأسرع القهرمان الى الخارج ولاقي الملك باحترام وقبل أياديه وسار فى خدمته الى أعلى القصر ومن خلفه الوكلاء والقواد الذين كانوا بمعية الملك فصعدوا السلم ودخلوا ردهة الاستقبال وقد شعر بهرام بتعب من كثرة درجات السلم وما صدق أن جلس يستريح ويأخذ النفس وكذلك جميع رجال المعية فقد تعبوا وقالوا لماذا كل هذا الارتفاع وهذه السلم الطويلة وبعد أن جلس الملك جاءه القهرمان بالشراب فشربه وقد انشرح له صدره وسر منه كثيرا لانه كان يشرب مثله من يد فتنة . ثم أمر بهرام شاه القهرمان أن يضع مائدة الطعام ففعل وجلسوا جميعا وكان الملك يأكل مسرورا ويقول لا ريب أن الذى طبخ هذا الطعام تربى فى قصور الملوك فهو طعام لذيذ . وبعد أن فرغوا من تناول الطعام جلسوا للراحة وأخذ كل واحد مقامه الا القهرمان فبقي واقفا فى المجلس ينتظر أوامر الملك ويقوم بخدمته وخدمة أرباب مجلسه . وحينئذ قال بهرام شاه للقهرمان أريد أسألك عن شيء فأجبني عليه قال إني تحت أمر سيدى فها أنا مستعد للجواب. قال انى لا أزال فى شرخ الشباب وقد تعبت أثناء صعودى السلم فانها تتجاوز الستين درجة فكيف تعمل أنت وقد تجاوزت الستين سنة وصرت تحسب شيخا . فأجاب القهرمان أطال الله عمر سيدى الملك وحفظه للرعية والشعب وجعل كل أيامه أيام سؤدد وصفاء وأبعد عنه كل تعب وعناء إن ما تتعجب منه ليس بعجيب فان لدى فتاة صبية حسناء يكاد لا يوجد مثلها فى زمانها من بهاء طلعتها

ونور جبينها ونعومة أطرافها ولدونة بدنها ومع ذلك فهى في الصباح والظهر والمساء تنزل الي أسفل القصر فتحمل على عاتقها بقرة تربيها فتصعد بها السلم بطوله وبعد أن تطعم البقرة وتسوسها تعود أيضا فتحملها على عاتقها وتنزل بها الي مكانها

ولما سمع بهرام شاه هذا الكلام زاد تعجبه وعظم هذا الامر فى عينه وكاد لا يصدقه وكذلك الحاضرون فما منهم إلا من أظهر تعجبه وقالوا انه يستحيل مثل هذا الامر من فتاة وقد يصعب على أقوى الرجال أن يصعد مثل هذه السلالم وهو يحمل جديا فكم بالحري بقرة فاننا لانصدقه . فقال القهرمان : ان ماأقوله الصحيح لا أزيد حرفا واحدا فاذا أمر سيدى الملك أحضرت الجارية وفعلت أمام أعينكم كل ماعرضته بين أيديكم فقال بهرام شاه انى أرغب رؤية ذلك ولو كنت أعرف أن ماتقوله صحيح ينتج عن حكم العادة لكن مثل هذا أمر تتوق نفسى إلى التفرج عليه لانه من خوارق الاعمال التى اذا حكاها الانسان لا يصدق قطعيا وأصحاب العقول الضعيفة ينسبون ذلك إلى السحر والطلاسم

فما صدق أن سمع القهرمان أمر الملك حتى أسرع الى فتنة وأخبرها بذلك ففرحت وكانت قد لبست أفخر ملابسها وتزينت زينة بديعة وضربت لثاما على وجهها وجاءت الى الحيوان وكان يعرف عادتها في الحال جمع قوائمه الاربع الي بعضها فرفعته بين يديها ووضعته على عاتقها وتدرجت فيه تلك الدرجات الكثيرة وكان الملك وجماعته قد وقفوا في رأس السلم ينظرون وهى تقرب منهم شيئا فشيئا حتى وصلت من الملك والجاموس على عاتقها فأوقفته الي جانب ودنت من الملك فقبلت الارض بين يديه وقالت له هو ذا جاريتكم حسب أمركم قد أتيت بهذا الحيوان الثقيل محمولا على عاتقى من الاسفل الى الاعلى دون أن أشعر بتعب لامن حمله ولا من السلم فتعجب الملك من كلامها ولكن لم يرد أن يعطيها حق الفخر فقال لها إن هذا لم يكن عظيما لانك بدون شك قد تعودت عليه فكنت تحملين هذا الحيوان عندما كان عجلا صغيراً وداومت هذا العمل يوميا فلم يعد يصعب عليك حمله ولذلك لم يكن شيئا موجبا للتعجب

وحينئذ ركعت فتنة أمام الملك وقالت له العفو ياسيدى فأنت أكرم من عفا وليزدك الله عمراً وحلما اذا كنت أنا قد ربيت هذا الحيوان الصغير حينما كان يسهل على حمله وصرت أفعل كما أشرت أنزله وآتى به فى اليوم ثلاث مرات وبحكم العادة صرت أحمله وهو فى هذا الجسم العظيم والثقل الاعظم حتى لو لم تر

ذلك بعينك لما صدقته من أحد ولما رأيته من أنه عجبا حكمت بأن العادة جعلتني ذات مقدرة على مالا يمكن أن يعمله غيري بدون العـادة ولو كان أشد رجال العالم قوة فكيف تتكدر عظمتكم إذا قيل لك وأنت ترمي الحيوانات بسهامك العجيبه هذا ليس شيئا فانك تعودت عليه

فلما قالت ذلك تحركت كل جوارح بهرام شاه وترقرقت الدموع من عينيه لانه بأسرع من البرق وقع فى خاطره أمر فتنة وما كان منه فى حقها وتبين لديه أنها هي التي بين يديه ولم يعد يتمالك نفسه فنهض اليها وأزاح اللثام عن وجهها بقلب خافق وأياد مرتجفة ولما رآها صاح من الفرح يالله . أأنت فى قيد الحياة وفى الحال رمت بنفسها على رجليـه تقبلهما وتغسلهما بالدموع وتسأله العفو والمعذرة وأنهضها فى الحال وقبلها فى جبينها من دون حياء ولا خجل لانه أضاع عقله فى تلك البرهة ولم يعد يرى إلا بهاء وجهها ونور جمالها ولم يقدر أن يقاوم نفوذ أمياله . ولما رأت منه ذلك أعادت اللثام وقالت مر ياسيدي بالذهاب الى المدينة فلم يبق من وجودنا فى هذا المـكان فائدة ولا سيما أن رجالك يطلبون ذلك . وحينئذ انتبه بهرام شاه الى نفسـه ورأى العودة الى قصره بسرعة عين الصواب حيث يقدر أن يجتمع بمن أحبها قلبه وقد عادت اليه من عالم الاموات على انفراد فما من رقيب هناك .

وفى الحال التفت إلى الوزراء والقواد وقال لهم هلموا بنا فقد مضي الوقت وكذلك التفت الي القهرمان وقال له حسنا فعلت لانك أبقيت فتنـة ولم تقتلها وأعدتها الى حية ولو قتلتها لـكنت أبقى متحرقا عليها طول حياتي لانى أعرف من نفسي انى ظلمتها وأطعت غضبي فأكافيك على ذلك بأن اجعلك قائداً لجيش من جيوش فارس وأزيدك ضيعتين من ضياعي فأهبك اياهما منـذ الآن وإنى أعرف انى لو وهبتك مملـكتي لـكان قليلا فى جنب ماوهبتنيه أنت فقد أعدت لي الحياة وراحة الضمير فأنا لاأنسى جميلك .

وفى الحال ركب بهرام شاه وأركب فتنة الى جانبه وركب رجاله وسار فى أولهم وهو يكاد لايصدق بوجود فتنة الي جانبه ويتمنى ان لو كانت له أجنحة يطير بها الى خلوته لينفرد بها . ولم يكن الا ساعات قليلة حتي دخلوا المدينة وتفرق كل من الحاشية الى حاله ودخل الملك قصره واجتمع بفتنة اجتماع الاحباب بعد طول الغياب وتحبب منها أكثر من الاول ليكافئها على مافرط منه فى حقها وهي

كذلك كانت تتزلف له وتتقرب اليه وتطنب فيه وتظهر له من الحب والغرام مالا يطاق وتشكو له مالاقت من بعده كل هذه المدة الطويلة ولذلك حصر كل قلبه فيها ووجه اليها عنايته وفكره . وكان في بداية الامر لا يخرج إلى الديوان إلا نادراً وأخيرا انقطع عن الديوان بالكلية وصار يصرف وقته على الحظ والسرور وشرب الخمور ومعاشرة فتنة ومغازلتها وترك أمر عباد الله ولم ينظر في مصالحهم كما كان قبلا وتخلى عن الاهتمام بأمر الملك وتدبير المملكة ولم يعد يهمه أمر من الامور سوى العكوف على ملذاته وقضاء شهواته وصرف الوقت على حسب أهوائه . ومن جراء ذلك أخذ نظام الملك ينحل وأحوال الرعية تختل وخلا الجو للحكام فتوغلوا في العتو والقسوة والظلم ونهب أموال الناس وراج سوق الفساد في الاحكام ولم يكن ذلك أمراً ممنوعا بل كان الرؤساء والوزراء والنواب يسلبون أموال الناس عيانا ويقاولون أصحاب الدعاوي نهارا جهارا مقاولة البائع المشترى فمن زاد كان السائد وبذلك كثر القتل والتعدى وعدم الامن وفقدت الراحة وأصبح الرجل لا يخرج من بيته إلا عند الاضطرار دفاعا عن نفسه أو ماله وفي الليل يمتنع الناس عن الخروج من بيوتهم خيفة من الاشقياء الذين كانوا يتجولون في المدينة في أمان واطمئنان غير خائفين سطوة لانهم كانوا يشاركون الشرط ومن لم يكن شريكا لرجال الشرط فيكون محميا من قاضي المدينة الذى كان ميالا للأشقياء محبا للشر كارها الخير مفسدا بين عبيد الله ومن لم يكن تحت حماية هذا فيكون لائذا برئيس أو وكيل أو صاحب نهى وأمر فيدفع عنه اللوم والقصاص وقد وصلت حالة إيران إلى هذا الحال في زمن انشغال بهرام شاه بمحبوبته وحصر أمياله بها غير عالم بما هو خارج القصر .

وكان البعض من الوزراء والوكلاء والشيوخ أصحاب العقل والحكمة يأتون اليه وينصحونه ويخبرونه بما هو واقع في معاملات المملكة ويطلبون اليه أن يخرج من قصره ويرجع الى ما كان عليه أولا وإلا خسر ملكه وأضاعه لأن الملك لا يتقوى أساسه الا بالعدل والتقوى وأن الحكام لا يصلحون نفوسهم إلا اذا تهددهم رئيسهم وسيدهم فلا يخاف بعضهم بعضا لكنهم إنما يخافون الملك ويرهبونه وهم أيضا لا يقدمون على عزل بعضهم بعضا لانهم يتسترون على بعضهم ويخشون الملك لئلا يقاصهم وينتقم للمظلوم من الظالم فكان الملك بهرام يعدهم من وقت إلى آخر ، وكثيرا ما كان يغلق أبوابه في وجوههم فلا يخرج إلى مقابلتهم بل

يقال لهم إن الملك (فى الحريم) فيرجعون آسفين على خيبة سعيهم وضياع اجتهادهم وأخيرا تخلوا هم أيضا عن وظائفهم ولازم كل واحد مسكنه فصاروا لا يخرجون الى الديوان إلا مرة فى كل شهر أو شهرين وفى أثناء وجودهم فى الديوان يسمعون قصصا وحكايات تتفطر لها القلوب السليمة فيرجعون فى الحال

ودام الأمر على مثل ذلك حتي انتشرت أخبار أحوال المملكة وسوء إدارتها وإختلال نظامها وفساد أحوالها إلى الممالك الخارجية وبلغت إلى مسامع الملوك والسلاطين فحركتهم المطامع الي اغتصاب المملكة وكان أول من فكر فى الاستيلاء عليها ملك الصين فقال لعظماء دولته وكبار رجاله ينبغي أن لا تضيع هذا الفرصة وأمامنا الآن غنيمة باردة فاذا تهاوننا أو تقاعدنا كانت من نصيب غيرنا وخابت آمالنا على أن حالة البلاد الايرانية وضعف وانحطاط فأصغر ملوك العالم يقدر أن يستولي عليها وينزع الملك منها فانهضوا الآن واجمعوا الجيوش على وجه السرعة وسيروا على عجل للاستيلاء عليها فليس أمامكم إلا مسافة الطريق فرأى الجميع مارآه الملك عين الصواب وأخذوا في جمع الجيوش وتهيئة ما يلزمهم فى الحمل على إيران ولم يكن الا أيام قليلة حتي تم كل شيء وأخبر الملك بذلك فركب وركب من ورائه قواده وجيوشه وعددهم ثلاثمائة ألف مقاتل ونشرت فوق رأسه الرايات والأعلام وما زال سائرا حتى قرب من حدود بلاد الفرس فبلغت الأخبار الوزراء والوكلاء فاجتمعوا مع بعضهم وقالوا لاريب أن بلادنا أصبحت فى خطر مبين فملك الصين يقصدنا وقد طمع فى بلادنا لضعفنا وملكنا مشغول بجاريته لا يفكر فيها وقد أهمل أمر الملك وجعله وراءه فأذا قاومنا جيوش الصين ننهزم أمامهم وتهرق دماؤنا وتقتل رجالنا وتنهب أموالنا فالأوفق أن نسلم إليه بغير حرب ولا قتال . وقد اعتمدوا على التسليم وأرسلوا يخبرون الملك بهرامشاه بذلك فلم يعبأ بهم ولم يفكر فى هذا الشأن بل بقي مقيما في حظه وأنسه متوهما أن أحد فى الدنيا يقدر أن يقرب من بلاده أو يطمع فيها وقد خافت الأنس والجن بأسه ولا زال على ماهو عليه حتي وصل الصينيون المدينة وحاصروها وطلبوا إلى أهلها التسليم فتأكد له ذلك وثبت لديه ما كان قد سمعه عن ملك الصين فأرسل فى الحال وطلب اليه الوزراء والقواد فلم يحضر أحد منهم ولا أصغوا الى كلامه بل قالوا لرسوله اننا لانقدر الآن على اجابة طلبه وقد احتاطت جيوش الاعداء بالمدينة وهم كالجراد المنتشر ولاطاقة لنا على الدفاع ولذلك اعتمدنا فى الصباح

على أن تخرج الى ملك الصين وتسلم اليه المدينة والاهل كمناعن آخرنا وسبيت النساء ونهبت الاموال وأهرقت الارواح وخربت بلاد ايران عن بكرة أبيها

ولما بلغ الخبر الملك بهرام شاه طار صوابه وقد شعر بخطئه وقال نعم اني انشغلت عن الحقيقة بالملاهي الباطلة وتخليت عن الرعية تخلى الاب الجاهل عن صغاره حتي ظنوا العجز الا آن ولم يعودوا يركنوا الي ومن الصواب أن أنسحب عن المدينة في هذه الليلة وأخرج الى الخلاء والا أخذت بكثرة الاعداء لأني وحيد منفرد وليس لدى من الجيوش ما استطيع به مقاومة العدو .

ثم دعا من حوله من الاجناد فلم يجد الا ثلاثمائة فارس من فرسان العربان وقد كان الملك المنذر بن النعمان تركهم في خدمته لما قدم معه لحرب خسروا الذي اغتصب الملك بعد موت أبيه فلما وقفوا بين يديه قال لهم انى أعلم أنكم فرسان اقيال لا تخافون الموت ولا تهابون الجيوش كثرت أو قلت ولذلك لم يبق اعتمادى الا عليكم فقالوا حبا وكرامة فها نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك فاذا شئت أن تهجم بنا علي الثلاثمائة الف صيني الذين حول المدينة فلا نتأخر ولا نفقد عزمتنا بل نعدك بالنصر والنجاح اذا كنت قائدنا وفارسنا وحامينا . فأمرنا بما تريد تجدنا أطوع لك من العبيد قال لا أوافق على أن تقاتل الاعداء في ضواحى المدينة لانهم كثيرون والمجال متسع عليهم فيقتلونكم عن آخركم وربما قبض على لان الكثرة تغلب الشجاعة فالاوفق أن أخرج بنفسي هذه الليلة مستخفيا في الظلام فاجتاز الاعداء وانتظرهم الى أن يدخلوا المدينة ويتفرقوا فيها ولا ريب أن ملكهم يطلبنى فلا يرانى فيعلم أنى قد هربت فى الليل فيبيت من قبلى فى أمان ولا سيما اذا حكي له الوزراء الخائنون عن حالتي وما أنا عليه فلا يرهب سطوتى وفى الليلة الآتية أهجم على المدينة من الباب الشرقى فالتقوا بى هناك وحينئذ أسير فوراً الي ملك الصين فأقبض عليه وأذله وأذبح جنوده ذبح الغنم .

فلما سمع فرسان العرب كلام الملك بهرام شاه تعجبوا من حسن تدبيره وشجاعته وعلموا أنه يقدر على أكثر مما يقول وقد شاهدوا شجاعته تكرارا ورأوا بعيونهم أن الأسد لا تثبت أمامه فأجابوه الى طلبه ووعدوه بالانتظار فى الليلة الآتية حسب أمره . ثم تقلد الملك بهرام شاه سلاحه الكامل وركب جواده وخرج من المدينة تحت الظلام وقد ستره الله عن أعين الاعداء ولم يتجه اليه نظر أحد لانه وحيد وهو الآخر لم يتحرش بأحد بل كان يسير منفردا وعلى

الخصوص ان ملك الصين كان أوصي الجند ان لا يضروا أحدا من أهل المدينة لأنه عرف أن أعيان ايران وأمراءها ووزراءها سيأتون اليه فى الصباح ويدخلون فى طاعته ويفتحون له أبواب المدينة .

ولم يزل بهرام شاه علي مسيره وأمامه الجيوش الصينية وهو يتحرق على الايقاع بهم وكثيرا ماحدثته نفسه أن يشهر حسامه ويبطش بهم ويلقى بنفسه بين تلك الجماهير لولا أنه كان يعد نفسه بعمل أعظم يضمن به نجاحه . ولم تبزغ أنوار الصباح حتي اجتاز معسكر الاعداء ووصل الى خلفهم وحينئذ تحول عن جواده وتركه يرعى فى ذلك البر ووقف ينتظر مايكون من أمر الصينيين وبقى مقدار ساعتين وهو واقف فى مكانه علي ذلك الحال واخيرا راى جيوش الصين اخذت تتقدم نحو ابواب المدينة وبدأت بالدخول فيها فقال انالله وانااليه راجعون وقد امتلك الاعداء تختي وملكهم اياه الوزراء والاعيان ولكنه من الصعب جدا على ملك الصين ان يستقر على التخت فسيبيت هذه الليلة انشاءالله أسيرا أو قتيلا وصبر ينتظر الليل بفروغ صبر .

فهذا ما كان منه وأما ما كان من أمر الوزراء والامراء فانهم عند الصباح خرجوا إلى ملك الصين وقبلوا الارض بين يديه وسلموه مفاتيح الابواب وقالوا له يامالك الزمان لايخفاك أن ملكنا ولد جاهل لايهمه من الدنيا الا معشوقته والاستمتاع بها والاقبال على اللهو والحظ ولذلك نتمنى الدخول فى طاعتك فتكون البلاد فى حوزتك ويكون أهلها على الدوام من رعاياك وعبيدك ونحن كذلك بين يديك نعترف بانقيادنا اليك ودخولنا فى جملة رجالك فرحب بهم وقال سترون منى حاكما عادلا متيقظا :

ثم أخذ منهم المفاتيح على الفور وأمر جيوشه أن تزحف على المدينة وتدخل من أبوابها فى الحال وتتفرق فى كل جهاتها وتقبض على قلاعها وحصونها وركب هو فى الاول وتقدم محفوفا بالفرسان والابطال ودخل من باب المدينة ثم تدفقت من ورائه الرجال والفرسان وسار فى الحال قاصدا نحو قصر الملك بهرام شاه وهو متيقن أنه لا يزال فيه مشغولا بلهوه غارقا فى حظه ولما دخل القصر ولم يجد أحدا سأل عنه فقيل له انه خرج منذ أيام منخفيا ولا يعرف أحد الى أى جهة قصد فقال انه لما علم بقدومى لحربه علم انى لا بد من أن أرسل فى طلبه الفرسان والابطال ففر ثم قصد فى الحال الى قصر الاحكام ودخل الديوان وجلس

على تخت ايران واعتني بنفسه وفرح بجلوسه على عرش الفرس بلا تعب ولا عناء ثم جمع الوزراء والاعيان ومدحهم على خدمتهم له وما بذلوه نحوه وحمدهم بكل جميل وقد سألهم أن يأتوه بالخزائن والاموال ويخرجوا له الدفائن وما عند بهرام من الجواهر والذهب وبقي على مثل ذلك حتى دخل الليل وهو مغتر بما حصل عليه مستبشر بعزه ونصره وكان الوزراء قد جاءوا اليه بالخزائن محمولة على ظهور العبيد ووضعوها بين يديه ودفعوا اليه مفاتيحها فتناولها وأراد ان يفتحها ويشاهد ما فيها واذا به يسمع الصياح والنواح قد علا من كل الجهات والناس يتراكضون في الاسواق من جهة الى أخري فارتاع ووقف ينظر ما الخبر واذا بأحد قواده قد دخل عليه وقال له خذ لنفسك الحذر ياسيدي فان بهرام دخل المدينة بجيش قليل لكنه كالقضاء المنزل والبلاء المرسل فهو كالغول الاكول يقتحم المخاطر ويدوس بحوافر جواده أقحاف الرجال ويفرق الألوف ويخترق الصفوف ولا يقدر أحد أن يثبت بين يديه وفي برهة وجيزة قرب من هذا القصر وكنت انا في جملة من قام لقتاله لكن من أين للقش اليابس أن يقاوم النار ذات اللهب المتوهج والشرر المتاجج .

(قال الراوى) ياسادة هذا وقد تقدم لنا أن بهرام شاه وقف ينتظر دخول الأعداء المدينة وصار كلما تقدموا يتقدم من خلفهم وهم يتقاطرون إلى الابواب ويتفرقون في جهاتها حتى أمسي المساء ولم يبق منهم الا العدد القليل عند ذلك تيقن أن الملك يكون في ذلك الاوان جالسا في الديوان على تخت مملكة ايران وهاجت به بلابله واشتعلت بقلبه النيران وغضب غضبا شديدا وصبر إلى أن دخل آخر رجل من الصينيين الابواب وحينئذ دخل هو ونظر يمينا وشمالا فرأى الاعداء يقتربون نحو القلاع والحصون ورأي أحد فرسان العرب واقفا عند الابواب فسأله عن رفاقه فقال انهم قريبون من هذه الناحية فأمره بسرعة إحضارهم ولم تكن الا دقائق معدودة حتى صاح بصوت ارتجت له أركان مدينة ايران ورجفت منه قلوب الاهالي والسكان وحمل على جيوش الاعداء بقلب لا يهاب الموت ولا يخاف كثرة الجيوش وقال ويلكم يارجال الصين ويا أخس الكلاب أظننتم ان الملك بهرام يتخلى عن عرشه ويترك ملكه وتخته لغيره وهو فارس الارض بالطول والعرض فها هو قد جاءكم ليقصر آجالكم ويزهق أرواحكم ويستخرجها من أجسامكم فاثبتوا لتروا الموت الاحمر والهول الاكبر من كف هذا الليث الغضنفر والبطل الضرغام

وجعل يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال فيصيب مقاتل الرجال وينثر رؤسهم بالسيف البتار ويمدد أجسامهم على الارض بعضها فوق البعض هذا وقد انتشر الخبر في كل ناحية وخرج الناس من البيوت يسألون عن جلية الخبر ولما عرفوا دخول بهرام شاه المدينة وهجومه على الاعداء وتشتيت جماعاتهم وقتل فرسانهم ورجالهم وإعدامهم الحياة بعد أن كانوا فى راحة تامة تأكد لهم أنه سيعيد ملكه مرة ثانية بسيفه ، وعند ذلك تحركت فى نفوس أهل إيران الحمية ودبت فيهم الاريحية فحملوا السلاح ونادوا بعضهم على بعض وتقدموا بين يدى ملكهم الهمام بهرام شاه وقالوا له يامولانا وسيدنا نحن وأرواحنا فداك ولا شمتت بك أعداك وأخذوا يضربون رقاب الاعداء ويرمونهم بنيران حرابهم وكان بهرام كالاسد الضرغام مداوما على الفتك والقتل وكلما ازدحمت عليه الرجال فرقها بالصارم والسنان وحمل عليهم حملة الليث الغضبان ومن حوله فرسان العرب كأنهم النار ذات اللهب والاحمرار وقد قويت ظهورهم واشتدت عزائمهم لما رأوا فعل بهرام الذى تعجز عن وصفه الاقلام ولم يكن إلا القليل حتي وصل أبواب قصره فاعترضه الحجاب القائمون عليه وكانوا من الصينيين فأنزل عليهم صواعق غضبه وأبلاهم بضرب الحسام وعجل لهم الحمام ففر الجبان ومنى بالخذلان ورضى لنفسه بالذلة والهوان وخطفت روح من عرض نفسه للقتال في حومة الميدان فتفرق شمل الحجاب بأسرع من لمح البصر ، وقد اتصل الخبر بملك الصين فحار وأدركه الانبهار وعمي في رابعة النهار ولم ير بدا من الفرار فأسرع الى باب آخر وخرج منه بسرعة قبل أن يدركه بهرام ويسقيه كأس الحمام ويريه الموت الزؤام وركب أسرع جواد صادفه وانسحب يعدو الى خارج المدينة وأسلم لجواده العنان وقد تبعه كثير من رجاله الذين سلموا من سيف بهرام وما أشرقت شمس الصباح وفى المدينة رجل واحد من الصينيين ولما وجد ملك الصين نفسه بعيداً عن المدينة عند الصباح ولم يجد أحداً من الايرانيين فى أثره وقف يأخذ لنفسه الراحة وكان رجال الصين الذين هربوا من المدينة يصلون اليه شراذم بين عشرة وعشرين وفى ساعات قليلة اجتمع حوله بضعة آلاف فارس ولما انقطع الوارد علم أن الباقين قد هلكوا وحينئذ قال لمن حوله هلموا بنا نرجع الى الصين فلم يبق من أمل فى فتح ايران لأن بهرام بطل الابطال وقد دبر تدبيراً حسناً حتى ظفر بنا سريعاً وقتل أكثر رجالنا وأهاج علينا جيوشه واسترد منا المدينة

في ساعة واحدة من الزمان ومن تلك الساعة ساروا على طريق الصين يندبون رفاقهم ويأسفون على ما أصابهم وشخص بهرام يلوح أمامهم وصوب تهديده ووعيده يرن في آذانهم .

فهذا ما كان من ملك الصين وجنوده وأما ما كان من بهرام فانه بعد أن فرغ من الايقاع بأعدائه ودخول قصره جعل يتفقد عدوه فلم يره فعرف أنه هرب ونجا بنفسه فقال حسنا فعل .

ثم جلس على العرش وشكر الله جل جلاله الذى أعاد اليه عرشه ثانيا وثبت عنده أن ذلك نعمة من الله سبحانه وتعالى لينتبه إلى نفسه ويعرف أن الله أقامه حاكما في الرعية يدبر أمورها وينظر في قضاياها بنفسه لا ليتخلى عنها ويتركها فى أيدي حكام لا ضمير لهم ولا دين ، ومن ثم قبض على الوزراء وأعيان المملكة الذين خانوا بلادهم وسلموا مملكة إيران إلى العدو فشنق بعضهم فى الاسواق ونفي بعضهم إلى بلاد بعيدة وألقى بعضهم فى الحبوس جزاء فعلهم الشنيع لأنهم كانوا قادرين على أن يقفلوا أبواب المدينة فى وجه الاعداء إلى أن يخرج اليهم فضلا عن أنه كان متكدرا من جهتهم منذ خيانتهم فى المرة الأولى وقد عفا عنهم لانهم كانوا سلموا تاج أبيه وجده الى خسرو المغتصب ومن بعد أن فرغ منهم توجه بأنظاره الى الحكام وولاة الامور فعزل وحبس وأقصى كثيرين منهم وكل ذلك كان بمزيد الاحكام ومراعاة القوانين والاحكام وحكم القضاة العادلين الأعلام فانه كان لا يظلم أحدا ولا ينتقم من أحد الا بعد أن يقيم عليه البينة ويشهد الشهود بخيانته وسيرته المعوجة وسريرته السيئة وعندما تثبت جريمته يوقع عليه العقاب ولم تمض أشهر قلائل حتى رجعت الأحوال الى مجراها الاول وعاد الامن الى نصابه وزادت الراحة والطمأنينة وعم الهدوء وبلغ الاهلين الدرجة القصوى من الرفاهية وباتوا يشكرون العناية الالهية التي ردت الملك عن غيه وأعادت اليه صوابه حتى انتقم لهم من الظالمين ، وتناقل الناس هذه الاخبار فى أنحاء العالم وعرف ملوك الارض أجمعون أن الملك بهرام شاه بثلثمائة فارس من العربان بدد ثلثمائة ألف من جيوش الصين وأرغم ملكهم على الفرار والهرب تحت استار الظلام خوفا من شرب كأس الحمام فرهبه الملوك وخافوا بأسه وشدة سطوته وتحدثوا بشجاعته وأحبوه لذلك وزالت مطامع الملوك الذين كانوا يطمعون فى الاستيلاء على بلاده وعرفوا انه وان كان مشغولا بصفوه وأنسه فشجاعته

النادرة المثال تحمي البلاد وتصونها وترد عنها هجات المغيرين ونزوات الطامعين وغارات المغيرين .

وبعد أن هدأ بال بهرام شاه واستقر أمره واطمأن على صلاح حال رعيته كتب إلى ملك الصين يقول له : « أما بعد فانى أشكر الله سبحانه وتعالى على عدله ورحمته وأعلمك أيها الملك العظيم أنى لا أنسى تعديك على بلادى وطمعك فى تختى واغتنامك الفرصة لتملك بلادى واستعباد رعيتي ولكن الله الذي أعطانى من الشجاعة والبسالة مالم يعطه لغيري من أهل الارض فى طولها والعرض نصرنى عليك فبعد أن هربت منك لا خوفا لكن لانظر حالة وزرائى الخونة الذين طرحوا ببلادهم إلى الذل وسلموا عرشى لعدوى ، ولما تبين لي كل شيء فاجأتكم بثلثمائة فارس من العربان الشجعان أصحاب المروءة الباهرة والنخوة والشجاعة النادرة والقوة العجيبة التى خصهم الله بها وفى ليلة واحدة طردتك عن ملكي ولم أدعك تتمتع سوادها به بل بددت جيوشك وأجريت دماء فرسانك وشجعانك وخاصتك كالانهر فى الاسواق ، وأرغمتك على الفرار كما يفر الجبان والآن وقد راق لى الزمان وصفت الحال وتهيأت لى أسباب توسيع رقعة بلادى لن أطيق الصبر على ما ألحقته بى من الاهانة قد فكرت فى الزحف على مملكة الصين فأهدمها من أساسها وأخليها من ناسها وأجازيك على فعالك وأريك شر عملك لكن نظرت فى لامر وتدبرت السر والجهر ، فرأيت الصلح أوفق والمسالمة أرفق ، ولكن لا يمكنني الصلح قبل الترضية منك والتعويض على ما لحقنى من الاهانة والتشنيع ، فحال وصول كتابي هذا اليك ارسل لى ابنتك لقمان ذات العصمة والعفاف لاتخذها زوجة لى ويتصل نسبي بنسبك وارسل معها أيضا خراج سبع سنين وذلك فى مقابل ما تلف وخرب من بلادى بسببك وهذا نهاية ما عندى فاما أن تستمع لنصيحتي وتجيب طلبي وتفضل الصلح على الخصام وإما أن أزحف بجيوش إيران على الصين وأنتقم لنفسى بيدى من العدوان والسلام » .

وبعد أن فرغ من الكتاب أرسله مع قائد من قواده وأمره أن يسير ببعض الفرسان والقواد إلى ملك الصين ويأتى منه بالجواب وإذا سلمه بنته يأتى بها معززة مكرمة فقبل القائد الأرض بين يديه ولما خرج من عنده اختار بعضا من القواد والفرسان وسار يقطع الفيافى والوديان قاصداً بلاد الصين .

وبعد أن سار الرسول بأيام دخل على الملك بهرام شاه بعض الوزراء الجدد الذين عينهم الملك بنفسه وقال له اعلم ياسيدى أنك حتى الآن لا تزال بغير زواج وأن الزواج لا غنى عنه وخاصة لمن كان مثلك ملكا على البلاد فهو له راحة ولذة وهو سبب للنسل ودوام البقاء وإنى أعرف بنتا كاملة فى الحسن وفائقة فى الجمال والقد والاعتدال لا نظير لها بين بنات ملوك هذا الزمان وهى بنت أحد أكاسرة إيران من عائلة كيكاوس وهي ذات حسب عال فيمكنك أن تتزوجها فى الحال لكونها تحت يدك وفى قبضة يمينك . فلما سمع بهرام هذا الكلام طار صوابه وقال فى نفسه إنها واحدة من البنات السبعة اللاتى شغلن فكرى وسلبن قلبي وفى الحال أرسل على وجه الاستعجال بعث يخطبها وتمم مراسيم الخطبة وأقيمت الزينات بنواحى المملكة واحتفل الناس بزواج الملك بهرام وأقاموا أسبوعا كاملا فى عيد الزواج ولما تمم عقده عليها بحضور الكبراء والعظماء والوزراء والكتاب والعلماء ورجال الدين أمر أن يبنى لها قصرا يفوق قصر الخورنق سبعة أضعاف ثم دخل بها فوجدها أجمل مما نظر لانها كانت كالبدر بهاء والشمس سناء والغصن قدا والورد خدا والشهد طعما والحرير ملمسا والغزال لفتة والظبي جيدا ، والمها عيونا ، والنجم جبينا وضاء والضياء لمعانا والبرق سناء ، والليل شعرا فعشقها من ساعته ولم يعد يسأل عن معشوقته فتنة ولم تعد تخطر له على بال لانها كانت لا تصلح جارية لها وبعد أن أتم بناء القصر العجيب نقلها إلى القصر الذى خصه بها وصار يأتيها فى كل ليلة ويصرف وقته عندها وفى الصباح يخرج إلى الديوان ويقضى بين الرعايا وينظر فى أمور البلاد ومصالح العباد .

وأما القائد الذى أرسله إلى ملك الصين فانه بقي فى مسيره الايام والليالي يجد السير ويوصل النهار بالليل فلما وصل أرض الصين دخل على ملكها وقبل الارض بين يديه ودعا له بطول العمر والبقاء ثم سلمه رسالة سيده ففتحها الملك وسلمها إلى أحد وزرائه ليقرأها له فقرأها وبعد ذلك أمر أن يؤخذ القائد إلى دار الضيافة مع رفاقه إلى أن يرى الرأى فى جوابه . وكان ملك الصين قد أحب بهرام حبا عظيما لما شاهده من شجاعته فلما سمع أنه يرغب فى الاقتران بابنته انسر قلبه بذلك وقال فى نفسه لا يليق ببنتى شمس المحاسن إلا بهرام الليث الاروع فهو الوحيد الذى يستحقها وسأرسلها له وأفضل السلم على الحرب لكنه لم يبت فى ذاك اليوم أمرا بل جمع في اليوم التالي الوزراء ورجال الدولة واستشارهم فى الامر

الذي جاء في الرسالة وقال لهم إننا حقا تعدينا على الملك بهرام وطمعنا في بلاده ظنا منا بأنه كغيره من الناس لكنه أسد كاسر وليث قاهر لا يصطلى له بنار وبطل نادر وفارس مغوار والآن هو يريد منا أحد أمرين وهما اما الصلح واما الخصام ويطلب الصلح على بنتي وخراج سبع سنين كغرامة حرب أو أنه يزحف علي بلادنا ويخرب أوطاننا وقد رأيت من مصلحتي أن أزوجه بنتي لقمان فهو أليق بها من غيره وأما المال فأمره مفوض إليكم .

وبعد أن أطرقوا برءوسهم في الارض يفكرون فيما صاروا اليه وقد صعب عليهم هذا الأمر الذي دعاهم اليه الملك بهرام وكيف يذلون لدولة الفرس ويرسلون لها الخراج عن سبع سنين ويرسل الملك ابنته الى عدوه وفي ذلك اهانة كبري في عرف الصينيين لكنهم لم ينطقوا ببنت شفة بل لبثوا في حيرة وارتباك إلى أن نهض من بينهم وزير مسن قد عرك الزمان ورآه ذا ألوان واختبر الايام وحنكته التجارب وعرف بالرأى الصائب وقال اعلم أيها الملك وأنتم أيها الوزراء أن الصلح في هذا الامر أوفق من الحرب وانى أؤكد لكم أن الحرب ستفقدنا بلادنا لان أرض الصين لابد أن تدخل في حكم بهرام كما قررته الاحكام وجرى به القدر المحتوم فاذا ملكناها بالاسم كان أوفق لنا وأشرف وبقينا عليها كما نحن لانه قبل أن يخلق بهرام ظهر للمنجمين وعلماء الفرس أنه سيكون سعيد الطالع وأنه سيملك أقاليم الدنيا السبعة العظيمة ويزوج بسبع بنات أجمل بنات العالم ومن عاند فعل القدرة وقع في الخسران فضلا عن أن شجاعته ظاهرة للعيان فقد بدد ثلاثمائة ألف فارس بثلاثمائة فارس وقد أعطي من القدرة مالا يعطى لاحد قط وقد حكى لي أحد السياح الذين كانوا في ايران يوم تولى عليها بهرام شاه أنه هجم على أسدين جائعين وهو بغير سلاح فقبض على كل واحد بيد وأماتهما في الحال وهذا العمل مما ترتجف منه القلوب فعبثا تقاومون ايران فمن رأيي أن تجيبوا بهرام الى طلبه وترسلوا له جميع مطالبه والا ندمتم غاية الندم فسيملك الصين رغم كل معاند وهذا معروف في كتب الاولين ومبين للعلماء والمنجمين

فلما سمع الملك والوزراء هذا الكلام تبين لهم وجه الحق من الضلال وخافوا أن يمتنعوا فيجروا على الصين الوبال ولذلك أجمعوا على إجابة طلب الملك بهرام شاه ووافقوا ملكهم على ذلك وحينئذ أرسل ملك الصين فاستدعى سفير بهرام وقال له ان رغبتي الصادقة في التقرب من سيدك الملك بهرام حملتني على اجابة طلبه

فبعد ثلاثة أيام تجهز للعودة الى بلادك وسنصحبك بالاموال التي طلبها الملك وسترافقك كريمتي لفمان زوجة للملك بهرام شاه وسيدة لبلادكم . فشكره القائد على ذلك وقال له إن سيدى لاينسى لك هذا الجميل وهو اذا عرف انكم راغبون في الصلح فسيسر لذلك كثيرا وأن رغبتكم في التقرب منه ليست أكثر من رغبته في التقرب اليكم واني من الآن في انتظار أمركم لي بالسفر والتجهز للارتحال الى سيدى وفي خدمة سيدتي لانه يترقب اجابتكم وعودتي من هذه المهمة التي عهد الي بها بفارغ الصبر وعند ذلك أخذ الملك في تجهيز الاميرة لفمان واعداد الهدايا النفيسة لبهرام شاه ولأمراء ايران وفي نهاية اليوم الثالث أيام أستدعى ملك الصين السفير وسلمه الهدايا والتحف وأصحبه كريمته الاميرة لفمان ذات العفاف والجمال الفتان وكتب الى بهرام شاه كتابا يبين له فيه أن رغبته فيه ومحبته له هي التي حملته على ملازمة السلام واجتناب الحرب والخصام وحببت اليه مصاهرته واهداءه ابنته الدرة الغالية التي هي أعز عليه من نفسه التي بين جنبيه

وفي صباح اليوم الرابع ركب السفير بجماعته وحمل الهدايا والنفائس التي أخذها من ملك الصين وأركب ابنته لفمان وأصحبها بجماعة من الفرسان وسار لوداعها من الوزراء والاعيان فساروا في رفقتها طول ذلك النهار وعندما أقبل عليهم المساء عادوا إلي المدينة وسار سفير دولة ايران بمن معه يقطع السهول والوديان ويصل سير الليل بالنهار حتي اقترب من مدينة ايران فأرسل يعلم الملك بهرام شاه بقضاء غرضه ونوال رغبته ففرح بهرام شاه فرحا لا يوصف وأمر الوزراء بالخروج إلى ملاقاة بنت ملك الصين وأن يصحبوا معهم الجنود والقواد وأمر أن تزين المدينة وأن توقد النيران وتضاء عموم مدينة ايران فكان فرح الناس عظيما وما منهم الا من خرج لمشاهدة الزينات واحتفلوا بقدوم ملكتهم الجديدة وتقاطروا لرؤيتها من كل صوب وهاجوا وماجوا حتي سمح لهم جميعا بمقابلة الملكة الجديدة والتسليم عليها ثم ساروا بين يديها إلي المدينة وأدخلوها في موكب عظيم ما بين أصوات الدعاء ونغمات الترحيب وأناشيد الفرح والابتهاج ومن ثم أخذوها الى قصر الحريم وكان قد أعد به كل أسباب الزينة والفرح . وبعد أن أولم الملك بهرام شاه الولائم وأقام الافراح مدة ثلاثة أيام كاملة دخل على الملكة لفمان وهو لا يصدق أن يراها في عالم الحقيقة بل كان يظهر أن ذلك أضغاث أحلام لأن قلبه كان مشغولا بها منذ رأى صورتها في

قصر الخورنق وحالما دخل عليها وشاهد جمالها الفاتن ومحياها البهيج تاه عقله لأنه لم ير في طول عمره لحسنها نظيرا وأدرك ان المصور الماهر الذي صنع تمثالها العظيم الذي في قصر الخورنق لم يستطع أن يأتي بصورتها ولا بما يدانيها وأراد أن يتقدم نحوها فلم تحمله رجلاه وكانت التمان قد رفعت عينيها فرأته ورأت ماهو عليه من البهاء وصبوح الوجه فطار قلبها شعاعا وعلمت أنها لم تضع وأن حظها السعيد وطالعها الموفق وجمالها الفريد هو الذي أنعم عليها بالاقتران بالملك بهرام وفي الحال وقفت اجلالا لمقامه وتقدمت مطرقة من شدة الحياء وقبلت الارض بين يديه فطبع قبلة حارة فوق جبينها ثم ضمها الى صدره وعانقها معانقة العاشق الولهان والمدنف الحيران وأمضى معها ليلته على الحظ والنعيم وأراد في اليوم الثاني أن يبقى عندها فسجدت بين يديه ثم قالت له العفو يامالك الزمان اني دخلت قصرك ولم أعد اخرج منه الا الى القبر ولا يقدر أحد من ملوك الارض أن ينزعني من بين يديك فاني لك وفي ملكك أما أنت فلشعبك ولرعيتك أكثر مما انت لي وهم الآن ينتظرون خروجك ليباركون لك ويهنئونك فاخرج اليهم واقض مصالح الملك ثم ارجع فستراني كما تركتني ويكفي أن اني ماطرق هذه البلاد إلا بعد أن سمع بأنك توغلت في الملاهي والملذات وتركت الملك حتى ضعف أمره وكرهتك الرعية والوزراء وسلموا الملك غنيمة باردة ولقمة سائغة لوالدي ومازالت التمان في مثل هذا الشأن وهو يتأمل فيها ويسكر من سحر صوتها وحكمة أقوالها وصواب معانيها ولما اتمت ماعندها من الكلام قال لها أصبت ياذات الجمال والكمال فلو ان فتنة محظيتي الاولى التي كنت منشغلا بها مثلك لما جرى ماجرى بل كان همها الحصول على قلبي وعقلي ولو خربت المملكة في سبيل الهوى

ثم إنه بعد ذلك قبلها وخرج الى مقر الحكم وقلبه مملوء من السرور والابتهاج حتى جاء العصر المعد لاستقبال المهنئين من أعيان الدولة وكبرائها فهنئوه وباركوا له ودعوا لدولته بدوام العز والسلطان وكانوا يأتونه أفواجا أفواجا فيقدمون تهانيهم ويشربون الشراب ثم يخرجون فيأتي سواهم وهو يلاقي الجميع بوجه باش ويرد عليهم بلسان عذب وكلام حلو ومازال على تلك الحال حتى أقبل المساء الذي كان ينتظره بفارغ الصبر ولم يكد يقبل الليل حتى جاء الى الملكة لقمان وبات عندها الى الصباح وفي الصباح أمر أن يبنى لها قصر خاص كما فعل لابنت كسرى وكانتا الاثنتان في جمال واحد لا يقدر الرائي أن يفرق الواحدة من

الاخرى وكأنهما توأمتان من أب وأم واحدة ومن تلك الليلة صار بهرام يقضي أسبوعا عند الملكة لقمان وأسبوعا عند الملكة بنت كيكاوس ولم ينقطع عن ديوان الاحكام قط . الى ان كان ذات يوم جلس يفكر فيما اعطى من النعمة فشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك وتوسل اليه ان يسهل له الوصول الى البنات الخمس الباقيات كما سهل له الحصول على الاثنتين المتقدم ذكرهما وقد صمم كل التصميم على السعى وراء الباقيات اللاتى قدر له المولى ان يتزوج بهن . ولذلك كتب الى الملك قيصر ملك الروم كتابا يطلب اليه فيه ان يرسل له الهدايا والاموال والجزية وان يهيء ابنته ويرسلها اليه بالاكرام والاعزاز فيتخذها فى جملة حرمه وان ابى وامتنع عن اجابة طلبه فليستعد للحرب والقتال لانه سيحمل عليه بجنوده ورجاله ويأخذ بنته سبية بالرغم منه ولما بلغت الرسالة الملك قيصر وقرأها الى آخرها غضب غضبا عظيما وتكدر مما حوته من التهديد والوعيد وفى الحال أمر ان يجاب على رسالته بالشتائم والتحقير وأن يحضر للحرب والقتال فانه له بالانتظار وبعد عودة رسول الملك بهرام بجواب ملك الروم أمر بجمع العساكر وحشد الجيوش وتهيئة المؤن والاستعداد لحرب الفرس .

واما الملك بهرام فانه عندما قرأ جواب قيصر تغيظ واحمر وجهه وقامت قيامته وارغى وازبد وأقسم وتوعد وهدد وقال لقد دفعت الكبرياء بالملك قيصر الى الفناء فوجب على تأديبه وارجاعه الى جادة الصواب ليعلم قدر الملوك .

ثم جمع ماوصلت اليه يده من الجنود والفرسان وخرج بهم من ايران قاصدا بلاد الروم وقد نشرت فوقه الرايات وصفقت الجنود وعزفت بين يديه الموسيقات وما زال يسير بالجيش فى الطريق البرى الى أن وصل الى بحر الروم فأمر بتهيئة السفن وعبور الجنود من البحر الى ساحل الروم وعند ذلك التقى بجيوش ملك الروم في قلب بلاده وكان ملك الروم لما سمع بركوبه اليه خرج برجاله لقتاله عند التخوم وهو يؤمل أن يسحق جيوش الفرس ويهلك ملكهم بهرام شاه ومن ثم يسير الى المدائن ويستولى على عرش الاعجام ويقرض تلك الدولة التى دوخها الكبر والعتو وأسكرتها خمرة الظفر ونشوة الاستبداد حتى رأت دول العالم أقل منها قوة وأخس مقاما . ولما وقعت العين على العين تحرك القديم من الضغائن بين الطرفين فهجم الفريقان واصطدم الجيشان هجوم الذئاب الكاسرة واصطدام الليوث القاهرة وقد قوموا الأسنة وأشهروا الرماح وعلا من الفريقين

الصياح وأغمدوا فى الصدور الصفاح وفتحت الحرب أبوابها من كل ناحية ونعق غراب البوم على النفوس وناح فدخل فيها الكبير والصغير ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى اختلط الفريقان وعلا فوقهما الغبار إلى أعنان السماء وجرت الدماء على الصحصحان كجرى المياه فى الغدران أو الميازيب فى أعلى البنيان أو المطر الهتان وكان المعول فى كل ذلك على الملك بهرام عروس ذلك الميدان فانه كان كالغول أو كالأسد الأكول يلتهم بسيفه الفوارس ما بين عشرة وعشرين ويلقى بها إلى عزرائيل ويعجل بها الرحيل إلى سجيل فلم يقدر أحد من جيش الروم أن يثبت أمامه دقيقة واحدة ولذلك كان المجال يتسع عليه فيصول من مكان إلى مكان ويحمي رجاله كما يحمى الأب أطفاله والليث أشباله الى أن قرب الزوال ودقت طبول الانفصال فافترقوا على سلام ورجعوا الى الخيام وأوقدوا النيران وتحارس الفريقان وقد رأى الملك قيصر أن النقص قد وقع في عساكره حتى قتل أكثر من ربعهم فقام وقعد ورمى بالزبد ولام القواد وأنب الأجناد على هذا التراخى والضعف فوعدوه أنهم في اليوم التالى يعوضون ما فات ويسقون الفرس كؤوس الممات . ولما كان الصباح نهض بهرام وسبق الجميع الى الهجوم على الأعداء فاخترق الصفوف وشتت الألوف وأنزل عليهم المصائب والبلايا وجعلهم مثلا بين البرايا هذا والملك قيصر يدفع القواد والفرسان لتحمل عليه ويحرضها على قتله واعدامه فتهجم عليه أو يصل يده اليه لا يلبث حتى يتكردس بين يديه وتدوسه سنابك الخيل ويلاقي مر الويل فكل من يقترب اليه كمن يلقي نفسه فى نار ملتهبة أو أرض منقلبة ولم يمض الا القليل حتى حملت فرسان الفريقين ومشاتهما واتقدت شعلة الحرب أى اتقاد ورعت الحرب نفوس العباد فبيعت النفوس بغير ثمن وعدمت الأهل والسكن فدارت الدائرة علي قيصر الروم ورجاله ووقع فيهم النقص والفناء .

قال الراوي يا سادة ولما رأى ملك الروم ما وقع برجاله علم أنهم سائرون إلى الزوال فألوي عنان جواده وطلب الهزيمة والهرب وأمر بأن تتبعه العساكر والجنود ليسبق الأعداء الى المدينة ويغلق دون جيوش الفرس أبوابها ويستعد للحصار فأدارت الفرسان وجوهها وأطلقت لخيولها الاعنة تاركة المؤن والذخائر فى ذلك المكان غنيمة لجيوش مملكة ايران وحينئذ وقف بهرام شاه عن القتال والتفت الى من حواليه من القواد فقال لهم اجمعوا المؤن والذخائر ولموا الاسلاب

واتبعوني الي المدينه فاني أحب أن أتأثر قيصر في الحال قبل أن يلحق بالمدينة فيدخلها ويحاصر فى داخلها ويحفر حولها الخنادق فنبقى خارج المدينة الى ما شاء الله حيث لا تغنى الشجاعة ولا تنفع قوة الجلاد .

ثم انتخب نحو عشرة آلاف فارس من نخبة الفرسان وسار بهم يتأثر قيصر ورجاله وكلما وقع بيدهم جماعة من المنقطعين أسروهم أو قتلوهم حتى أقبل المساء وكان بهرام قد ظن أن قيصر سينزل فى تلك الارض فينام بجيوشه إلى الصباح ولكن المقادير خيبت ظنه ، وأخلفت أمانيه فانه سار إلى المدينة ببطء وأما بهرام البطل المقدام فانه لم ينزل عن جواده هو وجنوده حتى أدرك قيصر فى الصباح على أبواب المدينة وكان في نية قيصر الدخول اليها لكنه لم يقدر ولا تركه بهرام بل فاجأه وأمر رجاله بالحملة والمسارعة إلى المدينة وان كل من اعترضهم قتلوه وكانت أبواب المدينة مفتوحة من كل جهة فاكتفي بهرام بأن ملك واحدا منها فأقام عليه نصف فرسانه كحراس ودخل هو بالنصف الآخر وأوقع بالمدينة وسكانها الفزع وعمهم الخوف والجزع والرعب والهلع وكان قيصر ورجاله قد دخلوا من الابواب الاخرى وظنوا أنهم إذا ضيقوا المجال على بهرام شاه فى المدينة يقبضون عليه فحملوا عليه وازدحموا حوله وعلت منهم الصيحات وتوالت الزعقات وسدت عليه الطرقات ولكن أين لهم أن يثبتوا أمام فارس الميدان ومبيد الشجعان وكان كلما تجمعوا فرقهم وكلما كثروا محقهم حتى أرعب المدينة وأوقع الخوف فى قلب قيصر وحينئذ لم ير أوفق من الصلح والسلام وطلب الامان والانقياد لارادة بهرام شاه لان قصده بنته والجزية فلا يمنعها عنه وعند ذلك نادى بطلب الامان وارتفعت الاصوات من السكان بطلب الامان والدعاء لبهرام شاه فارس الفرسان .

ولما سمع بهرام النداء رفع يده عن القتال وأمر فرسانه بالكف وقال لهم ان الروم استسلموا فحرام علينا قتالهم وفى الحال اتجه الى قصر قيصر الروم فتلقاه بالترحيب والاكرام وألقى سيفه عند أقدامه وطلب اليه العفو والامان والمعذرة عما فات وما وقع منه من الهفوات فصافحه بهرامشاه وقال له ان النسيان فى مثل هذا الشأن أوفق لبني الانسان . والآن قد مضى ما مضى وكأن لم يكن بيننا شيء .

ثم دخل واياه الي القصر وقيصر الروم قد امتلأ قلبه من الفرح لانه أحب بهرام شاه محبة لا توصف لما شاهد فيه من الشجاعة والاقدام والمروءة والبسالة ولين الجانب وبهاء الطلعة فقد جمع الله فيه كل ماهو حسن ولما صاروا فى أعلا القصر طلب قيصر الى بهرام شاه أن يجلس على العرش فأبي وقال له ان عرشك يبقي لك فانى لا أطمع فيه ولا اقصد انتزاعه منك بل جل ما أقصده هو أن آخذ بنتك لأننى أعلم أن الله قد من علي بأن تكون لى زوجة وأن أكون مالكا للسبعة الأقاليم والآن وان كان بلاد الروم قد وصلت فى يدى وقد فتحتها بسيفي وعزمي لكننى أحب ان تبقى انت عليها كما كنت لكن ترجع دائما فى أمورك الي وتعول فى كل شدة علي حتى اذا احتجت الى مساعدة أو دفع عدو فانى مستعد لذلك فأدفع الضر عنك .

ففي الحال أمر قيصر بتزيين المدينة واقامة الافراح وعمل الولائم ترحيبا ببهرام وجماعته وأعلن أمر الصلح والاتفاق فى كل بلاده وقد دخل الوزراء والاعيان والبطارقة والجثالقة والرؤساء على بهرام شاه فسلموا عليه وقبلوا الارض بين يديه وشكروه على حلمه وعفوه ودام فى المدينة ثلاثة أيام على أتم مايرام من المسرة والهناء وكان قد وصل باقي الفرس الذين تخلفوا فى الطريق فضربوا أطنابهم حول المدينة ودخل القواد وانضموا إلى سيدهم يشاركونه فى أفراحه وبعد الثلاثة أيام امر قيصر بأن تجمع الاموال والهدايا من كل ثمين ونفيس فجمعت وقدمها كلها بين يدي بهرام شاه .

ثم أحضر بنته فعرضها عليه وقال له ان جاريتك بين يديك فانى أقدمها لك لكي تزف عليها فى بلادك لانه على حسب اعتقادنا لا يصح تزويجها بك لكني أهبها لك هبة وأوصيك بها لانها تربت فى بيتى على الدلال والرفاهية فأجاب كن براحة فاني أكرمها وأعظم قدرها لانها زوجتي والعاقل لا يحتقر زوجته بل يكرمها اذا كانت امينة مطيعة لامره .

وبعد ان شكر بهرام شاه ملك الروم امر ان تحمل الاحمال وتركب الفرسان وترفع عروسه على تخت روان ، ولم يكن الا القليل حتى ركب وركبت عساكره ورجاله وساروا بين يديه وسار هو ايضا بعد ان ودع الملك ولا زال حتى دخل بلاده فلاقته الرعية بالتكريم والاحترام وزينت المدينه فرحا بانتصاره

وباحضاره بنت ملك الروم فدخل عليها وقد فرح بها كثيرا وابتنى لها قصرا خاصا واسكنها فيه .

وبعد ذلك بأيام قال فى نفسه ها أنا قد أحرزت ثلاثا من البنات اللاتى رمين على جمرة الحب وقدت لامرى ملكين عظيمين وأخذت منهما الجزية وأصبح من الواجب عليّ لاتمام عملى أن أسعى فى الوصول الى البنات الاربع الباقيات ويلزم الآن أن أحصل على بنت ملك الهند لكن السفر الى تلك البلاد صعب على الفرسان والاجناد لبعد الطريق وصعوبة الوصول لكثرة الجبال والمرتفعات ولا سيما أن عند ملك الهند كثيرا من الاجناد والابطال والعيارين وركبة الافيال ومروضي الاسود والسحرة المهرة فاذا سرت بجيش فقد عرضته الى الاخطار فيهلك منه قسم عظيم بدون جدوى ولا منفعة تعود على البلاد .

وبما أن النفع لي والربح العظيم لنفسي فان من الواجب علي أن أسير بنفسي بصفة رسول عن بهرام مادام لا أحد يعرفنى فى أرض ملك الهند وربما اذا أرسلت رسولا يعود بالخيبة فأضطر الى الحرب والقتال بالرغم منى لكن اذا سرت بنفسى لا أرجع ان شاء الله الا وهى فى قبضة يدي وصمم النية على ذلك وكتب رسالة مستوفية الى ملك الهند وأمضاها ثم غير زيه واختار بعضا من القواد وخرج من ايران قاصدا بهم بلاد الهند وتلك الاوطان ولم يزل يجد فى مسيره حتي وصل الى عاصمة الهند فأرسل الي ملك الهند يخبره بانه سفير من قبل بهرام شاه فى حاجة مهمة وكان الملك قد اتصل به قبل ذلك شيء من أخبار بهرام وشجاعته لكنه كان مطبوعا علي الكبر والغطرسة فلم يرسل أحدا لملاقاته بل قال ان الابواب مفتوحة فليدخل .

ولما بلغ الخبر بهرام شاه تكدر لكنه اخفي ماعنده من الغيظ والحنق ودخل المدينة بطنطنة عظيمة وجلبة وضجة محاطا برجال معيته فرأي المدينة معمورة للغاية ومتقنة البناء وأسواقها مزخرفة ومزينة وكان يرى في كل طريق يمر منه العساكر والفرسان والبهلوانية يطوفون بكمال العظمة والشجاعة .

فلما رأى ذلك تعجب وغاص فى بحر من الافكار وهو يقول في نفسه هل ترى اقدر ان اجعل هذه المدينة تحت سلطتى واصرف نفوذى فيها إن ذلك من صعب لكن كل ذلك يهون بارادة الله .

وبقي فى مسيره حتى وصل من قصر الملك وقد كدره عدم احتفاء الملك به

وعدم ارسال أحد لاستقباله ولما وصل إلى باب القصر ترجل عن جواده وهناك لم يستقبله غير الحجاب فأدخلوه القصر ودلوه على الحجرة التي خصصت له والحجرات التي خصصت لجماعته وهناك أكرموه غاية الاكرام وترحبوا به للغاية وقاموا بخدمته كأشرف ضيف . فبات تلك الليلة مستريحا من مشقة السفر وفى صباح اليوم التالى خرج إلى الديوان واستأذن الملك فى الدخول فأذن له فدخل حتي قرب من عرش الملك فحياه وأدى له الاحترام اللائق والواجب وهو بصفة رسول شاه الفرس ثم وقف فى الوسط وقلبه مملوء من الغيظ والحنق وقد خطر له أن يستل سيفه ويقطع رؤوس جميع من فى الديوان من السيد إلى الحاجب لكنه ضبط نفسه وخاف العاقبة وقال الصبر أفضل وأولى والتريث والحكمة أحسن وأحلى . وحينئذ أمره بالجلوس فجلس . وبعد أن أمر له بالمرطبات فشرب وقدم له العوائد الجارية عندهم وقف بهرام وقال لا يخفاك أيها الملك العظيم والسيد الكريم صاحب البلاد والأقاليم . أنى مرسل إليك من قبل سيدى بهرام شاه ملك ايران ومذل الانس والجان قاهر الأسود ومبيد الجنود من شاع صيته في كل مكان وأمرنى أن أسلمك هذه الرسالة وأسأل من فضلك الجواب . فوقع هذا الكلام ثقيلا على ملك الهند لكنه تناول الرسالة وسلمها لوزيره فقرأها بصوت عال حتي سمعها الجميع ولما وعى الملك معناها وعرف أن كل غاية بهرام شاه الاقتران من بنته وأنه يتهدده بأنه إذا امتنع فانه يأخذها جبرا ويأمره بأن يرسل مع بنته الجزية والهدايا زاد لذلك حنقه والتفت إلى بهرام شاه وقال له يظهر أن سيدك مجنون أبله أو أن الغرور قد لعب به حتى ضيع رشده أما قرأ فى التواريخ وراجع الكتب القديمة ليعرف منها ما عليه مملكة الهند من القوة والسطوة وأنها لا تطيع أحدا ولا تخاف أحدا ولا تدفع الجزيه لاحد .

نعم إن سيدك مجنون أو جاهل أو مغتر بنفسه يظن أن الهند كغيرها من البلاد وانى لولم يكن من العار قتل الرسول لكنت قطعت رأسك الآن وأرسلته له تحقيرا لشأنه واهانة له عله يرجع عن غروره وكبريائه .

فحينئذ وقف بهرام شاه وانطلق لسانه بفصاحة غريبة أسكرت كل من حضر وقال أيها السيد العظ. ان مولاى بهرام شاه هو أشد رجال الحرب واعظم من

جال فى مجال وهو يعرف عظم ملككم وقدرة فرسانكم ولا يجهل أن عدد جنودكم لا يحصى لكن يترجح عنده أنه قادر على سحق الهند والاستيلاء عليها ولكنه حبا فى السلام قدم اليكم رسالة من باب المخابرة والطلب ولكي يعطيكم برهانا على صدق ذلك أرسلني أنا احقر عبيده ولا قدرة لى أن أفتل عنانا بين يديه وارسل معى مائة فارس وأمرنى ان اعرض لديكم شفاها امراً واحداً وهو انه بعث لكم مائة فارس من فرسانه ويطلب اليكم أن تبارزوهم فاذا تغلبتم على المائة فارس يقف عند حده وإذا عجزتم عن التغلب عليهم فتتأكدون انه اذا جاء بنفسه وجر من خلفه جيوش الفرس يخرب بلاد الهند عن بكرة أبيها . فزاد غيظ الملك وقال ويلك ان هذا عين الجنون الا نقدر أن نتغلب على مائة فارس ولدى من الفرسان من إذا ضغط برجليه على الفيل قطعه . قال مهلا لا تعجل ايها الملك العظيم فى حكمك بل احلم واسلك معنا مسلك الانصاف والعدل فها انا بين يديك وهاك الميدان فمن شئت من فرسانك ان يبارزنى واجمع الشجعان من سائر البلدان فانى وحدي ابارز فرسانك فان لم اتغلب عليهم فيكون دمى مباحا لك وان تغلبت عليهم وقهرتهم يكون ما تكلمته هو الصدق الذى لا مراء فيه وانى لا اطلب اليك ان أبارز واحداً واحدا بل مئة مئة وذلك اقوى دليل على الاختبار .

فلما سمع ملك الهند هذا الكلام وافق عليه وقال فى نفسه يلزم ان ارى رجال ايران فرسان الهند وشجاعتهم لينزعوا الطمع والعجب من رؤوسهم ولا يعودوا فيخبروا ملكهم بما رأوا لان لابد ان يكون بهرام شاه قد ارسل لى اعظم فرسانه وابطاله وفى اليوم التالى خرج الملك الى ميدان المدينة يحيط به الوزراء والاعيان وكبار الدولة وقد أمر بجمع الابطال والشجعان وفرسان القتال .

وجاء بهرام شاه محاطا بفرسانه وهو كالأسد الكاسر ولما وصل الى الميدان اومأ بيده للسلام وخرج الى الوسط على جواده وهو مدجج بالسلاح يطلب البراز والكفاح . وحينئذ امر الملك احد ابطاله ان يبرز اليه ويقطع رأسه ويحضرها بين يديه وكان اوائل فرسان الهند وشجعانها المشهورين الا ان بهرام شاه لم يتركه يفتل العنان بل صاح به فخبله ومد يده الى وسطه بأسرع من لمح البصر واقتلعه من على سرجه إلى فوق رأسه وجاء ورماه بين يدي الملك ورجاله وحينئذ اندهش الملك وتعجب وكذلك الوزراء والاعيان وقالوا لا ريب أن هذا السفير

هو أخو بهرام شاه لان دلائل الكبرياء والعظمة تبدو عليه فهو أمير دون شك وحينئذ صاح بهرام شاه هلموا أيها الفرسان والا بطال فاني في الانتظار فأشار له الملك أن يقرب منه فقرب فقال لاتتعب نفسك فقد ثبت عندي ماقلت فان كنت قد فعلت مع أعظم فرساني مافعلت فلا ريب أنك تفضح الجميع .

ثم ان الملك نهض وركب جواده وعاد إلي المدينة وبهرام شاه الى جانبه وهو مسرور به متعجب منه وقد مال اليه وأحبه ، ولما وصلوا الي دار الاحكام انفصل بهرام بجماعته ودخل الملك واجتمع بوزرائه على خلوة وأخذوا يتباحثون في شأن السفير وشجاعته فقال لهم الملك ان قلبي قد مال الى هذا السفير ولذلك أري من الواجب أن استميله الي وأزوجه من بنتي واجعله وليا للعهد من بعدي اذلا ولد ذكرلي ومثل هذا البطل يفدي بالارواح فأجابه الجميع حسنا تفعل لانه نادر المثال بين الرجال ، وحينئذ عين الملك أحد الوزراء أن يذهب الي رسول بهرام شاه ويخبره بقصد الملك ويشرط عليه ان لا يرجع الى ايران قط بل يبقى فى الهند وتكون مملكة الهند له من بعد الملك .

وفى المساء ذهب الوزير الى بهرام شاه وعرض عليه غاية الملك وما تم عليه القرار وان الملك لايريد أن يزوج بنته من بهرام شاه لانه لا يطيق فراقها فهي وحيدة له وهو لا يسمح بأن يزفها عليه بشرط ان لا يرجع الي ايران وان يكون الوارث لمملكة الهند بعد الملك .

فلما سمع بهرام شاه هذا الكلام أطرق الى الارض متفكرا وقال فى نفسه لا بأس من القبول وبعد الزواج اظهر نفسي وقد حصلت على ثلاث زوجات تمنيتهن نفسى وهذه الرابعة وكان امر الوصول اليها اصعب الجميع فأصبح هينا بقدرة الله وقد رضى الملك فيجب ان اوافقه فى الحال وما ذلك الا من تدبير العزيز المتعال .

ومن ثم رفع رأسه وقال للوزير لقد انعم على الملك فلا ارد له طلبا فانى اقبل بنته لنفسي واما من جهة رجوعي الي ايران فأراه لازما لان لبلاد الفرس اعداء كثيرين ولا بد لبهرام شاه ان يحتاجني فاذا سرت أسير بارادة الملك واما ولاية العهد فهذه لابد منها لان حق الميراث لبنته وانا وابنته واحد فهولى ولا ريب فيه .

فسر الوزير من جواب السفير وعاد إلى الملك وأخبره بما سمع فزاد فرح الملك واهتم بقيام الأفراح والاحتفالات وفى ثانى الأيام دخل بهرام شاه الحمام فاغتسل وجيء إليه بالملابس النفيسة الثمينة فلبسها وقد تعطر وتطيب حتى صار بهجة للناظرين وصار كل من رآه لا يطاوعه قلبه على فراقه وقد أخذ بمجامع القلوب وكانت الجنود ورجال الحكومة قد أحبته كثيرا لما رأوه من شجاعته وما شاهدوه فيه من الهيبة والوقار والجمال الفتان وفى المساء عقدوا له على بنت الملك وكانت المدينة ترقص من الزين الباهرة التي قام بها الأهالى حبا بملكهم وبسفير بهرام شاه ملكهم الجديد وبعد أن انصرف الجميع دخل على عروسه وهو متعجب من حاله وجلس إلى جانبها بكمال الحشمة والوقار لا يطيق النظر إلى وجهها تحت النقاب وكأنه البدر خلف السحاب وقد كان بهرام شاه فرحا مسرورا لأنه حصل بدون تعب ولا شقاء على هذه الدرة الثمينة التي كان يتمنى وصالها هذا من ناحية أما من ناحية أخرى فقد كان مشتغلا دائم الفكر كيف يبقى فى بلاد الهند ولا يذهب إلى إيران ويترك ملكه وزوجاته الثلاث ويبقي عند هذه مع أن في عزمه أن يسعي خلف الزوجات الثلاث الاخريات وبقي صامتا لا يفوه بحرف ولا ينطق بكلمة ولكنه كان ينظر إليها قلقا وأفكاره تروح وتجيء في هذه الناحية وهو نادم على تعهده لابيها بالبقاء فى الهند كما كانت هي تطيل النظر إليه وشاهدت ما هو عليه من الحسن والجمال والبهاء والكمال والقد الاسيل والخد الاصيل والطرف الكحيل فاحلت مفاصلها ووقعت محبته فى قلبها موقعا عظيما وتبين لها أنه أول رجل بديع الصفات وقعت عينها عليه .

وطال وقت انتظارها وهو كما هو صامت لا يكلمها بلسانه ولا يمد إليها يده وهي فى أثناء ذلك تراقب حركاته إلى أن رأته قد وقف ثم نزع ثيابه فأملت الخير ولكن سرعان ما خاب ظنها فانه بعد أن خلع ثيابه دخل فى سريره وأدار ظهره ثم نام فلما رأت منه ذلك زاد خفقان قلبها وعظم عليها الامر وأخذت فى البكاء والنحيب وقالت ماذا رأى منى ياترى هل لم أعجبه أو بدا منى قصور فى حقه أو اعتز بنفسه لما رأى أن أبى قد سمح له بزواجى عن حب وهل هذه هي المكافأة . وبقيت مدة على هذه الحالة ولكن قلبها لم يطعها على أن تفعل مثل فعله وتنام غاضبة منه بل تقدمت نحو سريره ووضعت رأسها فوق رأسه وأحدقت فى وجهه بقلب خافق وهى تتحرق من عمله وتتشوق الى قبلة تطبعها على خده

أو قبلة منه يطبعها على فمها ليبرد نار حبها وهو مغمض العينين وما كأنه الا ميت لا يحس ولا يتحرك وفيما هي تتأمل فيه وتتحسر على سوء حظها معه اذ فاض الدمع من عينيها فوقع على وجه بهرام شاه فشعر كأن ماء ساخنا يحرق خده ففتح حينئذ عينيه ونظر الى ماهى عليه من الحزن والكآبة فعلم أن قلبها قد تولع به وحالما أمعن النظر في حسنها وجمالها لم يعد يطيق صبراً على جفاها ولم يطعه قلبه على تركها فأخذها وأجلسها الى جانبه على السرير وقبلها فى خدها وسألها عن علة هذا البكاء فقالت له ياقرة العين كيف لا أبكى من جفاء ملكي ومعبودى وكيف لا أشكو من ظلم جورك وطول صدك لقد رآك قلبي فانعطف اليك دفعة واحدة ومال بكليته اليك وأري قلبك على قاسيا كالحجر فكيف لا أبكى وقد عاملتنى بظلم وقلة انصاف ولم تراع السنة المألوفة بين الناس وأنا لم أعرف لذلك من سبب ولم أرتكب معك ذنبا ولا جريرة وكذلك أبي فانه أعطاك ملكا وجمالا حتى صرت أعظم من سيدك بهرام شاه فأنا زوجتك وبين يديك وأعاهدك على الطاعة والخضوع فى كل أمر تأمرنى به فلا يكن قلبك قاسيا على ولا تظلمنى .

فلما سمع بهرام شاه كلامها أثر فيه ولم يتمالك نفسه وتحركت كل احساساته وجوارحه وقام فعانقها وقبلها فى خدها مرارا ثم مسح عينيها وقال لها لا تبكى يابدر المشرق وياحياتى العزيزة فقلبي يحبك أكثر مما يحبنى قلبك وانى أريدك وأفضلك على عيني وحياتي لكن مارأيته منى كان لشغل عظيم عندى التزمت أن أفكر فيه فعظم علي ولم أر له بابا أصرفه اليه .

فلما رأت بنت الملك ميل بهرام شاه اليها وتأكدت محبته ضمته الى صدرها وقبلته كما قبلها وقالت له فى ماذا تفكر وما الذى يشغلك عمن تضحى حياتها لأجلك وأجل راحتك فأخبرني ولا تخف عني أمراً . قال لها هل يليق بالمرء أن يفشي سره لكل انسان ؟ قالت كلا لا يليق بالمرء أن يفشى أسراره لكن يمكنه أن يبوح بأسراره لمن يكون صادقا أمينا على صوالحه محبا له يشاركه فى السراء والضراء ويقاسمه الهناء والعناء . فقال لها وهل ياترى أرى فيك الصدق والامانة والمحبة التي تزعمينها فأسلمك سرى وأكشف لك مافى صدرى لأري فرجا لى ومخرجا مما أنا فيه . فتبسمت حينئذ ومالت بكليتها اليه وقالت له كيف لا أكون أنا صديقتك وأمينتك على أسرارك وشريكتك فى نعيمك وبؤسك ؟ ألست زوجي وقد أخذتني

حلالا وفوق كل ذلك فان قلبي في يديك وأمري مفوض اليك فأنت حبيبي وبك راحتي وبكدرك موتي وعذابي فكن أمينا من جهتي واعلم انك إذا أمرتني أن اترك أبي وملكه والدنيا بأجمعها لأعيش معك فى البرية كالبهائم فلن أتأخر بشرط ان أكون جنبك وبقربك تراك عيني وقلبي وما ذلك إلا لأني رأيت شخصك فى المنام من قبل أن تأتي هذه البلاد قال وكيف ذلك ؟ قالت منذ سنتين كنت نائمة فرأيت فى منامى ان رجلا عظيما جاء الى أبي وتزوجني فسألته عن اسمه فقال لى بهرام شاه ملك الفرس وسيد ايران ولما رأيت طلعته وشاهدت جماله تعلق قلبي به ولما استيقظت من نومي بقي أثر تلك الطلعة البهية منطبعا فى ذاكرتي وفى قلبي وفى نظري ولم يغب عن ذهني نورها يوما واحدا ولما أتيت أنت وسألت ابي عن لسان سيدك تأكدت صحة تلك الرؤيا وتمنيت ان أكون زوجة لبهرام شاه ولما علمت أن ابي زوجني منك تكدرت لان عقلي وقلبي عند بهرام شاه غير انك لما دخلت علي وشاهدتك وجدت انك الشخص الذي رأيته فى حلمي وأن وجهك هو الذى شغلني كل هذه المدة ونور هذه الطلعة لم يفارقني لحظة ولذلك تأكدت إن حلمي ما كان الا كناية والحقيقة هو انت وهذا بتدبير الآلهة فاتخذني لك عونا وكن أمينا مني وهلم إلي فلي دهر طويل وانا أتعذب بحبك واسأل آلهتي ومعبودتي أن تقربك مني ولما وقعت عندي تريد الجفاء يا قاسي القلب ثم لا تركن إلي .

فحينئذ تأكد صدق محبتها وقال لها لقد صدق حلمك بأجمعه فما أنا بالسفير بل أنا نفسي بهرام شاه وقد جئت من بلادي لاجلك ولاجل حبك ضحيت حياتي وعرضت نفسي للخطر وحيث إن أباك اشترط علي ان أبقي هنا صعب علي الامر لان بلادي فى حاجة الي وملكي أوسع من ملك أبيك وليس ورائي من يدبره ولا نفسي تطيعني على التخلي عنه ولو بملك الدنيا لانه ملك أبي وأجدادي وهو مقدس عندي ولهذا كنت أفكر فى وسيلة للخروج من المدينة وها انا قد بحت لك بسري فانظري فيه بعين الحكمة والتدبير

فلما سمعت منه أنه بهرام شاه زاد قلبها فرحا وكادت نفسها تطير شعاعا ومن عظم السرور عادت فطوقت عنقه بمعصميها وقبلته فى جبينه وقالت له أتكون أنت ملك اللطف والظرف وتخلي نفسك عن زوجتك ومحبتك وما هذا الذى تفكر فيه الا سهل التدبير فانى اطيعك واذهب وإياك الى آخر العالم فكن براحة

والتدبير عندي في الخروج من هذه المدينة سهل لان بعد أسبوع يبتدىء العيد فيخرج أبي برجاله العظام وتتبعه كل المدينة الي الهيكل الاكبر لقضاء يوم العيد هناك والاقبال فيه علي العبادة وتقدمة الضحايا وحينئذ يخلو لنا الجو فنخرج من المدينة ونسير نحو بلادك وأوطانك ويكون برفقتنا رجالك وفرسانك ولا يرجع أبي من العيد حتي نكون قد بعدنا أياما .

قال لها ان في الهرب العار والشنار علي قالت ليس في ذلك عار أبدا لانك لاتقدر أن تقاوم جيوش الهند وحدك ولا يمكن لابي ان يتخلى عني ويبعدني عن عينيه لانه يحبني كثيرا وقد طلبني كثير من الملوك فردهم بالخيبة لانه يريد أن ابقي عنده وما زوجك الا علي هذا الشرط لعلمه انك لا بلاد لك ولا ملك فاكراما لي اراد أن يترك لك عرشه فما من وسيلة قط الا الهرب في هذه الايام .

فلما سمع بهرام شاه هذا الكلام رآه عين الصواب وقد عرف أنه إذا عاند فربما خسر زوجته الجديدة فيخفيها ابوها عنه وهو وحيد في تلك البلاد وبلاده بعيدة عنه وحينئذ وافقها علي رأيها فسرت منه ، ومن بعد ذلك تعانقا وكان الامر كما قال الشاعر :

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وما زالا طول ليلتهما منهمكين في المسرات والاقبال على الشهوات والانتقام من الدهر الطويل الذى فات وقلباهما في شتات إلي الصباح وقد طاب له الوقت وصفا له العيش وصرف ذاك الاسبوع على الهناء والانشراح غارقاً مع زوجته بالملذات والافراح لا يخرج إلا نادراً إكراماً لخاطر أبي زوجته وتطمينا له وكان عمه مسرورا به وبابنته وقد تصور أنه وحيده الوارث للمملكة الذى يليق بها وتسر منه الرعية .

ولما انقضى الاسبوع وجاء يوم العيد أصبح الملك وحاشيته ورجال دولته وأكابر المدينة وأعيانها يتهيؤن للذهاب إلى عمل العبادة كجارى عادتهم في كل سنة . ولم تمض ساعة حتى خرج الجميع ولم يبق في المدينة إلا الخدم والحشم والفرباء وحينئذ نهضت نور بنت الملك وقالت لبهرام شاه هلم يا سيدي لا تضيع هذه الفرصة فان الوقت لا يسمح لنا وهذا وقت الهرب ثم غيرت ثيابها ولبست ثياب الرجال وقد تدججت بالسلاح إلى حد أسنانها وخرجت إلى الاصطبل

فاختارت جوادا من أحسن جياد أبيها فركبته وركب بهرام جواده وأمر جماعته أن يسبقوه إلي خارج المدينة وقد استصحبت نور متاعها وحليها معها وكلما تحتاج اليه في الطريق ولم يكن إلا القليل حتى خرجوا من المدينة وساروا فى الطريق إلى إيران وجدوا فى السير طول ذاك النهار لا يأخذهم هدوء ولا قرار ولا يفكرون فى الاستراحة أو الانتظار حتي أقبل المساء وكان بهرام شاه غير مسرور من هذ الامر ولا يريد أن تتكبد زوجته كل هذا التعب والعناء لكنها كانت لا ترضي إلا بذلك مظهرة له سرورها واقتدارها على تحمل المشاق

ولما كان المساء نزل بهرام شاه بزوجته عند ذيل جبل هناك وأمر بأن يقدم اليهما الاكل فأكلا وحمدا الله على انعامه ومن ثم مال إلى زوجته وانفرد بها فى صيوانه وأخذا يتعاطيان كؤوس المسرات ويصرفان الليل على الصفاء والأنس إلى الصباح وأما ملك الهند فانه رجع فى المساء إلى المدينة ودخل قصره وفي الحال افتقد بنته وصهره فما وجدهما فطار صوابه وسأل عنهما بعض خدم القصر فأخبروه بما كان منهما وكيف ركبا وخرجا من المدينة ولكنهم لا يعلمون إلي أى جهه سارا سيرهما .

وفي الحال أدرك الملك أن صهره أغرى ابنته وهرب بها راجعا إلي بلاده وقد اغتنم فرصة غيابه عن المدينة ولذلك طار صوابه ولم يعد يعي على شيء وقال فى نفسه لا بد لي من اللحاق به والسير فى هذا الليل حتي أدركه عند الصباح لأنه لابد أن يكون قد سار كل النهار وفى المساء نزل للراحه إذ لا يمكن أن يسير بزوجته ليلا ونهارا ، وفى الحال ركب بنفسه وأخذ معه فرقة من العساكر والأبطال المعدودين المتمرنين على الحرب والقتال وسار تحت ظلام الاعتكار لا يأخذه هدوء ولا قرار ولم يصبح عليه الصباح إلا بالقرب من المحل النازل فيه بهرام شاه ، وكان بهرام قد نهض عند الصباح وخرج من صيوانه ونظر الي البر الفسيح فشاهد الغبار مرتفعا الى العنان فتبسم تبسم الازدراء والاحتقار وقال لزوجته هاهو أبوك قد أدركنا بالرجال والفرسان وانى بانتظار مثل هذا الشان لأريك كيف تفعل الاسد بالخرفان ، فقالت له دع عنك هذا الامر وهلم بنا نتسلق هذا الجبل ونداوم المسير فانه لا يزال بيننا وبينهم مسافة نقدر بها على التخلص من أيديهم .

فقال لها ولماذا أتخلص منهم وأنا قادر أن أقاتل جيوش الهند دون أن أكل أو أمل وسأطلب البراز فان أنصفونى كان والا فيحملوا على برمتهم والله نصيري فلا أخاف منهم ولا من سيوفهم وحرابهم ثم أسرع الى سلاحه فنقله والى جواده فركبه وركبت نور وصعدت على رابية عالية ترى منها القتال وهى تدعو الله أن يصطلحا وأن يصان زوجها من غدرات الزمان ، ولم تكن الا ساعات قليلة حتي قرب الملك بجماعته من ذاك المكان فوجد بهرام شاه فى انتظاره ومن خلفه فرسانه الذين جاء بهم من ايران وهو يستعد لحربه وقتاله ، فطار صوابه من هذا الامر وتقدم في الحال وهو يزبد ويرغى كفحول الجمال حتي وقف أمام صهره وجها لوجه وصاح به ويحك أيها الغدار أتظن أنك تنجو من بين يدي وتهرب بابنتى وتحرمنى النظر اليها وقد جازيتني على فعل الجميل معك بالغدر والخيانة ولكن الحق على لأنى زوجتك بنتى وقد تحسر عليها ملوك الزمان واخترتك على سيدك بهرام وأعطيتك تخت الهند هبة منى فرفعتك من الحضيض الى الاعلى وفى ظنى أن الجميل يثمر معك وتشعر بنعمتي لكنك مبني على الغدر والخيانة وقد فضلت خدمة سيدك على مملكة الهند وما ذاك الا نوع من الجنون والحمق .

فلما سمع بهرام هذا الكلام طار من عينيه الشرار وعزم على أن يسرع الى عمه بضربة حسام يقطعه نصفين لكنه افتكر بزوجته وماذا يصير بها الحال اذا قتل أباها ولذلك كظم غيظه وأجاب عمه بهدوء لا تطل الكلام والجدال فما أنا بمجنون ولا خوان بل أحسن منك عقلا وأشد وفاء ولكي تعلم بذلك أعلمك بنفسي من أنا لتعلم أنى لا أقدر أن أبقى فى بلادك أنا هو بهرام شاه ملك ايران ومذل الجبابرة والفرسان ومالك الاقاليم والبلدان وقد جعلت نفسي سفيرا وأتيت اليك أطلب بنتك فساعدنى الحظ وحصلت عليها وكنت أود أن أطلعك على أمرى وأنا فى المدينة فمانعت نور فى ذلك خوفا من أن تمانع فى اخراجها من المدينة فأتيت بها الى هذا المكان وبت أنتظر اتيانك الي لتأكدى أن لا بد لك من المسير خلفى وحاشاى أن أهرب ولو قصدت الهرب لكنت بعيدا الآن عشرات الاميال من هذا المكان ، وها قد أطلعتك على جلية الامر وكشفت لك عن باطن الخبر فاذا رغبت فى الصلح والوفاق فأهلا ومرحبا واذا بقيت مصرا على الحرب والقتال فمر جندك وعساكرك بالهجوم على لترى بعينك فعل من أذل الاسود

وأملك الابطال وملك الاقاليم وانى لا أرغب فى الصلح الا اكراما لخاطر ابنتك نور الصباح وزينة الملاح لانى اعلم الآن أنها فى بكاء ونواح وقد أوصتني أن لا أمد اليك يدا ولو قطعتني اربا اربا فوعدتها انى أبيد جيوشك وأقتلهم عن آخرهم ولو كانوا بعدد الرمل والحصى أما أنت فلا أرفع عليك يدا وحاشاي من ذلك .

وكان ملك الهند يسمع وهو مطرق الى الارض وقد مال قلبه كل الميل الى بهرام شاه وزاد فرحه لما عرف انه هو سيد ايران وملكها وافتكر انه لو حارب بهرام وظفر به لا يقتله حبا فى ابنته لانه اذا قتل تموت ابنته لا محالة فضلا عن أنه كان يسمع ان بهرام شاه أشد فرسان العالم بسالة واقداما وانه دوخ ملك الصين وأخذ التاج من بين الاسدين وقهر ملك الرومان واذاقه الذل والهوان فرجح عنده الصلح والوفاق وفى الحال نزل عن جواده وفعل صهره كفعله وتقدما فاعتنقا بعضهما البعض ولما رات نور هذا الامر طارت من الفرح فأسرعت ونزلت عن الرابية الى اسفل وتقدمت الى ابيها ورمت بنفسها عليه وقالت سامحني يا ابى فانى خالفت السنة والعدل ولو لم يكن زوجي سيدا كريما وملكا عظيما وملكه أعظم من ملك الهند لما طاوعته على السفر لكن بلاده بغير ملك الآن ويخاف عليها من الأعداء ومن ظلم الحكام إذا علموا بتخليه عنها فتنقسم وتخرب ويكون ذلك مخالفا للانسانية والعدل .

ثم أخبرته بأمر الرؤيا التى رأتها فتعجب وضمها الى صدره وقال لها انى أعذرك يا ابنتى ولم أمل الى صلح زوجك إلا بعد أن عرفت أنه هو بهرام شاه وهو معذور بحبه لملكه ورعيته فكونى معه بهناء وسعادة وانى أتمنى لكما التوفيق فى كل مكان وزمان .

ثم ان ملك الهند طلب الى صهره أن يرجع معه لصرف بضعة أيام اخر فى المدينة فامتنع وأبان له صعوبة الامر وشدة اضطراره إلى الرجوع وحينئذ نزلوا فى تلك الأرض وصرفوا يومهم هناك على السرور والافراح ثم ودع بعضهم البعض فى صباح اليوم الثانى ثم ركب بهرام بجماعته وأركب زوجته بعد أن ودعت أباها وقبلت يديه وقبلها وبكى لفراقها . ومن بعد الوداع رجع الملك وسار بهرام شاه يقصد ايران ولا زال يطوى المراحل حتى قرب من عاصمته وبلغ الخبر وزراءه ورجال دولته فخرجوا لملاقاته وكان يوما عظيما لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم فى

إيرا . فقد فرح الكبير والصغير وزينت المدينة وقامت الزينات ورفعت الأعلام والرايات وتوالت المسرات احتفالا ببهرام شاه المحبوب من الكبير والصغير ودخل المدينة بذلك المشهد العظيم وذهب توا إلى عرشه وقد أرسل زوجته الجديدة الى قصره وبقى يلاقي الناس ويسلم عليهم حتي المساء وفى المساء ذهب فتفقد زوجاته الثلاث وظل فى الصفاء والحبور عدة أيام الى أن خلا بنفسه فجلس يفكر في الصورة التى رآها فى قصر الخورنق فقال لقد قسم لى ربى الزواج بالسبع بنات وأن أستولى على أربع ممالك وها أنا الآن حصلت على أربع منهن فمن الواجب على ان أرسل الرسل والسفراء فى طلب الزوجات الثلاث الباقيات فاستحضرهن إلى ويوفق لي الزمان وتتم نعم العزيز الرحمن وفى الحال كتب ثلاثة كتب وأرسل واحدا منها الى سلطان المغرب والثاني بعثه الى حاكم خوارزم والثالث أرسله الى ملك الصقالبة يطلب الى كل واحد منهم أن يرسل اليه ابنته مع الجزية والخراج وقد لين لهم الكلام وحسن لهم الامتثال والطاعة ومزية مصاهرته فسارت الرسل بالكتب ولم تكن الا مدة يسيرة حتى وصل السفراء الى الجهات التي قصدوها وقابلهم الملوك بالترحيب والاكرام لأن كل ملك من الملوك المذكورين كان قد سمع بصيت بهرام شاه وفعاله وكيف أذل الأسود وقهر الملوك ودانت له رقابهم وتزوج بناتهم فلم يسعهم الا مرضاته فجهزوا بناتهم فى الحال وأرسلوا معهن التحف الثمينة والهدايا العظيمة والأموال الوفيرة فلما وصل الجميع اليه وحصلوا بين يديه فرح لذلك بهرام شاه فرحا لا مزيد عليه وشكر الله على تمام مراده وجعل ذلك اليوم عيدا يقتصر فيه هو ورعيته على الصلاة وترتفع فيه الأصوات الي الله بالشكر والحمد والتسبيح لأنه أعطي مملكة ايران فى ذلك الآن مالم يعطها فى سالف الازمان .

ثم أولم الولائم وأقام الأفراح مدة عشرين يوما على التمام وفى نهايتها دخل على زوجاته كل واحدة فى ليلة وقد حظي بحسنهن وجمالهن وبلغ منهن ما كان يتمناه ومضت الشهور والايام وهو على ذلك الشان . ثم صار يخرج كجارى عادته وينظر فى مصالح الشعب وينصف المظلوم من الظالم وفى تلك الاثناء أرسل فاستدعى البنائين والمهندسين وأهل الخبرة وأمرهم أن يبنوا القصور لباقي نسائه وأن يكون كل قصر أعظم من الخورنق وأبهى ويكون فرشه وأثاثه من الصين والهند وبلاد اليونان وفى مدة ثلاث سنين انتهى كل ما طلبه الملك ودبره

الوزراء وكان الفرش على حسب مشتهى نسائه وكذلك لون البناء لأن كل واحدة كانت ترغب فى لون خاص وزخرفة وهو لا يخالفهن فى كل ما يطلبن ويكرمهن غاية الاكرام وبعد أن تم البناء والفرش عين لكل قصر جماعة من الخدم والحشم والحراسة والطباخين والمغنيات والموسيقين حتى كان كل قصر جنة فيحاء حاوية لكل أسباب الحظ والانشراح والصفاء والهناء وقد دعى القصور السبعة على أسماء الكواكب السبعة السيارة المشهورة فدعى القصر الاسود باسم كيوان وكانت أعمدته من العود والقوقلى حتى أن روائحه العطرية كانت تشم على بعد ساعة منه والثانى كان بلون الصندل وقد سماه المشترى وكذلك كانت روائح ذاك الخشب القائم عليها تعطر الارجاء . والثالث كان أحمر اللون وقد سماه المريخ وكانت تنبعث منه روائح الورد الزكى مما يسكر النفوس . والرابع كان أصفر الشكل وقد سماه الشمس . والخامس أبيض اللون وقد سماه الزهرة والسادس أزرق اللون من حجر الفيروز وسماه عطارد . والسابع أخضر اللون وقد دعاه القمر وهكذا كانت السبعة قصور بهجة للناظرين وفتنة لعيون المتفرجين لم يبن مثلها قط على وجه البسيطة وقد تعين لكل واحدة من زوجات بهرام شاه ملابس على لون القصر الموجودة فيه أى على اللون الذى أحبته .

وبعد أن تم كل عمل وتفرجت الناس على القصور وكمل ما كان يقصده بهرام شاه وغاية مراده نقل زوجاته إلى القصور ونقل جواريهن وقهرماناتهن وكل ما يتعلق بهن معهن وكان يحبهن بنسبة واحدة لا يميل لواحدة أكثر من الثانية ولا يرفع قدر واحدة على الاخرى وقد جعل لهن الحظ كاملا والسعادة تامة والهناء متواصلا فكن يسررن به ويفرحن به أكثر من سروره هو بهن وفرحه لهن وكن يتعشقنه كاله معبود وكلما طالت الايام زدن فى الحب والتعشق له وزاد هو فى الاكرام والاهتمام بشؤنهن .

وبعد أن استقرت كل واحدة منهن فى قصرها اعتاد بهرام شاه أن يزور كل ليلة واحدة فى القصور الجديدة وقد فرض على كل واحدة منهن أن تقص عليه فى اليوم الأول الذى يدخل فيه قصرها حكاية غريبة .

فلما كان اليوم الأول ذهب بالأبهة والاجلال إلى القصر الاول وهو (كيوان) قصر نور بنت ملك الهند وكان قصرها أسود اللون وأثاثه من الحرير الاسود وكل مافيه أسود لانها كانت تحب ذاك اللون . وقد لبست الملابس السوداء

فاشدة بياضها كانت كالبدر تحت ستار الاعتكار يجلو الدياجى ببهاء الاشعة والانوار وما دخل بهرام شاه فناء القصر حتى تقدمت تميل كغصن البان هزته ريح الصبا يحيط بها جواريها من كل فتاكة فتانة وبين يديها المغنيات والمنشدات ينشدن نشيد التأهيل والاستقبال وكلهن بالملابس السوداء على ماتقدم وحينئذ وقفت الملكة أمام بهرام شاه ورحبت به وأنشدته :

ولم أقصد سواد الدار إلا لعهدى أن ببيضها بهاكا
وهان إن الديار وما عليها أضاءت شيدى ببهاسناكا

ثم أخذته من يده وأدخلته غرفة الاستراحة وبين أيديهما الشموع الكافورية تضىء وتنبعث منها الروائح العطرية يحملها الجوارى والولدان كأنهم من حور الجنان . وبعد أن استراح دخلت به غرفة المدام وكانت قد صفت فيها القنانى والاقداح ووضعت الرياحين وأنواع النقول والمكسرات وجلس المطربات فى مجالسهن ووقفت الولدان يحملن الكؤوس الذهبية المرصعة بأثمن الجواهر والاحجار الكريمة وبعد أن غرقا فى بحر من السرور والافراح وشربا ماطاب لهما من الشراب حتى انتشيا استأذنت نور من بهرام شاه أن يسمح لها بأن تقص عليه حكاية عجيبة غريبة فسر لذلك وقال هات قصتك وتمى أنسى بعذوبة لفظك المطربة وحديثك العذب فأجابت بالسمع والطاعة فقالت .

الحكاية الأولى

ان هذه الحكاية التى أرويها لك الآن قد سمعتها من والدتى ولم تزل راسخة فى فكري عالقة فى ذهنى منذ صغري حتى الآن قالت والدتى إنه فيما مضى كانت امرأة ضعيفة البنية زاهدة عابدة تكثر من المجىء إلى بيتنا وكانت تلبس على الدوام من رأسها إلى قدمها ثيابا سوداء ولم يكن عليها قط لون آخر ماعداه على جسمها ومع أننا كنا ننصح لها كثيرا بترك هذا اللون القاتم فى الثياب فانها لم تكن تصغى أو تنقاد لكلامنا ولذلك تاقت أنفسنا إلى الوقوف على الحقيقة فقلنا لابد لذلك اللباس من سبب فالتمسنا منها مرات عديدة أن تطلعنا على السبب فامتنعت فى الاول كثيرا ولكن لما رأت أخيراً شدة الحاحنا عليها أخبرتنا بسبب لبسها السواد فقالت .

انى كنت من جوارى أحد الملوك وكنت أحبه حبا مبرحا وكان كثير الانصاف والعدل يحب الغريب ويكرم الضيف فاذا سمع بغريب جاء إلى المدينة استدعاه إلى قصره وهش فى وجهه وبش وأظهر له من الاكرام والعناية مالا مزيد عليه ويقضى حوائجه مهما كانت ويستطلع منه الحوادث العجيبة والغريبة التى رآها وكان يصرف أوقاته على مثل ذلك .

ففى ذات يوم حكم القضاء بغياب السلطان ولم يقدر أحد أن يعرف أين ذهب وتحت أى سماء اختفى وفتشوا عليه كثيرا وطافوا الجهات والمدن فلم يقفوا له على أثر وحينئذ تولى أكبر الوزراء الوكالة عنه إدارة الملك وأخذ فى تعاطى الاحكام والاهتمام بأمر العباد . ولم يمر على ذلك سنتان حتي رجع الملك من بعد غيبته الي تخت سلطنته ولكنه كان يلبس السواد من رأسه إلى قدمه ولم يعد يعلو جسمه قط لون آخر ولم يقدر أحد أن يسأله عن سبب ذلك وكان دائما يحب اللون الاسود وينعطف إليه بكليته ولكن وجهه كانت تعلوه دائما علائم الحزن والملل وتبدو عليه آثار الغم والسقم والتفكير مع أنه كان قبل غيابه عاكفا على الانس والصفاء ميالا للسرور والنساء بشوشا ضحوكا فأصبح من بعد رجوعه مغموما مكدرا عبوسا حتى أنه كان لا يبتسم إلا نادرا وأحيانا كان يتأوه ويتحسر ويذرف من عينيه الدموع كالمطر المدرار ومرت عليه مدة مديدة وهو علي هذا الحال وكنت أنا مختصة بخدمته وكان هو يحبني للغاية لانني كنت أسليه فى كل وقت وكان يسر من كلامى سرورا لا مزيد عليه و [illegible] لى معه نوع من الحرية أكثر من الجميع

ففي ذات يوم اغتنمت الفرصة فى وقت خلوته وانفردت به ولم يكن معنا أحد مطلقا من الرعية والحاشية ، ففي الحال رميت بنفسي على قدميه أقبلهما وتجاسرت وسألته في تضرع واستكانة أرجوه أن يتفضل على ويخبرنى عن المكان الذي كان غائبا فيه وعن السبب الذى حمله على لبس السواد ولما رأى ذلى وتضرعى أظهر فى أول الأمر حدة وقال لى ماذا يهمك لا شيء يوجب السؤال قد انقضى الامر وفات . أما أنا فلم أعدل عن السؤال بل رفعت ذيله إلى رأسي وقلت له اما أن تقتلنى واما أن تخلصني من الهوس الذى بي والافكار السوداوية التى انتابتني بسبب غيبتك وحزنك ولبسك السواد وعند ذلك دب العطف والحنان في قلب الملك فلم يقدر أن يخفي ما استكن في قلبه من الحب لى

بل قال لى وإن كانت حكايتى مما لا يحكي لكن سأخبرك بها لتعلمي ماهو السبب فى اختيارى اللون الاسود ولماذا أنا فى حزن وكدر وأخذ يقص على أمره فقال .

إنك تعلمين أنى كنت محبا للغرباء والضيوف ميالا الى الوقوف على غرائب الدنيا راغبا إلى استطلاع عجائبها فكلما أضفت مسافرا أو غريبا سألته عما يعلم من الحوادث فيقص على مارآه ومر عليه ففي ذات يوم بينما كنت جالسا فى أحد شبابيك القصر أنظر فى الذاهب والآيب وقعت عينى على درويش يلبس ثيابا سوداء ويغطي نفسه بكساء أسود من رأسه الى قدمه فاهتممت لذلك وتأثرت كثيرا وقلت فى نفسي عجبا لماذا هو متستر بالسواد الى هذه الدرجة .

وفى الحال أمرت باحضاره فاقتادوه إلى وأحضروه بين يدى فهششت فى وجهه وأظهرت له الاعتناء والالتفات ومن بعد اكرامه والانعام عليه سألته عن سبب لبسه السواد فلما سمع كلامى علاه الحزن والاسف وارتمى الى الارض وقال لي ياسيدى إذا قتلتنى الآن فلا يمكن أن أخبرك بالسبب ولو أنك قطعتنى اربا اربا وألقيت جسمي فى النار الملتهبة فلا يمكن لى أن أبوح بهذا السر لكن لاجل انعامك على واكرامك لى والتفاتك الزائد الذى أظهرته نحوي أظهر لك اشارة طفيفة فى هذا المعني هذا اذا بقيت مصرا على الاطلاع على سبب لبسى هذه الثياب السوداء

ولما رأيت الدرويش مصرا على انكار سبب لبسه السواد وشاهدت حرصه على الكتمان وحذره واجتنابه الاباحة بالسر زادنى الشوق الى الوقوف على الحقيقة فقلت له هات ما تقدر أن تقوله ولو كان طفيفا عسى يبرد غلتي أو يشفى مرامى فلما رأى الدرويش الحاحى عليه واصرارى على معرفة السر أخذ يتبسط فى الكلام ويقول بكل حشمة وأدب :

لايخفي على جلالتكم أنه يوجد فى بلاد الصين مدينة جميلة معمورة مزينة بانواع البنايات الشاهقة والحدائق الزاهرة وتسمى هذه المدينة باسم (مدينة العجائب) وجميع أهلها رجالا ونساء يلبسون السواد كما ألبس لا فرق بين طفل رضيع أو شيخ هرم أو طفلة شابة أو عجوز مسنة اذا دخل غريب الى تلك المدينة يخرج منها بالرداء الاسود واذا دخل مسرورا خرج حزينا .

وحتي القمر إذا اشرق فى هذه المدينة غشيته سحب سوداء داكنة فحجبت

ضياءه فيها عن الناظرين فان ارغمتني على ان اخبرك بتفصيل عن ذلك فان لساني لايطيعني وقلبي لايطيق البوح بذلك السر العجيب وها عنقي ان شئت ضربه بسيفك فاقتلني وان شئت فأعفني عن هذا السؤال يا ملك الزمان

ولما وصل الدرويش في كلامه الى هذا الحد اشتعلت بي نار الرغبة للاطلاع على سر هذا الامر وبعد أن أطرقت الي الارض مقدار ساعة وأنا أفكر قائلا في نفسي ياللعجب ما الذى أصنعه للوقوف علي حقيقة السر .

ثم عدت الى الدرويش فقلت له يا هذا لقد أشغلت بالي وحرمتني الراحة والهدوء فلا تبخل بالاجابة على طلبي ومهما شئت مني فاني أعطيك فاذا سألتني أن أستوزرك فعلت أو شئت ولاية العهد فهي لك ولا أكذب في ذلك وأقسم لك به وكل ما أريده منك هو بيان السبب في لبسك السواد .

فقال الدرويش انني يامولاي لا حاجه بي الى سلطانك وان الدروشة في نظري أفضل من الملك وهذا الستار الاسود الذى تراه على هو نعمة عظمى ومنة كبري في عيني .

ثم ان الدرويش نهض في الحال ثم أثنى علي ودعا لي وخرج يهرول طالبا عرض الطريق غير ملتفت الى ما وراءه ، وأما أنا فكنت غارقا في بحار الافكار ولم أنتبه إلى خروجه بل كنت أفكر في وسيلة أجبره بها على البوح بسر مدينة العجائب التي حدثني عنها وقد اعتراني ذهول عجيب إذا ذاك فلم أكد أنتبه إلى نفسي وأعود إلى صوابي حتي رأيت الدرويش قد غاب عني وبحثت عنه في كل مكان فلم أعلم له خبرا ولم أقف له على أثر فزاد هيامي وتبلبلت أفكاري واشتد تعلقي بتلك المدينة والوقوف علي أسرارها وأصبحت كالمجنون لا أعرف ماذا أقول ولا ماذا أعمل فأخذت في تسلية نفسي بالابتعاد عن التفكير وطرد الاوهام عنها فلم أقدر بل كان الأمر يعظم علي ويكبر وسألت الشيوخ من وزرائي عن اسم تلك المدينة فلم يفدني عنها أحد ومرت على عدة أيام وأنا على مثل تلك الحال حتي اسودت الدنيا في عيني وهان لدي كل صعب فلم أر دواء لمصابي ولا شفاء لما لحق بي إلا ترك سلطاني وملكي والسياحة في الاقطار والسفر إلى بلاد الصين عساي أن أصل إلي تلك المدينة أو أقف فيها علي ما يشفي به ألمي وتبرد به غلتي .

في ذات يوم غيرت ملابسي وتزييت بزي التجار وأخذت ما يزيد عن كفايتي من المال والجواهر وأخذت خمسة من خدمي الامناء وخرجت من المدينة تحت أستار الظلام وجعلت بلاد الصين وجهتي فهي محط آمالي وجعلت أطوف المدن والقرى وكلما دخلت مدينة سألت أهلها ممن يعول عليه في حوادث الايام عن اسم تلك المدينة ومحل وجودها فكانوا يجيبونني بأنهم ما رأوا تلك المدينة ولا سمعوا باسمها ولذلك كنت أفارق هذه وأقصد غيرها فأصادف نفس ما صادفته فيها حتى طفت مدنا كثيرة ومع ذلك لم أكل ولم أمل بل بقيت مصرا على عزمي لكني كنت أندم أحيانا على تصرفي وذلك بسبب ما نالني من التعب والمشقة وطورا أرى نفسي كأنني غائب عن الوجود أو كأنني في رؤيا منامية لأن تعبي وحزني كان بالغا بحيث لا يتصوره عقل انسان وقد بقيت ملازما التنقل وأنا أصادف أشد أنواع المحن وأقع في كارثة تتلوها كارثة ومحنة تتلوها محنة حتى صرت قريبا من بلاد الصين وكنت في كل بلد دخلته أظهر بهيئة التجار العظام فأصادف من الاكرام والاحترام الشيء الكثير إلى أن دخلت أرض الصين فلم يكن لي شيء أسأل عنه وأبدي اهتمامي به إلا سؤالي عن مدينة العجائب التي يلبس أهلها السواد فكان البعض يجيب بأني لا أعلمه والبعض يقول لي هي في الناحية الفلانية وعند ذلك عادت الى نفسي بعض الطمأنينة وتوقعت خيرا وترجح لدي أنني سأصل الى طلبي وأنال غرضي وبقيت أتقدم في سفري الى الجهة التي أشير علي بها وأنا لا أنقطع عن السؤال والاستفسار عن تلك الديار حتى مضى على نحو من ستة أشهر وصلت في منتهاها الى مدينة العجائب فدخلتها بفرح عظيم ونشاط وابتهاج وفي الحقيقة أني وجدتها كما أشار الدرويش مزخرفة البنيان جميلة الدور عامرة القصور وسيعة الميادين كثيرة البساتين كأنها قطعة من جنة عدن أو من مدائن ارم ذات العماد التي بناها شداد بن عاد غير انني شاهدت جميع أهاليها بالثياب السوداء لا لون عليهم غير السواد فتجدد في عند ذلك الشوق والهيام واشتاقت نفسي الى معرفة السر في ذلك وجعلت أطوف في شوارعها بقصد الفرجة وبقصد الوقوف على غايتي فانتهيت الى فندق معد للمسافرين فأدخلت اليه أمتعتي وأحمالي وخدمي وبقيت فيه تلك الليلة لم أخرج منه حبا في الراحة مما نالني من التعب العظيم والضرر الجسيم .

وفي اليوم الثاني خرجت من الفندق وطفت في الاسواق وما زلت أنتقل من

جهة الى أخرى حتى وافى المساء ولم أوفق للعثور على من يدلنى على طلبي وعند المساء عدت الى الفندق وأنا تائه العقل فاقد الشعور والحس أقول لنفسى ما العمل يا ترى ومن أسأل عن هذا الحال وبعد التفكر لم أر أوفق من أن أقيم فى تلك المدينة وأجعل نفسى تاجرا وأدوام البحث ولا بد أن يرزقنى الله بمن يكشف لى عن سر هذه المدينة الغامضة .

وفي صباح اليوم التالى نزلت الى السوق فاستأجرت مخزنا نقلت اليه مايلزم للتجارة ولبثت فى مهنة التجارة مقدار شهرين تقريبا وأنا أسأل واستقصي عن السواد وسبب لبسه فكان كل من أسأله يجيبني بقوله لا أعلم وقد زاد لهذا الامر قلقي وهوسي وخلق في رغبة شديدة للاطلاع على ما أتيت من أجله وهل يمكن بعد أن وصلت المدينة وعانيت من أصناف التعب والعناء ما عانيت ولاسيما وقد أوشكت آمالى أن تتحقق ان أرجع بالخيبة وكنت متيقنا أنه اذا لم أدرك السر الذى أطلبه فاننى أموت لا محالة ومع ذلك فانني لازمت البحث لعلمى أن فرج الله قريب وأن عاقبة الصبر الظفر بالمأمول وبقيت نحو ستة أشهر أخرى أخرج فى الصباح وأقول فى نفسى عساى اليوم أقف على ما أتيت من أجله فلا يأتى المساء حتى أعود بخفي حنين حتى ضاق صدري وبلغت روحى التراق . وكنت فى هذه المدة قد اصطحبت مع رجل جزار وجعلت أزيد له في الاكرام والمؤانسة من يوم الى يوم ، وكان هذا الجزار فهيما عاقلا للغاية .

فلما رأى اكرامي والتفاتي الزائد نحوه رغب فى محبتي ومودتى ومرت على صداقتنا هذه مدة أربعة أشهر أيضا وأنا مع احترامي له ورغبتى فيه أبذل له فى كل يوم الدرهم والدينار ومع ذلك تجلدت ولم أسأله حرصا من أن يمتنع على قبل أن استأثره بالانعام وأغرقه فى العطايا مؤملا أن يسألنى هو عما اذا كان من حاجة لى فيقضيها مقابلة لجميلى واذ ذاك آخذ عليه العهد والميثاق وأسأله عما أريد وأستخدمه فى قضاء هذا الامر وكنت حسبما رأيت منه أراه محتفظا بمعروفى مراعيا لودى وقد مال الى وتمكن حبي من قلبه لأنه أصبح صاحب ثروة وافرة ونعمة جسيمة وكل ذلك من مالي الذى كنت أعطيه له .

ففي ذات يوم وبينما أنا غارق فى بحار الافكار أرجع بذاكرتى الى المصاعب والحوادث التى مرت بى منذ التقيت بذلك الدرويش وأقول يا ألله لقد سد باب الأمل فى وجهى فيارب العالمين لقد أخفيت حكمتك عن عبدك ولكن عبدك

لا يقنط من رحمتك فقد نزلت عن ملكي وتركت عرشي وعظمتي ولاقيت المصائب والمصاعب حتى وصلت هذه المدينة كل ذلك بارادتك وعنايتك فقدني الى معرفة ما أنا راغب فيه فأنت الحكيم العليم .

وفيما أنا على ذلك واذا بالجزار يظهر لى من بعيد ، وكنت وأنا مقيم فى مخزنى كالجاسوس أراقب الذاهب والآيب من بعيد .

فلما رأيته التي فى روعى انه آت ليسألنى عن هذا الامر الذى جئت لأجله وما لبث ان قرب مني فقمت من مكانى وقلت له خيرا ان شاء الله فلابد من سبب لمجيئك فى مثل هذه الاوقات . فقال لى عفوا ياسيدي انى على الدوام كثير الخجل منكم لأنى قد صرت بعنايتكم وكرمكم غنيا مكرما وانه ليسرنى ان اقدم لكم بعض خدماتى التي مهما كثرت فانها قليلة بالنسبة لما غمرتمونى به من انعامكم وقد اتيت ايضا لأقدم لكم شكرى وامتنانى من ذلك . فقلت له عفوا انى حتى الساعة لم اقم بحق ما تطلبه واجبات الصداقة والاخاء وأرى نفسى مقصرا فى حقك وعاجزا عما أريد ان أخصك به فزاد فى الشكر ثم قال لى اذا أردت ان تشرفنى فى هذا المساء فى بيتى تكون قد غمرتنى بلطف اراه أعظم منة تقدم منك الى .

وحالما سمعت كلامه سررت فى نفسى ولم أنس ان الله سبحانه وتعالى قدرحم ذلى وقبل دعائى وحرك قلبه نحوى لهذه المصادفة وتردد فى خاطرى أنى متى وجدت فى بيته ودار بيننا الحديث سألته عن غايتى ومن المقرر أنه لا يرد لى طلبي فاما ان يخبرنى به واما ان يهدينى الى من يخبرنى به ولذلك قلت له لا بأس من ذلك فاذا لم يكن كلفة عليك اغتنمت فرصة الاجتماع فى الوقت الذى تأمر به

فقال أستغفر الله ياسيدى ان محل عبدكم أقيم من بعض أنعامكم فاذا شئت أن تشرف محلك فاسمح به بأقرب وقت واذا تلطفت وتكرمت فليكن الآن

وفى الحال نهضت فأقفلت باب المخزن وعزمت على المسير مع الجزار الى بيته ولكى أقدم له هدية مرضية فى بيته وضعت بعض أقمشة من الحرير العالى وبعض جواهر ذات قيمة ومقدار من الذهب ووضعت ذلك فى صرة من الديباج حملها أحد خدمي وسار خلفي حتي وصلنا بيت الجزار وكان بيتا لطيفا معدا للصفاء والأنس وحالما رآنى خدمه وجواريه خفوا لاستقبالي من قبل الدخول الى الباب وأكثروا من الترحاب والشكر والخدمة وهم يرددون كلمة يا ولى نعمتنا . وكنت أجيب أستغفر الله أستغفر الله مظهرا لهم الالتفات والعناية .

ولما دخلنا الباب صعدنا سلما عاليا وانتهينا عند رأس السلم الى فناء واسع ومنه الى غرفة مزخرفة منقوشة بالنقوش البهية . وقد ألح على الجزار فى الجلوس على سرير قائم فى وسط الغرفة فتقدمت وجلست فوقه أما الجزار فوقف فى خدمتى بين يدي فألححت عليه كثيرا ليجلس فامتنع فما كان مني الا أن أخذت بيده وأجلسته الى جانبي وكان الخدم أيضا يطوفون حوالينا بكل حشمة وأدب وقد ملت بكليتى لسماع كل كلمة تصدر من الجزار مؤملا أن الحديث يجر الى أن يخبرنى من تلقاء نفسه عن سر لبسهم السواد .

وفى تلك الأثناء حضر الطعام فقمنا إليه وأكلت وهو إلى جانبي وبعد أن فرغنا من الطعام عدنا إلي مجاذبة الكلام والسمر ومطارحة الأحاديث والتفكه بالأخبار والنوادر وأنا أقول في نفسي أأسأله أم لا فاذا سألته فهل يصدقني أم يخفى على الحقيقة وحينئذ قدمت له البقجة التى سبق أن أعددتها معى وقدمت إليه مافيها من الأقمشة النفيسة والجواهر بعد أن اعتذرت إليه واعترفت لديه بتقصيرى فى حقه ورجوته قبولها وإذذاك قال لى ياسيدى بما أن الألفة والصداقة قد تمكنت بيننا وقد نالنى كثير من إنعامك وإكرامك من دون أن أعرف داعيا لذلك وانه لا يمكن للانسان أن يسمح لآخر بمثل هذه المقادير العظيمة من الأموال بدون سبب الآن فليس لى بد من أن أعيد اليك جميع الأشياء التى قدمتها الى وأنعمت بها على إن لم تخبرنى بحاجتك واذا كان لك حاجة أو مصلحة فأنا مستعد لقضائها لك .

وعندما سمعت كلام الجزار قلت له ان ماقدمته لك هو شيء قليل جدا بالنسبة لما أريد أن أقدمه لك وانى ماقدمت اليك ذلك الا لما رأيته فيك من الاخلاص ونوسمته من الوقار وهو لا يذكر فى جنب ما أعطانيه الله من المال والتحف فان أموالي كثيرة لا يخاف عليها من الضياع أو النقصان أوما أنا ممن اذا وهب يسترجع والشيء الذى أريده منك هو أن تخلصني من الأرق الحاصل لى فاذا فعلت ضاعفت امتنانى منك وأصبح لك على الجميل الذي لا يكافأ وبذلك تزيد محبتك فى قلبي الى مائة ضعف

ولما سمع كلامى قال لى مر ياسيدى بما تهوى وأخبرنى عن سبب أرقك فسأبذل المستطاع فى خلاصك منه وعندما رأيت من الجزار الاهتمام بأمرى والتهيء لقضاء مصلحتى مع مارأيته فيه من الاخلاص والوفاء والمحبة لم أستطع أن أخفي عنه نفسى وقلت له اعلم ياهذا أنى ملك بلاد الهند وقد نشأت على حب الفقراء والغرباء

فكنت على الدوام أعتبر الغرباء الذين يأتون بلادي وأكرمهم بما يزيد عن الحد ففي ذات يوم جاء إلى بلدي درويش يرتدي ثيابا سوداء فتعجبت منه . وبعد أن قدمت له من الانعام والاكرام ما يكفيه سألته عن سبب لبسه ذاك الرداء الأسود فلم يجبني وبعد الرجاء والالحاح قدرت أن أحصل منه على أن سبب ذلك هو زيارته لمدينتكم المسماة مدينة العجائب ثم تركني وانصرف فزاد هيامي وأرقي للوقوف على الحقيقة ومنذ تلك الساعة لم تعد لي راحة في الأكل والشرب والنوم ولم أر وسيلة للتخلص من الهم والوسواس الذي أنا فيه الا ترك مملكتي والتخلي عن عرش سلطنتي والمسير بنفسي للتفتيش على ما يطيب به خاطري فأخذت في الطواف في المدن والبلدان وأكثرت من البحث والتنقيب حتى وصلت الى هذا المكان . وقد مكثت في هذه المدينة مدة طويلة وأنا أبحث وأنقب وأسأل من أصادفه من الناس دون أن أحصل على نتيجة يشفي بها مرضي أو أقضي بها غرضي ولما كانت الالفة بيننا قد تمكنت الى هذا الحد قلت في نفسي لابد أن أعرف ما أنا في أرق لأجله وكل ما أريده منك هو أن تخبرني عن السبب الذي حمل أهل مدينتكم جميعا على أن يرتدوا بالسواد ويفضلوه على غيره من الألوان فلابد لهذا الامر العجيب من سبب .

فلما سمع كلامي أخذته في الاول رعدة ثم أطرق برهة يفكر وأنا أنظر اليه وقد أخذ اليأس والقنوط يدب في نفسي وترجح عندي الفشل والخيبة وبعد أن اطرق نحو ساعة تقريبا رفع رأسه وقال لي ان ما تسألنيه امر لا يمكنني التكلم فيه ولكن حيث قد ألقيت اتكالك علي وغمرتني بكرمك ونعمك وصار لك علي حقوق وود ووفاء فالذي ترغب الوقوف عليه اعدك بصدق ان اطلعك عليه في مساء الغد .

فلما سمعت كلمة مساء الغد زاد هيامي ورغبتي وغرقت في لجج الافكار وبحار الظنون وقلت في نفسي ما معنى قوله مساء الغد أتراه يريد أن يغشني ويتخلص من سؤالي . ولكنه لما رآني على تلك الحالة أدرك بقوة ذكائه ما يخطر في ذهني فقال لي تظن أني أغشك أو أقصد إبعادك لأتخلص مما ترغبه مني فاني اعاهدك عهد الامين الصادق اني في مساء الغد اطلعك على الخبر اليقين .

اما انا فلم ار اوفق من التأني والموافقة اذ لا وسيلة للاستطلاع منه على حقيقة ما أنا في طلبه الا بالرجاء والاكرام وقد لاح لي من كلامه وجه الصدق فانتقلنا

الى حديث آخر ومنه الى آخر حتى تنصف الليل فخرجت من بيت القصاب وجئت الخان وانطرحت على فراشي والارق يقعدني ويقيمني وجعلت أتقلب والافكار تتوارد علي والاوهام تعظم في عيني فانقضي الليل ولم يأخذني نوم كأني ارى دقائقه اياما وساعاته اشهرا ولما لاح الصباح نهضت من فراشي وأتيت مخزني وجلست في مكاني ارقا متفكرا في هل يأتي مساء ذاك اليوم وانا حي ام انه ان يأتي لطول ما لحقني من الفكر والارق والتعب النفساني والجسماني وقلت هل يصدق القصاب في قوله الغد ويأتيني ام يكون قد تخلص مني ودفعني عنه بالتي هي احسن وما برحت أتقلب على جمر الافكار حتي ارسل الليل طلائعه واخذ يسود شيئا فشيئا الى ان نشر رواقه على البسيطة ولم يأتني القصاب فزاد حزني فأقفلت مخزني واتيت الخان وانا في غاية اليأس والكدر وقد ثبت عندي انه غشني وكذب علي والا لكان اتاني في آخر النهار وذهب بي ورافقني الى الخان واطلعني على صحة قوله كما وعد وتعهد ولم اذق طعاما في ذاك المساء ولا قر لي قرار ولا هدا لي بال .

وفيما انا علي ذلك وقد مر نحو ساعتين من الليل واذا بالباب يفتح والقصاب يدخل منه وما وقعت عيني عليه حتى قفزت من مكاني واستقبلته بكمال الفرح وأريته مكانا اعددته ليجلس فيه الى جانبي . فقال كلا لا اجلس بل تفضل لنذهب فأوقفك على حقيقة ما انت طالب واظهر لك جلية الامر فقمت من مكاني وخرجت من الخان وسار امامي وانا في اثره حتى خرجنا من المدينة وسرنا في الصحراء كل هذا وانا متحير من ذلك لااعلم الى اين يصير بي وقد يئست من الحياة وقلت في نفسي مهما جرى يجري فاما ان اموت اوافرج ضيق صدري وازيل ما لحق بي من الهم والغم وكان يتوارد علي في لحظة واحدة مئات من الافكار المقلقة المزعجة وبعد ان سرنا قليلا وصلنا الي دكة قائمة في الوسط فوقف القصاب عند الدكة والتفت الي وقال لي هلم فأسرعت واذا بصندوق معلق من اعلاه لكن كيف تعلق وبماذا لا اعلم فقال لي القصاب ادخل حالا في هذا الصندوق فلم اخالفه ودخلت لارى النتيجة فجلست فيه واذا به خف بالصعود واخذ يرتفع بخفة الريح وانا فيه وقد اندهشت جدا وغبت عن الوجود من عظم ما لحق بي من الخوف ولبثت مدة ساعة ثم فتحت عيني واذا بالنهار قد اقبل ولم يزل الصندوق محمولا على اجنحة الهواء مسرعا بالصعود الي فوق وحينئذ نظرت

إلى وجه البسيطة لأرى مقدار ارتفاعى عنها فلم أر منها شيئا بل رأيتها أشبه شيء بالدخان الكثيف ، وقد تألمت كثيرا من شدة حرارة الشمس وأخذ رأسى يلتهب كلما ارتفعت الى فوق واخذت ألوم نفسى وأقول العفو يا ربي ما هذه الحال وما هذا البلاء الذي وقع على رأسي فياليتنى لم آت تلك الديار . ترىهل القصاب غشنى وقصد هلاكي فلعن الله ذلك الدرويش ولعن الساعة التي رأيته فيها أما الآن فكيف العمل ولم يعد فى اليد حيلة ولم أعلم الى اين ينتهى الصعود بى ولم أر من وسيلة الا التوكل على الله والالتجاء اليه وهذا اوجدفى بعضا من الراحة والرجاء .

ولم يزل الصندوق على حاله من الصعود حتى تنصف النهار ومن ثم أخذ يهوى نازلا إلى الاسفل وإن كنت قدلاقيت فى ذلك العذاب الشديد من الفزع والخوف الذى ما عليه من مزيد لكنى تأكدت أن لا بد من وصوله واستقراره على اليابسة ولذلك تهيأت وتحفزت حتى إذا قربت من الارض خرجت بأسرع ما يمكننى لأتخلص من الخطر المحيق بى وقد تيقنت أنه مهما كانت حالتي على وجه الارض خطرة فهى أخف بكثير من الحالة التي أنا فيها الآن طائرا فى الفضاء بين الارض والسماء فوق ذلك الصندوق المسحور . ولم يمر على الصندوق فى نزوله أكثر من ساعتين حتى قرب من منارة كبيرة واسعة كأنها جبل عال متسع ولعظم ارتفاعها لم تظهر الارض منها تماما بل كانت كدخان أبيض وحالما قرب الصندوق من تلك المنارة قفزت منه وارتميت بسرعة عليها ظنا منى أنى تخلصت من البلاء وما استقرت رجلاى عليها حتى غاب الصندوق عن نظرى . وأما أنا فبقيت على المنارة وكان قد مرَّ علىَّ ليل ونهار لم أذق فيهما طعاما ولا شرابا وقد لحق بى كثير من العذاب والخوف واليأس وقطعت الرجاء من نفسى وشعرت بكل ذلك فى تلك الساعة .

وبعد أن مر على ساعة هدأ فيها بالي نوعا ما وأخذ الصمم الذى عم أذنى ينفرج شيئا فشيئا وإذ ذاك جعلت أفكر فى النزول عن تلك المنارة العالية ولكن بعد البحث والتأمل وجدت أن ذلك مستحيل لعدم وجود طريق يوصلنى إلى الاسفل مع ارتفاعها الغريب العجيب وإذا خاطرت بنفسي وقصدت الزحف عليها وقعت بلا شك ومزقتنى الرياح قبل أن أصل إلى الارض وقد أعاد هذا

التفكير الخوف والرعب الى نفسى فعلمت أني وقعت فى بلاء جديد أعظم من البلاء الأول . ولم أعد أتجاسر على النظر إلى أسفل وقد تحقق لدى أن لا خلاص لى من هذه المنارة وعظم على الامر واشتد الجوع والعطش ولم أكن أعلم أين كان هذا العذاب مخبأ لي ولماذا بلانى الله به ورماني فيه مع أنى كنت براحة وهناء فى بلادى وعلى عرش ملكي وحينئذ لم أتمالك نفسي فأخذت فى البكاء وانسكب الدمع من عينى كالغدران ، وأخيراً ركعت وصليت لله وسألته أن يفرج عنى هـذا الكرب إذا كان في الاجل تأخير وبقيت مدة اذكر اسم الله ولا أفتر عن التسبيح وطلب المعونة منه

وفيما أنا على ذلك وأنا أسمع صوتا كصوت الرعد القاصف وقد أخذ يشتد ويعظم كلما دنا مني فعرانى من الخوف والرعب أمر عظيم واستهدفت لوقوع كارثة جديدة وكاد يغمى علي من شدة ما لحق بى من الاضطراب مع ما انا فيه من الجوع والعطش واليأس وبقيت نحو ساعة زمانية وأنا كالغائب عن الوجود ثم وعيت إلي نفسي وإذا بطائر عظيم ما رأيت ولا سمعت بمثله كأنه المركب فوق المنارة جعل يرفرف بأجنحته على المنارة ثم ما لبث أن وقف فى الناحية التى أنا فيها وشعرت بالمنارة قد اهتزت من ثقله فان كلا من جناحيه يشبه شراع المركب الكبيرة ورجلاه أكبر من صوارى المركب ولما رأيته زاد بي الخوف والرعب وأخذت اهتز كاهتزاز اوراق الاشجار عند اشتداد الرياح وخطر لى أنه سيلتهمنى اول ما تستقر قدماه وإن كنت لا أكفى لقمة فى ركن من فمه الكبير وايقنت انه على كل حال لا يتخلى عنى وأنا غنيمة باردة بين يديه . ولم أر سبيلا للخلاص الا بعنايته تعالى فرجعت الى الصلاة والعبادة طالبا منه أن يخلصنى من هذه النكبة الجديدة التي توهمت فيها القضاء على وجعلت أشتم القصاص وألومه على خيانته لى وقد ظننت انه ساحر ماكر فعل ذلك طمعا فى مالى ومتاعى ولبثت مدة على ذلك والطير ينظر الى ويعرض عني كأنى لم أخطر له ببال وهذا جعلنى اطمئن على حياتى ولو قليلا من جهة الطائر ولكن كيف يطمئن بالي والجوع والعطش قد انتابانى وكدت أهلك ولا أمل لى بالخلاص

وفيما أنا على ذلك قلت فى نفسى ماذا يا ترى لو تعلقت برجلى هـذا الطائر فحملنى الى ارض او برية او جبل مرتفع اذ لابد له من الطيران ومن الوقوف

فى مكان آخر ولكني ترددت وقلت فى نفسى كلا كلا فانى اذا فعلت ذلك فانه سيلتهمنى فى الحال فكأنى أقدم نفسي ضحية له .

ثم فكرت فى أنى اذا بقيت هنا فسأهلك لا محالة فان عاقبة الموت بالجوع والعطش وهذا أقبح الميتات وأخيراً صممت على أن اتعلق برجلى الطائر فاذا كان فى الاجل تأخير سلمت ووصلت الى العمار واذا كان الاجل قد دنا فخير لي ان يأكلنى الطير واموت بسرعة البرق من ان اموت معذبا بالجوع والعطش . فصليت لله وطلبت منه المعونة والمساعدة ووقفت بين رجلي الطير أنتظر الدقيقة التي يتحرك فيها فأقبض عليهما بيدى الاثنين واترك نفسي لمشيئة الرحمن فيفعل الله أمرا كان مقدورا .

ومرت على ليلة وأنا يقظان خائف وحالما بزغ الصبح تحرك الطير وخرج منه صوت أشبه شيء بالرعد فكادت آذانى ان تصم من شدته ثم تهيأ للطيران وفى الحال سألت الله المعونة والنصرة والتصقت برجليه قابضا على كل واحدة منهما بيد فكأنه لم يعبأ بى ولا شعر بتعلقي به بل نشر جناحيه فى الهواء وقصد الجو الاعلى وأنا فى حالة خوف ورعب ولكنى تجلدت وصبرت وساعدتنى يد العناية على الثبات فى مركزي الى وقت الظهر فبعد ان كان آخذا في الصعود عاد الى الهبوط شيئا فشيئا وبعد ساعات قليلة قرب من الارض ففي الحال تركت رجليه ورميت نفسى عليها وقد غبت عن الوجود برهة ثم فتحت عيني واذا بى كأنى فى جنة النعيم إذ رأيت موضعا واسعا جدا مزينا بالرياض والنباتات وكل أنواع الصفاء فشكرت الله تعالى على منته . ولبثت نحو ساعتين وأنا متحير مبهوت .

ثم نهضت من مكانى واقتطفت الأثمار الناضجة عن أشجارها فأكلت حتي اكتفيت ولم أذق فى طول عمرى فاكهة منتهية لذيذة مثل تلك وهذا أيضا استوجب الشكر والثناء للخالق جل جلاله وفكرت فى كل مامضى على من العقاب والتعب فقلت فى نفسى يا للعجب ما هذا أسحر أم حلم قد مر على مخيلتي وقد شربت من نهر ماء صاف كان يمر بجانب المكان الذى وقعت فيه فكأن مياهه من العسل الشهد . ولبثت جالسا فى مكانى لأنى من التعب لم أقدر على التجول والتوغل فى تلك النواحى حتي أقبل الليل وانتشر الظلام فنمت في ظل شجرة ثم استيقظت ظنا منى انه وقع على بلاء جديد فرأيت نفسي كما نمت وصرفت

ليلتى على تلك الحالة . ولما لاح الصباح شكرت الله تعالي وأخذت فى التجول والطواف فى تلك الاطراف . وفى الحقيقة أن تلك الارض كانت تشبه الجنة فكانت مغطاة بالاشجار والازهار المتنوعة التى تجلو الهم وتجلب الصفاء والسرور وجميع تلك الجهات مخضرة بالنباتات ومبيضة بالزهور حتى أنه يصعب على الانسان المشى فوقها لئلا يشوه جمال مناظرها بأقدامه وكان بها طيور متنوعة تقف على أغصان الاشجار وكل واحد منهـا يرنم بصوت رخيم يشجى المسامع ويشنف الآذان . وفي كل طرف من ذاك المكان كانت عيون الماء تجرى صافية كالفضة البيضاء أو البـلور الشفاف وفى داخلها أنواع النقوش المبهجة منقوشة بيد ذى القدرة والجـلال . والاسماك فيها ما بين ذاهب وآت صفوفا صفوفا بترتيب ونظام أشبه شيء بالجيش ولا ريب أن الانسان كلما نظر اليها بامعان فيها زاد اندهاشه وحظه منها وعلي الخصوص أن النسيم كان يهب لطيفا فيحمل من أعطار تلك الازهار ما يجلي به الصدر وتنعم به الافـكار فكنت بعد أن لاقيت مالاقيت من المحن والشقاء وابتليت به من الجوع والعطش أرى نفسى بوقوعى على تلك الارض فى سعادة عظمي أشكر عليها الله العلى العظيم ومع اننى قد تخلصت من التعب صادفت الراحة ودفعت ألم الجوع بتلك الأثمار الشهية وشرحت صدرى بالطواف في تلك الجنة الارضية فما كنت أخلو من التفكر والهم بل كنت أقول فى نفسي عجباً ماذا يصيبني بعد . نعم انى تركت سلطنتى ومملكتى ولحق بى مالم يلحق بغيرى من المحن المتواترة ثم وقعت فى هذا المـكان الجميل البديع فمن أين للدهر أن يبقي على حالة وهو أبو العجائب فلا بد له من العقلب ولابد انه يحسدنى على هنائى فيبدله بعناء ولعظم فرحي كنت لا أصدق أن مدة الصفاء والانس تدوم فطفت فى أطراف ذاك المـكان متنقلا من محل آخر وأنا كمن يتوقع مصابا جديدا حتى أقبل المساء فأكلت من لذيذ الثمر وشربت من صافى الماء وشكرت الله تعالي وحسن الحظ . كان القمر فى ليلة تمامه فبزغ فى مبتدإ الافق وأنار على تلك الخميلة الواسعة بنور محياه البديع وهذه الحالة زادت فى سرورى وأنسي فان تلك المناظر كانت تلوح لعينى تحت نور القمر الوضاء مبهجة مدهشـة والنسيم اللطيف يحمل من أطيب الروائح وقد تلطف بنور القمر عما كان عليه فى حرارة الشمس فجلست أتأمل فى عجائب الطبيعة وأفكر فى بدائع الخالق حتي مر على وأنا علي ذلك مقدار ساعتـين تقريبا وإذ ذاك هب على النسيم يحمل روائح

أطياب جديدة تحيي العليل و تشفي المصدور ثم ظهرت فى الافق غيمة بيضاء كالثلج ومع أنها مرت تحت القمر لم تحجبه لعظم بياضها وهي تقرب شيئا فشيئا ثم أخذت تتقطع قطعا صغيرة جدا و تتساقط إلى الارض شيئا فشيئا كالمطر المتساقط كل هذا و أنا متحير من ذلك محدق بناظرى الى الافق حتى انجلت الغيمة ولم يبق لها أثر . وفيما أنا غارق فى حيرتى وذهولي وقد مر علىّ بعد تساقط قطع الغيمة عشر دقائق تقريبا رأيت ألافا من الانوار مقبلة من مسافة غير بعيدة كأنها نجوم السماء أبت أن تبقى فى مراكزها فاختارت تلك الروضة الغناء سكناً لها فتساقطت متسابقة اليها .

أما أنا فقد عرانى الخوف والارتباك عندما رأيت ذلك وقلت فى نفسي عجبا ما هذه الانوار وجعلت أدقق فيها جيدا حتي قربت مني ففي الحال أسرعت الى دوحة عظيمة اختفيت بين أغصانها أتوقع البلاء الجديد الذى يساق الى . ولما دنت الانوار وصارت ظاهرة للعيان أجلت نظرى فيما بينها فرأيت نحوا من أربعمائة أو خمسمائة فتاة لانظير لهن في الحسن والجمال وفى أيديهن شمعدانات من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر وقد تقدمن بترتيب وتدبير صفا صفاً الى أن وصلن إلي منتصف ذلك المكان . ولا تسل عن حالتى فى ذاك الوقت فقد تصورت أنى كنت أقول الجنة فى هذا المكان وأن هؤلاء الحسان هن الحور وحينئذ أخذن يضحكن ويمزحن وهن يطفن فى تلك الساعة وكن قد أحضرن علي اكتافهن الفرش الفاخرة فأخذن أوسع بقعة فى تلك الخميلة وبسطوه على اختلاف أنواعه فيها ثم وضعن سريرا كان محمولا على أكتاف ثمانية منهن مجوهر القوائم منقوشا بأبدع نقش وأعجبه ثم وقفن بترتيب وفى أيديهن شموع من الكافور موقدة كأنهن ينتظرن أحداً . وقد أنستنى هذه الحالة النزهة وانشراح الصدر الذي لاقيته فى أول يومى وذهلت وتحيرت مما أرى وأسمع ومن موقع المكان ومن هاته البدور وكيف وصلت اليه بعد الشقاء والضني والتعب وفيما أنا مشغول بالتفكير فى كل ذلك وإذا بأنوار عظيمة قد ظهرت من الجهة التي أقبل الجواري منها وكانت الانوار مقبلة لجهتى ، وحالما شاهدت هذه الحالة زاد بى الخوف فقصدت الاختفاء وفى الحال صعدت على الشجرة واختفيت بين أغصانها وأرسلت بنظرى الى الامام واذا بى أرى فتيات على نفس الهيئة الاولى غير أن البنات الآتيات كن أبهى حسنا وجمالا وأكثر اشراقا من الاوائل وفى وسطهن فتاة

بديعة الجمال باهرة المحاسن لم تر عيني أجمل ولا أبهى منها وكانت كلما قربت مني يزيد وجهها بهاء واشراقا وتؤثر محاسنها فى قلبي حتى أنى لم أعد قادراً على الثبات فى مكانى فكدت أقع من الشجرة إلى الارض من عظم ما وقع بى من تأثير ذاك المحيا الوضاح ، ولما شاهدت الخطر المحدق بى أمسكت جيداً بأغصان الشجرة خوفا من الوقوع بينما تقدمت الفتاة يحيط بها الجوارى حتى قربت من المكان الموجود فيه فلاقتها الجوارى الاوائل ومشى الجميع بين أيديها وخلفها ومن جانبيها فكانت كالبدر التمام محاطا بالنجوم المشرقة .

ولما قربت من السرير المنصوب تقدم نحوها أربع من الجوارى الباهرات الحسن فرفعنها من تحت إبطيها الى السرير فجلست عليه وجلس بعض الجوارى عن جانبيها وأدركت أنهن المقدمات عندها ووقفت بقية الجوارى بين يديها صفوفا وأعينهن محدقة بها كأنهن ينتظرن أوامرها ، وبعد أن أطرقت إلى الارض بضعة دقائق مفكرة رفعت رأسها وقالت لواحدة من الجوارى أسمع صوتا فوقي وأشعر بأنه يوجد هنا شخص غريب فاذهبي وفتشي جيداً ومتى وجدته فأتنى به حالا ، فلما سمعت كلامها ارتجفت بشدة وقلت فى نفسي سبحان الله من أين علمت انى موجود هنا وإذا كنت موجودا هنا فماذا تقصد أن تفعل بى لا ريب انها تقصد بى شراً لاطلاعى على حالهن وكلهن فتيات وليس بينهم ذكر وجعلت أذم الزمان وألومه على غدره وقلة وفائه .

وبينما أنا أفكر وأخاف كانت تلك الجارية تبحث من شجرة الى ثانية حتى وقفت تحت الشجرة التي أنا فيها فجعلت تطوف من حولها حتى وقعت عينها على فقالت لى أى ضيفنا العزيز تكرم بالنزول الينا فهذا المحل غير لائق بك لا تخف أبدا فأنت ضيف والضيف عندنا عزيز مكرم . فلما سمعت منها هذا الكلام اللطيف والعبارات اللطيفة المؤنسة اطمأن بالى وهدأ روعي وقلت فى نفسى هل زمان الانس قد دنا أو أن هذا حلم وفى الحال نزلت من الشجرة وتقدمت الى الجارية وحييتها بكمال الوفاء والاحترام وأنا أرتجف من القلق والوهم فأخذتني من يدى وقالت لى لماذا ياضيفي العزيز أنت فى اضطراب وخوف هلم فاجلس معنا وقاسمنا الحظ ولا تخف قط ، فقلت لها كلا ياسيدتى فانى لا أرتجف من الخوف بل أرى نفسي غير أهل أن اقترب من تخت بلقيس اللائق بسليمان

وحده فكيف لى أن أثبت فى مكان سليمان عليه السلام ، فقالت أنت مخطئ، ياسيدى فى ظنك ثم أخذت بيدى الى جهة تلك السيدة الفتانة فلم ادرى ماذاأقول وكدت اغيب عن صوابى وتوهمت كأنى أحلم حلما وأنا محاط بهالة من الحسان اللاتي كأنهن حور الجنان ولما صرت تجاه ذلك العرش الجالس عليه ملاك الجمال والكمال رفعت بنفسى على ارجل السرير فصرت أقبله وأدعو للسيدة بطول العمر والبقاء ثم وقفت فى أدنى محل . فلما رات الفتاة منى هذه الحالة إتبسمت تبسم الدلال وفتحت فاها وتكلمت بلفظ لم اسمع اعذب منه فى طول حيانى وقالت لى اهلا وسهلا ومرحبا بك ياضيفى العزيز وحبيبى الفريد لماذا أراك مترددا ومتنكرا هل ياترى لم أعجبك فأخبرنى ولا تخف عنى .

اما أنا فقد احمر وجهي من الخوف والخجل وشعرت كأن عيناى تلتهب واخذ العرق يتصبب من جبهتى وبدات اوصالى ترتجف فلم اقدر على الوقوف فقبلت ثانية اذيال السرير الجالسه عليه وعدت فوقفت فى مكانى وقلت لها ياسيدتى انى غير قادر على الكلام من الاضطراب والخجل وانى ارى نفسى غير اهل لان اقف بين يديك واوجد كعبد فى مجلسك ، فأجابتني برقة مسكرة لا تخجل ولا تضطرب فليس من مقامك ان تقف على الارض فتكرم بالجلوس على السرير معى لنصرف ليلنا بالانس والصفاء فكل مافى المكان هولك وتحت امرك . لقد وقفت علي اسواري واستجليت النظر الى وجهى فاذا كنت لاتريد ان تصرف الوقت علي الانس والحظ والعيش والعشرة كأحباب فكن كأخ لى .

وفى الحقيقة كان مثلي وقد رأى مارأى من العذاب والمشاق وجد فى تلك الجنة وسمع تلك الحورية تتحبب اليه وتسمعه من الكلام الرقيق ما تضيع به الخواطر وتطلب اليه أن يصافيها وتصافيه وينادمها وتنادمه فلا شك يعتقد أنه قد حصل على أعظم نعمة وانتقل إلي أرفع سعادة لكن مع ذلك بقيت مصرا على امتناعي وقلت لها حاشا ياسيدتى لمن كان مثلي ضعيفا غريبا أن يدنو منك وأنت ملكة الحسن والجمال وبدر اللطف والظرف نعم ان نور بهاك وسناء جبينك لا يقاس بهما نور بدر ولا ضياء شمس ومن أين لى الدنو من البدر وهو فى قبة فلك الاشراق فضحكت الفتاة من كلامى وشكرتني وأبدت سرورها منى وقالت لى هلم اجلس إلي جانبي لنتحادث . فامتنعت أيضا وقلت لها كلا كلا ليس

هذا مقامي يا سيدة الملاح وكوكب الصباح . وإذ ذاك أشارت الى إحدى الجوارى فأخذتنى من يدى ورفعتني إلى السرير وأجلستنى الى جانب الصبية وعادت ووقفت فى مكانها . أما الصبية فنهضت واقفه وقبضت على يدي وتبسمت بثغر وضاح وجبين مشرق وقالت لى بلسان يذهل العقول لا تضطرب ولا تقلق ياضيفي الكريم ان هذه فرصة سمح بها الزمان فهى غنيمة نغتنمها الآن فلنتحادث ونتنادم ونقطف ثمرات الصفاء والسرور . أما أنا فقد أصبحت فى تلك الحال كالصنم الجامد وأردت ان أتكلم فعقد لسانى ما انا فيه من الحيرة والاضطراب بل كنت ارتجف كقصبة تحركها الريح حتى انى لم اشعر بشيء من نفسي لشدة الخجل والعرق يتصبب مني .

فلما رأتنى الفتاة على تلك الحالة قالت يظهر لى الآن أنك غير مسرور مني ولم تستحسن مصاحبتي فهاك الجوارى والبنات فاختر لنفسك من شئت منهن والتى تنال الحظوى فى عينيك مباركة عليك فدعها تجلس وإياك واغتنم فرصة الحظ بالتقرب منها . فجرح قلبي كلام الصبية وقلت لها كلا يا سيدتى ياأجمل من رأت عيني وأرفع من فى العالم من انس وجن هل بلغ من قدرى انني لا اسر منك ولا استحسن ان اكون بين يديك وقد مننت علي بهذه السعادة فلو دخلت الجنة لما حصلت على اعظم مما انا فيه الآن لكنني ياسيدتى غير مصدق من نفسى حصولى على هذه النعمة وانا افكر فى سوء الطالع الذي يترجح لى منه أنني في حلم الآن لا فى يقظة . فأجابتنى الصبية لماذا تفكر بأحوالك ومن اين جاءك سوء الطالع هل تحسب ان حصولك على جارية مثلى نوع من سوء الطالع . فقاطعتها وقلت لها معاذ الله يا سيدتى انسوء الطالع الذى لحق بى والذي افكر فيه قد مر وانقضي فقد لاقيت فى اليومين الماضيين من العذاب والجوع والعطش واليأس ما لا يقدر ان يقوم بوصفه قلم فأنا افكر ان كل ذاك العذاب كان مقدمة لهذه النعمة التي لا اعرف كيف يجب ان اتنعم بها واقتطف ثمرات الصفا والانس من رياضها وهاانا يا سيدتى بين يديك وطوع امرك . وبعد ان اثنت على وطيبت خاطرى امرت جواريها فجلسن وحينئذ أخذت اتمالك نفسى واسترد بعض الهدوء والقوة وقلت فى نفسي اغتنم هذه الفرصة فأسرح وامرح فى ذلك النعيم بين هؤلاء الحور ومهماصار فليصر ورفعت عينى وصرت انظر فى وجه الصبية سيدة الكل لكن من من العالم يقدر ان يثبت النظر فى وجهها ولا يخسر عقله وقلبه فى الحال .

(ولما وصل الملك فى حكايته إلى هذا الحد أخذ يتكلم ويبكى ويتأوه ويتحسر) وقد حكت نور بنت ملك الهند لبهرام لهذا الحد من حكايتها وقالت له انى سمعت من والدتى أن صاحبة الثوب الأسود حكت لها أن الملك لما وصل إلى هنا جعل يبكي فبكت هى أيضا .

وكان بهرام شاه مسرورا من هذه الحكاية فأمرها أن تداوم في حكايتها إلى اتمامها . فدعت له وأثنت على عنايته ثم عادت الى تمام الحديث قالت)

ولما وصل الملك فى حكايته لجاريته الي هذا الحد بكى وتنهد وتأوه ومع ذلك لم يتوقف كثيرا عن الرجوع الى حديثه فقال نعم عند ما أفتكر بهاء وجمال هذه الفتاة أغيب عن الوجود وأكاد أخسر عقلي وتنمو في جرائم العشق والغرام التى دخلت فؤادي وقد أخذنا فى المنادمة والمحادثة وعيني لا تنفك عن النظر فى وجهها ولا ترتفع عنها لحظة واحدة وهي مع محادثتها ومؤانستها كانت تظهر لى الحب والالتفات وأنا أقول في نفسى يالعجب أصحيح ما أراه هل أنال وصال هذا الملاك فاذا نلته فكم أكون سعيدا لكنى لا أقدر أن أصدق من أين لي أن تدخل فى يدى مثل هكذا حورية ومن أين لحظى الاسود أن يشرق بنور هذا الاقبال العظيم فما ذلك اليك من جملة عناد الدهر لى فقد أراد أن يشعل فى فؤادى جذوة الغرام ويزيد فى عذابى فألاقي فى هذه المرة أضعاف الاضعاف مما لاقيت أو أنه يريد أن يصفولي كعادته فانه يمرد ويحلو فقد رمانى بمحن لم يبق من بعدها الا الموت والآن أراد التعويض علي بهذه النعمة التي لا تعادل كل نعم العالم دقيقة واحدة من هنائها .

وخلاصة الامر أنى كنت أفكر بخلاف ما أشاهد فكان الصبية قد علمت بما يتردد فى فكرى فأخذت فى المداعبة والملاعبة معى وهى تزيد من دقيقة الى ثانية بهاء وجمالا فى عينى وينمو ويعظم حبها في فؤادى وتتعزز وتثبت آمالى بالحصول علي المأمول من وصالها ولم يمر علينا ساعتان على تلك الحالة حتى أمرت جواريها باحضار الطعام وفى الحال نهض الجورى من أماكنهن وقد احضرن الطعام بسرعة لا يمكن أن يصفها قلم وأتين بسفرة عليها اطباق من الذهب المرصع بالاحجار الكريمة وفى داخلها من الاطعمة اشكال والوان وكانت روائح العطر والعنبر المنبعثة من الأطعمة تشرح الصدور وتجلب السرور وكذلك الاقداح المصفوفة على المائدة كان بعضها من حجر الفيروز وبعضها من

الياقوت الاحمر وبعضها صاف كالبلور الخالص اللون . ومما زاد تعجبي حضور مثل هذه الاطعمة الكثيرة المتنوعة على تلك السفرة البديعة الثمينة بأسرع من صدور الامر يعني أن الجوارى مالبثن أن سمعن الامر حتى أحضرنها في الحال وقد جال في فكرى أن البنات لسن من الانس فان أعمالهن لاتشبه أعمال البشر ولا سيما وأن الجمال الموجود فيهن لايمكن أن يكون موجودا فى البشر مع أن تركيب أجسامهن كتركيب أجسام بنى الانسان ولاسيما السيدة الكبيرة فانها خلقت زينة للناظرين وفتنة للعابدين فيتبارك الله أحسن الخالقين

وبعد أن أحضر البنات السفرة وعليها الطعام المتقدم ذكره أخذت كل واحدة واحدة منهن شمعدانا من الذهب فى يدها وفيها الشموع موقدة تسطع بالند والكافور ووقفن ينتظرن حول المائدة .

أما تلك المحبوبة التي لانظير لها فى مخلوقات الله فانها لما رأت أن سفرة الطعام قد أعدت أخذتنى من يدي وقادتني الى المائدة وأمرتنى أن أجلس واتناول الطعام معها وكنت فى حيرة ودهشة فرأيت من الواجب التردد عن الجلوس معها لكن كنت قد ألفت مصاحبتها وعشرتها فضلا عن أنى كنت متشوقا للطعام حيث لم أذوقه منذ أيام بل أكلت بعضا من الثمار لسد رمقى فجلست فى الحال اذ أن معاملتها لي وتلطفها معى لم يبقيا فى مجالا للخجل فأقبلت على الطعام وأنا اظن نفسي كانى مالك هذا العالم بأسره ولي الحق فى ذلك وكيف لايتصور من كان جالسا على مثل تلك السفرة محاطا ببنات من الجوار اللواتى كأنهن الأقمار بعضهن قائم فى خدمته وبعضهن وقوف بين يديه وبأيديهن الشموع والكاسات وهو جالس إلي جانب ملكة الحسن وآلهة الجمال أنه ملك العالم . بل أن من المحال ان تكون لذة ملك العالم معادلة للذة ذاك الاجتماع .

ولما فرغنا من تناول الطعام بكمال المسرة والصفاء ، أمرت رفيقتى باحضار الأباريق لغسل أيدينا فجاءت بها الجوارى فى الحال فأمرتهن أن يغسلن يدي فى الاول فامتنعت وقلت لها معاذ الله أن أتقدم عليك فى مثل هذا الامر وأنت سيدتى ومالكتى فأجابتني بكلام أرق من النسيم اغسل ياحبيبي فهذه ارادتى ومن المحال أن أغسل قبلك .

ولما رأيت اصرارها مددت يدى إلى الجواري فغسلنها بماء زكي الرائحة ثم نشفنها بمنشفات من الحرير البديع اللون المتقن الصنع وغسلت هي أيضا بعدى

ثم عادت فوضعت يدها فى يدى وذهبت بى إلى السرير فجلسنا عليه وإذ ذاك جلس الجوارى بدورهن على المائدة وأخذن يتناولن الطعام وهن على غاية من المزاح واللعب والانبساط إلى ان فرغن من الطعام ورفعن الاوانى فى الحال ولم يكن لى شغل يشغلنى الا التفكر بنفسي وبتلك السعادة التى وجدت بها ، ثم حضر بعض من البنات وجلسن على كراسى من الذهب حول السرير ومن ثم أحضرت سفرة الشراب وتقدم نحو من خمسة عشر صبية لخدمة الشراب وقد كشفن عن زنودهن الى حد أكتافهن فكانت تضىء وتلمع كالبلور وحملن الاقداح بأيديهن وهن يتمايلن وينعطفن ويبتسمن ويظهرن من أنواع الدلال واللطف مالا يحصره وصف واصف ثم ملأن الاقداح فناولنني فى الاول فشربت ثم ناولن سيدتهن فشربت أيضا ثم عاطين باقي البنات وفيما الشراب دائر علينا أحضرت آلات الطرب من العود والقانون والناى والجنك والدف فتناولت كل واحدة من البنات الجالسات حولنا ما تحسن استعماله من آلات الطرب وجعلن يضربن عليها بفن غريب ثم رفعن أصواتهن بغناء مطرب وأصوات مشجية لم أسمع مثلها طول حياتى ولا أظن أن غيرى من العالم سمع مثل ما سمعت حتي تاه عقلي ولم أعد أعرف ماذا أصنع وصرت أقول هل الملائكة تسبح الخالق بأصوات التهاليل أم أن الله سبحانه وتعالى أودع في صدورهن من النغمات الرقيقة والاصوات المطربة ما حاكين به صوت نبيه داوود عليه السلام ووالله انى لعاجز عن وصف تلك الاصوات الجميلة التى سمعتها من هؤلاء المغنيات الحسان فى تلك الخميلة الكثيرة العجائب وخيلت أنها نغمات موسيقية ملائكية وكنت شديد التأثر من سماع الالحان والاناشيد التى كانت تخرج من أفواه تلك الملائكة وقد هاج بها هيامى وغرامى وظهرت على وجهى علائم الفرح الزائد والانبساط العظيم . ولما رأت فتاتى ما انا فيه من السرور تبسمت وقالت لى بلسان عذب ان شاء الله يكون قد زال عنك العناد ولم يبق عندك شيء من الخوف والخجل .

فأجبتها نعم يا سلوتي وغاية مناى ومؤنستى انى بعنايتك قد حصلت علي الراحة والعادة وارى نفسى في جنة الاقبال وارى حظى تحسن وحياتي ان يتيسر فاسأل الله سبحانه وتعالى ماره دوام السرور والابتهاج فسرت من كلامى واظهرت لى من دلائل الحب والاكرام مارادنى جراءة اذ طوقت عنقى بيديها الناعمتين وكنت لكثرة ماناولتني البنات من الشراب العتيق واسكرنى وافقدنى

صوابى وحدث فى حالة الجنون من تأثير الخمر ومن تلك الاصوات البديعة ومن رقص البنات الجميلات ذوات القدود المائسة والعيون الناعسة وهى كالبدور الساطعة كن ينهضن عشرات عشرات ويرقصن رقصا عجيبا وفوق كل ذلك فان وجنتى رفيقتى قد التهبتا بالاحمرار حتى فاقا الورد لونا ورأيت شفتيها محمرتين فى لون القرمز وعينيها الواسعتين وأهدابهـا التي كالسهم الصائب ومهما بالغت فى وصفها فأنا عاجز ولاسيما وانى في تلك الساعة لم أكن مالـكا عقلى ولا مستطيعا ضبط نفسى فدفعني العشق الفاضح الذى ألم بى الى تقبيـل فتاتى وتطويق عنقها فقبلتها فى خدها فلما سكتت ولم تبد ممانعة لاح لى أنها مسرورة منى وذلك لم يبق حدا لجرأتى وحربتي فلم أقنع بقبـلة واحدة ولا باثنتين ولا بعشرة ولا بمائة بل قبلتها فى خديها وشفتيها أكثر من ألف قبـلة وربما أكثر من ألفين ولا أنكر اني فى كل قبلة كنت أشعر بلذة غريبة لا أنساها مدى العمر .

ولما رأيت ان أمدي مع الفتاة وصل الى هذا الحد غبت عن رشدى وفقدت صبرى ولم أعد أعرف كيف اتصرف فمددت يدي الى صدرها وأتوقع أن ألمس نهدين كأنهما رمانتين ناهدتين أو حقين من عاج أو لجين فغبت عن وعي لأننى شعرت أن يدى لمست جسما ناعما إلى حد أن لا يوجد ماهو فى نعومتها فيـا لله ... ... وياللفتاه .... نعم أتأسف .... ماذا أقول .... وصلت لأرفع حال من السعادة والحظ عندما لعبت يدى بنهديها وعندما قدمت شفتي منهما وأخذت أقبلهما واستنشق ما ينبعث عنهما من عبير الروائح العطرية الزكية التي تنعش الصدور وتبعث الموتى من القبور . وكنت فى المرة بعد الثانية أضع شفتى على حلمة الثدى فأمتصه مصا لطيفا حلوا ثم رفعت عينى وأنا في تلك الحالة الى وجه الصبية فوجدتهـا تحدق فى بثغر باسم يفتر عن الدر المنضود وشاهدت احمرار تلك الخدود التي وصفتها سابقا فتركت النهود وعدت الي تقبيل الخدود حتى وصل بى العشق الي الدرجة الاخيرة وحملتنى القمة إلى ماوراء ذلك لاني كنت أرى منها قبولا وسرورا فى كل مافعلته وأري كأن سرورها ناتج عن لذة تعادل اللذة التي كنت أشعر بها وقلت فى نفسي لقد كان من الصعب أول الأمر أن اقرب منها واما الآن وقد تجاوزت الحد فى كل شيء فلم يبق من الصعب أن تمنع عنى ماأطلبه وأريده لاطفاء تلك النار الملتهبة بين جوانحى ولعلها هى ترغب فى ذلك ولما قوى على العشق واشتد بى الوله تطرفت شيئا فشيئا فابتدأت بتقبيل خديها

ثم شفتيها ثم قبلت عنقها ومرغت وجهى على صدرها ثم اخفيت رأسي بين نهديها وأرسلت يدى الى المكان المطلوب مندفعا بتلك الشهوة الحيوانية ولم أع بماذا كنت أشعر باعضاء بشرية أم ببقجة من الديباج محشوة بالقطن المندوف فحينئذ دفعتنى الصبية بلطف وتبسمت تبسم الكرامة واللطف وقالت مهلا ياضيفي العزيز وأنيسي المحبوب فكن قانعا بالمداعبة والملاعبه والضم والتقبيل فى هذه الليلة لا يمكن لى أن أسمح لك بنوال الوصال . فاذا كنت تحبنى وترغب فى أن تكون مصاحبا ومرافقا لى على الدوام لا تكن قليل الوفاء ولا تخالف كلامى فاذا كنت ذا صبر وقادر علي التحمل والتأنى فستنال وصالي وتحصل علي ما خطر لك واذا كنت قد وصلت الي حالة لا تقدر فيها على الصبر والتحمل فهاك البنات فكلهن في درجة علياء من الحسن والجمال فاختر لنفسك من تحلو فى عينيك واصرف ليلك معها وأنا أبيح لك الى حين حلول الوقت الذى فيه أبيحك وصالي أن تختار من شيت من البنات فهن بين يديك وطوع أمرك ثم انها التفتت الى احدى البنات وكانت أبهى من الشمس والقمر واشارت اليها برأسها فدنت منى تتمايل كغصن البان وتبسم عن ثغر كالأقحوان اما انا فلم أعد قادرا علي الكلام عندما رأيت امتناعها وسمعت منها هذا الكلام وقد لصق لسانى بفمى وجمدت كالصنم الي أن دنت الصبية التي اختارتها لى واخذتنى من يدى فلم امتنع فنزلت عن السرير وقد شعرت كأنى اخرجت من الجنة وسأذهب الى الجحيم وسرت خلف الفتاة تقودني وقد نظرت اليها إذ ذاك فوجدتها لا تنقطع عن التبسم والغنج وهي تنعطف على وتداعبنى وكان قد احتاط بنا بعض البنات ومشوا أمامنا وفي اثناء الطريق كن يجتهدن لاستجلاب خاطرى ورضاي حيث كان عقلى وفكرى وروحى وكلى بأجمعى عند سيدتهن .

وما زلنا نتقدم حتي وصلنا من صيوان منصوب فى تلك الجهة وكان الصيوان بديعا منقوشا بأنواع النقوش التى لم ار في حياتى مثلها وقد جلس حول جهاته الاربع مئات من الجوارى الحسان يمزحن ويلعبن فلما رأيننى نهضن جميعهن وقوفا على اقدامهن وتقدمن لاستقبالى وفى الاول صف منهن يحملن على ايديهن شمعدانات من الذهب المرصع بأفخر حجارة كريمة وفيها الشموع موقدة ولما وصلن إلى سلمن على أما انا فعجبت من هذه الحال وقد رأيت البنات يلبسن افخر الثياب وانفسها وعليهن من الحلى والجواهر ما يبهر الناظر وقلت فى نفسى أليس كل

هؤلاء أتباع الصبية التي كنت عندها وكم يا ترى من الجوارى فى خدمتها وبين يديها مع أن كل واحدة من تلك الألوف من البنات كانت كافية لأن تسبي عقل أعظم عابد وأفضل زاهد وفى الحقيقة فقد كن برتبتهن نخبة ممتازة من الجمال والكمال وهذا كان يزيد فى حيرتى وقد اختلط بينهن البنات اللاتي أتين بى ولما دخلت الصيوان انبهر عقلي وزاد اندهاشي من حسن ما رأيت فيه من الفرش الفاخر الذى لا نظير له ومن الاوانى الذهبية المرصعة وعلى الاخص من السرير وما عليه الجواهر والحجارة الكريمة وكنت حين دخلت من الباب تقدمت منى البنت التى جاءت بى إلى السرير وأنا على تلك الحيرة فجلست عليه وجلست الى جانبي ووقفت الجوارى صفوفاً حولنا ينتظرن الامر منا وحينئذ كنت أعجب من أمري ومن الحالة التى أنا فيها ومن تعجبي هذا كنت متحيرا ومع تحيرى كنت تائها وفى حالة جنونية وعلى الخصوص لما أمعنت النظر فى الصبية التي الى جانبي وتأملت محاسنها وأوصافها وهى لا تختلف فى شيء عن محاسن وأوصاف الصبية التى كنت أجالسها وأداعبها وحرت فى نفسي بالعجب هل أن فتاتى التى أحببتها هي هذه وقد غيرت ثيابها لتمتحنني وجعلت أدقق النظر في وجهها وأمعن فيه لأحقق الخبر اليقين مع أنى كنت كمن ينظر الى القمر بعد نظره فى الشمس والذى لاح لى أخيرا أن هذه الصبية فتانة بديعة المحاسن ليس لجمالها مثال لكن لم تكن فى درجة تعادل فتاتى التى أحببتها . ومع أن قلبي كان مولعا بتلك وعقلي مشتغلا بها لم أجد بدا من الانعطاف اليها فكنت ألاعبها وأداعبها وأبتسم لها فكانت أيضا تحادثنى بلطيف كلامها وما أظهرته لى من الحب والعشق فكانت تعانقنى المرة بعد الثانية فأقبلها وتقبلنى حتى ملت اليها كل الميل واشتد بى الوله والوجد فأشرت الى البنات أن يخرجن جميعا فخرجن فى الحال ولم يبق داخل الصيوان الا أنا والصبية واذ ذاك نهضت الصبية فأحضرت الشراب وناولتني من يدها فشربت وشربت وعانقتنى وعانقتها ثم نزعت عنها ثيابها وجلست الى جانبي ووضعت الشراب أمامها وصرت أشرب وأعانق وأقبل وأرشف وأمتص حتى بلغ السيل الزبى ودارت الخمرة في رأسي من جديد وغبت عن الوجود وفى الحال نزعت ثيابى وضممتها الى والتصقت بها التصاق اللام بالالف وأزلت بكارتها وصرفت باقى ليلي معها بلذة لم أذق مثلها طول عمرى وحاصل الامر أنى نمت مع الصبية حتى الصباح وكان جسمها أطرى وأنعم من الحرير

ورائحتها أزكى من الند والعنبر وقد ذممت الليل على سرعة رحيله وتمنيت لو أنه دام وعند انبثاق الفجر نهضت الفتاة قبلي فجعلت تفرك يدى ورجلي وتروح لي ونهضت أنا أيضا ولما رأتني جالسا عادت فعانقتني وعانقتها وأخذنا بالمداعبة والملاعبة كالسابق ولما بان نور النهار جيدا أخذتني من يدي فأوقفتني وألبستني ثيابي بيديها وقادتني الى خارج الصيوان واذا بصيوان آخر محاذى للذى كنا فيه فدخلناه وقد تهيأ فيه الحمام بتمامه أى الماء الحامي والطاسات المرصعة بالماس وكل الاوانى من الذهب المرصع والصابون الذكي الرائحة فنزعت عنى ثيابي وأخذت الصابون والماء وبدأت تغسل فى جسمى وأنا في نعيم زائد حتي فرغت وبعد ذلك أحضرت لى ثوبا ملوكيا فألبستنيه ولبست ثيابها ووضعت يدي فى يدها وخرجنا من الحمام الى الصيوان الذى كنا فيه أولا فأجلستنى فيه وسقتنى كأسا من الشراب المنعش ثم تركتنى وذهبت لتغتسل بدورها .

وأما أنا فبعد أن جلست وحدى قليلا نهضت وقصدت الخروج من الصيوان وذهبت الى تلك الحدائق والخمائل القريبة مني وأنا أفتكر فى نفسى وأقول عجبا يا ربى ماهذه الاحوال اذا كانت رؤيا فأنا لست نائما واذا كانت سحرا فما من دليل على ذلك فامنن على يا رب بأن أبقى طول العمر فى هذا المكان على هذه الحالة ولكن سهل لى الوصول الى نوال المراد من تلك الصبية ملكة البنات وزينتهن .

وبعد أن طفت نحوا من عشرة دقائق عدت الى الصيوان وفى ظنى أن الفتاة تكون قد فرغت من الاستحمام وعادت اليه ولكن واأسفاه فانى لم أر صيوانا ولا فتاة ولا أثرا لكل ما هناك فخففت الى الجهة الثانية حيث كنت فى أول الليل فلم أر أحدا ولا رأيت بنانا ولا سريرا ولا فتاة ولم أر غير الاشجار والأثمار التى كنت رأيتها أول وقوعى فى تلك الارض فلحقنى اليأس والحزن وجعلت أبكي كما تبكي الاطفال وقد مر على ساعات وأنا على تلك الحالة .

ثم قمت من مكانى وأخذت أطوف فى تلك الارض كالمجانين وأناجى نفسي قائلا أين يا ترى أجدهن والى أى مكان ذهبن وهل يا ترى يسمح الزمان فأشاهد تلك الصبية التى أحبها قلبي وأسرت لبي وتركتنى صريعا لا حراك لى وكلما لاح شخصها أمامي بكيت وذرفت الدمع مرارا ومضى أكثر النهار ولم أذق طعاما ولا مددت يدى الى ثمرة وأخيرا انتهيت الى شجرة كبيرة ممتدة الأغصان

فجلست تحتها وكان التعب قد أوهنني والنعاس تغلب على لأني لم أنم فى الليل الماضي فارتميت فى الارض حزينا كئيبا عاشقا مؤلعا تعبا جائعا وفى الحال علا غطيطي ولم أعد أعي على شيء ولا أرى شيئا ولكنى كنت أحلم بمن أحببتها وقد زارني شخصها فانعطفت عليه وأخذت أقبلها وأنا غارق فى بحر طام من اللذة والفرح .

ولما استيقظت وجدت نفسى منفرداً فتكدرت وحزنت وكانت الشمس قد قاربت الغروب فقمت من مكانى وقلت فى نفسى ربما كانت عادة البنات أن يذهبن فى الصباح ويأتين في المساء فمن اللازم أن أرجع إلى مكاني الأول قبل أن يقبل الظلام فأسرعت العودة حتي وصلت إلى مكان الماء فغسلت يدى ووجهي ورأسى ورجلى فشعرت ببعض الراحة وشكرت الله تعالي وجلست أنتظر الوقت الذى كانوا قد جاءوا به فى الليلة الماضية وكانت الدقائق تمر على أطول من السنين والأعوام ولما كان الوقت شعرت كاليوم السابق بنسيم خفيف لطيف ثم رأيت غيمة بيضاء فى الأفق وقد أخذت تقترب وتمتد وتنبعث عنها الروائح العطرية . وحينئذ تيقنت من إتيانهن فصفقت من الفرح وكدت أطير وتصورت فى ذهنى للحال ماسيكون لى من الحظ والانشراح فى هذه الليلة فحسبت نفسى كأنى قد ملكت الدنيا برمتها .

وأما البنات فبدأن بالورود أفواجا أفواجا كما فعلن فى اليوم السابق وأخذن فى الفرش والبسط وتهيئة المكان وبعد أن فرغن من عملهن هذا نصبن السرير فى الوسط ووقفن ينتظرن سيدتهن وإذا بالمشاعل قد ظهرت من بعيد وسطعت أنوارها في تلك الضواحى فبدأ قلبي يخفق وأملي بالسعادة يتحقق واصطف البنات علي الجانبين ثم وصلت سيدتهن وجلست علي السرير وأخذت كل واحدة من البنات مكانها كاليوم السابق وأخذ بعضهن فى الجلوس حول السرير والبعض فى الخدمة والبعض يحملن الشموع ولما انتظم مجلسهن اقتربت من السرير غير هائب ولا خائف لأن اقبال الصبية على ومؤانستها لى فى الليلة الماضية قوى قلبي وجرأني علي ذلك . وما رآنى البنات حتي نهضن جميعهن وقوفا وتقدمن لاستقبالى وكذلك السيدة الباهرة فانها نزلت عن سريرها وأخذتنى من يدي ورفعتني إلى جانبها . وكنت أشعر من نفسى مع ما أنا حاصل عليه من الاكرام والاحتفال بى بضيق صدر وانقباض نفس لسبب انفصالها عنى فى اليوم الأول

وبعدها عني مدة ساعات مع انها عاملتني فى هذه الليلة بأكثر مما عاملتني به فى الليلة الماضية من اللطف والمؤانسة والتحبب . وقالت ان شاء الله تكون قد سررت فى ليلتك الماضية ثم دعت البنت التي قضيت ليلتي معها وقالت لها انظري ان ضيفي الكريم لم يكن مسرورا من مبيته معك أمس فما هو السبب ؟ .

فلما سمعت البنت كلامها بهتت وتغيرت حالتها واصفر وجهها من الخوف ثم احمر من الخجل وكادت تختنق وأخذت ترتعد وترتعش . فلما رأيت ما حل بها من الخوف والرعب تأثرت كثيراً فقد أدركت الأمر فقلت للسيدة كلا يا سيدتي ومالكتي فقد سررت جدا منها وبت فى حظ وانشراح صدر عظيمين ولذا تريني ممنونا للغاية .

فلما سمعت كلامي قهقهت ضحكا وقالت لى ما دمت تشكر لها وتظهر الامتنان منها فقد عفوت عنها ثم ضحكت أيضا وكل منا ناظر في وجه الآخر وكانت وهي تضحك من شفتين رقيقتين مرجانيتين بهما صفان محبوكان بانتظام وترتيب كاللؤلؤ فى أسلاك من الفضة وأخذ عقلي فى الضياع والانشغال وقد فهمت أن ضحكها من الفتاة كان لسبب ما وقع بيننا فى الليل الفائت ، وقد عادت بحالة الخجل والحياء الى مكانها أما أنا فلم أعبأ بذلك بل كان همي وشغلي معشوقتي والنظر اليها والاهتمام بما أناله من السرور والحظ بها ومعها وقد عدمت الصبر وخانني الجلد فكدت أقع من مكاني ، وفى تلك الأثناء أحضر الطعام فأخذتني من يدي وأجلستني على المائدة الي جانبها وبعد أن فرغنا من الطعام وعدنا الى السرير بدأنا بالمصاحبة والمداعبة .

وأما البنات فبعضهن أخذن آلات الغناء فضربن عليها وهن يغنين بالأصوات الرخيمة التى تفتن العباد فى المحاريب وبعضهن قمن للرقص وهن كاشفات عن سيقان كأغصان البان الى حد أكعافهن وكاشفات أيضا صدورهن إلى تحت نهودهن فكانت الأنوار تنبعث مما بان من أجسامهن الصافية الشفافة وبعضهن كاشفات أيضا عن زنودهن البلورية وبأيديهن الشراب يطفن به وما زلت فى عالم التيوهان وأنا على تلك الحالة الى أن تنتصف الليل فوضع المغنيات من أيديهن الآلات وكذلك الراقصات جلسن للراحة بعد أن أبدين من أنواع الرقص العجيب المبدع .

وفى الحال أبدت لهن الصبية اشارة فقمن جميعا وابتعدن عنا وصرن يتمشين

فى ناحية اخرى ، فكدت أطير من الفرح والسرور لظني أن الفتاة أبعدت البنات لتخلو بى ويصفو لى بها الزمان وما ظننت فقط بل تأكدت لأنى اغتنمت فرصة تلك الخلوة فضممتها فى الحال وأخذت أقبلها وأضع فمي على شفتيها الورديتين فأمتص منهما أشهى من العسل وألذ من جني النحل فلا أعلم أعسلا كنت أمتص أم سكرا حلوا لذيذا أم شيئا آخر لا أدري كنهه ولا أعرف وصفه إذ لم يكن قد جاد على الزمان بما يشبهه أو يقرب منه وكنت أعيــد الكرة بعد الكرة والمرة بعد المرة ثم أقبلها فى كل أقسام وجهها فى عيونها وجبينها وأنفها وحاجبيها وخديها وشفتيها وفمها وعنقها وصدرها . . . ولا أعلم أين . . . وقد عدمت الصبر والجلد و . . . . . لم يبق لى صبر . . . وان كان أحد يدعى الصبر فليجرب فقد وجدت معها على خلوة وتركت لي نفسها ولم تمانع فى العناق أو التقبيل وكل أنواع الدغدعة والمداعبة . . . فهل ياترى لا تطلب نفسى الغاية التى بعد ذلك ولا تطمع فى النهاية . ومن يلمنى ويقول لى اصبر أوتأن فهو عدوى أو متعصب على . أو يكون قلبه قد قد من صخر أصم أو هو جاهل لا يعرف العشق ولا حالاته .

وأما الرجل الذى يشــفق على ويعذرنى فيكون منصفا عالما بحال الحب واجتماع الأحباء ، ومع ذلك فأيا ما كان حجرا أو صخرا أو حديدا فلن يقدر أن يصبر أكثر مما صبرت ولو اجتمع بتلك الفتاة الباهرة الأوصاف أزهد الزاهدين وخلا بها أعظم العابدين لافتتن بجمالها ووقع أسيرا في شباكها ولم يتحمل الصبر عن وصالها كما صبرت ولكن أخيرا عجزت عن الصبر ولم يعد فى قوتي احتمال ولا جلد فمات الى ما يميل اليه كل بشر بعد أن سكرت من خمرة الحب وحركتنى كثرة الضم والتقبيل الى أن أمد يدى الى ماتحت السراويل .

أنما الوصــل للمحبة شاف مثل ماء يصب فوق الحريق

ولما رأت الفتاة أننى عدمت الصبر ووصلت الى الدرجة الأخيرة من المداعبة والهيمان تبسمت في وجهي بعد أن أمسكت يدى وقالت صبرا يا حبيبي لا تكن عجولا بهذا المقدار فاذا كنت لا تصبر تندم فيما بعد فالتأنى لازم فى كل شيء أما أنا فلم ألتفت الى كلامها بل قلت لها أواه ياعيونى وحياتى ونور قلبي هيهات أن أقدر على الصبر لا والله .

كيف اصطبارى والهوى فى أضلعى يسرى فما منــه مكان قد خلا

مع أن من أحببته أحظي به فمشاهدا ومعانقا ومقبلا

أواه يا حبيبتي كيف العمل ليس الأمر في يدي فانك بدر ساطع وغصن يانع بل ملاك لامع وأطوارك وأخلاقك ألذ من المن والسلوى فتداعبيني وتلاعبيني وتخلين لي المكان ولا تمنعيني من الضم والتقبيل والعناق والارتشاف ولو طال بي المدى وامتد بى الأمد ولما تلتهب نار فؤادى ويشتد بى الوجد تمانعين وتطلبين إلى الصبر .

لو قلت للقلب صبرا فى محبتها لما أطاع فان الصبر يضنيني

ويلى إذا لم أنل ممن سحرت بها وصلا من السقم يشفيني ويحييني

فاكراما لمجد الله ارحميني أشفقي على لا تظلميني فانى فى حالة يأس فخلصيني برقة قلبك من هذا العذاب الذى وقعت فيه فلم يبق لى صبر ولا جلد أو فاقتليني الآن لأن روحى فى يديك وماذا يجري لو سمحت لى بوصلك يا روحى ومنيتى فلماذا هذا التمنع وهذا الظلم .

فلم تتأثر الفتاة أصلا بل تبسمت في وجهي تبسم الدلال والفتنة كعادتها وقالت لى كلا .. كلا .. لقد أفهمتك من الليلة الاولى . بلزوم الصبر والتأنى فلا تتخل عن العين العذبة وتطمع بنقطة من الماء ولا تضع خزينة من الجواهر وتسعى خلف دينار زائف . فقلت ماهذا الكلام لقد أشعلت نار الحب في فؤادى وأحرقت بالهوى حبة قلبى .

ثم تقولين لى تصبر وتحمل . وهل يمكننى الصبر أو التحمل هلمي أنصفيني ولا تلقيني في وهدة الهلال . فلم تجب الا بالممانعة والمدافعة وهي تقول لى ياعيونى اصبر تحمل لقد قلت لك مرة إذا كنت لا تصبر تندم فيما بعد وإذا صبرت نلت ما أنت طالب ولا تظن اني أغشك أو أخدعك لأدفعك عنى فليس من طبعى الكذب والخداع .

فلما سمعت كلامها صممت عن الجواب وبقيت محدقا فيها ثم مر علينا قسم من الليل وقد أعيد لنا الشرب والغناء ودارت الأقداح واتسع نطاق الملاعبة والمداعبة كما كنا قبلا حتى حمى الهجير وبلغ بى الحد الدرجة القصوى فعدت الى الالتماس والرجاء بالسماح لى بوصلها . وإذ ذاك أشارت الى احدى جواريها بالدنو منى فدنت وأمسكت بيدى وأخذتنى معها الى صيوان كالصيوان الأول كامل النقش والتزيين وبه كل أسباب الحظ يقوم بخدمته مئات من البنات عليهن من الجواهر

ما لا يحصى قدره ولا يقدر ثمنه وأخذت الجارية تداعبني وتضمني وتسقيني
تميل فكري اليها وأنا غائب الحس فاقد الرشد وأخيرا أجبتها إلى طلبها ممتثلا
لقضاء الله ومن بعد المداعبة دخلت سرير النوم وباشرت معها مايباشره كل رجل
لو وجد على فراش واحد مع فتاة تسلب القلوب وتسبي الألباب . وهذه أيضا
وجدتها بنتا بكرا فأزلت بكارتها وبقينا نتقلب على بعضنا إلى أن لاح الصباح
فقادتني الى الاستحمام . فغسلتني بيديها وطيبتني بأزكي الطيوب رائحة وألبستني
ثيابا أبهى وأجمل مما قد لبسته في اليوم السابق وقادتني إلى الصيوان وعادت
لتستحم وفي هذه المرة لم أطلب الخروج إلى خارج الصيوان وقلت في نفسي أمس
خرجت من الصيوان فأختفي فاليوم لا أفارقه لأرى ماذا يصير واتكأت على السرير
فأخذتني سنة من النوم على غير علم مني فغرقت في سبات عظيم ولم يمر على ساعة
حتى فتحت عيني ونظرت إلى ما حولي وأمامي فلم أر لا صيوانا ولا بناتا ولا
شيئا مما كان قبلا بل رأيت نفسي فريدا وحيدا على الارض فاغتظت من نفسي
وتكدرت من عمل البنات معي وعلى الخصوص عندما تذكرت الصبية حبيبتي
ومانلته منها من ضم وشم وعناق ورشف فتساقط الدمع من عيني مدرارا دون
إرادتي ومع انني كنت على يقين من أنها ستأتي مع جواريها في المساء لكن كنت
في حالة يأس وحزن وكانت الدقائق تمر على أطول من السنين ولذلك كان فراقها
النهار بطوله كمائة سنة في تقديري وصرفت النهار على ما تقدم في اليوم الاول وعند
المساء أقبل البنات كالعادة وبينهن محبوبتي البدر الفاضح والغصن المائل وحالما
رأيتها في حالة العز والسلطة وقد انبعثت أنوار جمالها على تلك الضواحي غاب
عقلي فوقعت إلى الارض لا أعي شيئا ولما فتحت عيني وجدت نفسي على السرير
وبجانبي تلك التي لم يعد يطيب لي عيش إلا بقربها وقد مدت يدها تحسس بها
على وجهي ولما شعرت بنعومة يدها وطراوتها قبلت يدها ونهضت من مكاني
مخجولا فقالت لي ماذا جرى عليك ياروحي وما هذه الحال التي أنت فيها
فأجبتها بأن صبري قد فرغ وضاقت بي الدنيا لطول الفراق فبقيت أنتظر بفروغ
صبر حتي رأيتك وأنا غير مصدق فحملني الفرح على أن أغشى على فأسعدتني
بلطفك وأعدت الي الحياة فارفقي بي واشفقي على ولا تكوني سببا لموتي وإذا
كنت لا تشفقي على وترحميني فاتقي الله وراقبيه في .
فلما سمعت الفتاة كلامي قبضت على يدي في الحال وقبلتني في وجهي وجعلت

تقول لى ياحبيبى لاتتكدر فانى أحافظ على راحتك وأحب أن لا تكون فيما بعد نادما وأنظر كم أنت تحبنى الآن فانى أحبك بأكثر مما تحبني فلا تتوهم أنى أغشك أو لا أحبك كلا لكن فى ذلك سر وحكمة فاذن لا فائدة بغير الصبر والتأنى ويمكنك أن تصرف وقتك معى على الحب والعشرة والضم والعناق والتقبيل إلى حين حلول الوقت وإذ ذاك لا أمنع عنك ما أنت طالبه ثم انها اعتنت بتسليتى وتصبرى ومر الليل على كما مر فى الليلتان الماضيتان وقد أنهيت ليلى بوصال بنت بكر من هاتيك البنات وقد تنعمت والتذذت كثيرا ومع كل ذلك فان كل قلبي وفكرى مازال معلقا بصبيتى ومالكتي وكانت كلما مانعت فى وصالها كلما زاد قلبي تعلقا بها حتي أصبح خيالها نصب عينى لا يفارقنى فى طول غيابها دقيقة واحدة . فوالهف قلباه على تلك الشمائل وذاك الجمال الباهر .

(وحينما بلغت الجارية ذات الثوب الأسود التى كانت تتردد علي والدتى حين صباى إلى هذا الحد من الحكاية التى كانت تنقلها لى قالت لوالدتى وحينئذ أغمي على الملك عندما انتهى به التذكر إلى حده الأخير ووقع الى الأرض والجارية أيضا بكت وأنت بينما كانت والدتى مصغيه اليها متعجبة من هذه الحكاية ولذلك سألتها برجاء أن لا تقطع حديثها :

ولما وصلت نور بنت ملك الهند صاحب الاقليم الأول الي هذا الحد من الحكاية سكتت وكان بهرامشاه وهو يسمع من زوجته الأول حكايتها متعجبا للغاية وحيث إن الحكاية أثرت فيه جدا فقد ازداد مقام نور فى عينيه وتضاعف حبها فى قلبه فضمها اليه وقبلها ثم أمرها باتمام الحديث . وبعد أن دعت له بدوام العز وطول العمر قالت :

نعم ياملكي ويا بهرامى المحبوب ان والدتى أيضا لما وصلت الي هذا الحد من الحكاية رأت الدموع تتساقط من عينيها كالمطر فتعجبت وسألتها عن ذلك فقالت لى اني أبكى لأمرين .

الاول : من حيث أن تلك الجارية ذات الثوب الأسود كانت صاحبة وفاء عظيم وتحب الملك كثيرا ولذلك كلما خطرت فى خاطرها حكاية الملك تتأثر من حاله ودائما تبكي ولأجل تأثيرها هذا أبكي أنا .

والثانى : عندما أفتكر أن ذاك الملك من بعد أن لاقي مالاقي من المحن والمشقات توهم صفاء الزمن وفيما كان على وشك الحصول على وصل الفتاة لم يساعده الدهر

بل إنهما بعد أن ابتليا بالحب وتعشق كل منهما الآخر وأصبح الملك عاشقا مولها الى درجة لا يصعب عليه فيها ضياع روحه فى سبيل رضى محبوبته رمى بالهجر والفراق دون أن يحصل على غرض أو يشفى له مرض من وصل تلك الفتاة فبقى على الدوام محزون الفؤاد وهذا أيضا يبكيني .

فرجوت والدتى ان تتم الحكاية لأنى عندما سمعت منها هذا الكلام تاقت نفسى لأعلم كيف انفصل عن الفتاة دون أن ينال منها وصلا .

فعادت والدتى لاتمام الحكاية فقالت لى ولما انتهت صاحبة الثوب الأسود الى هذا الحد اختنق صوتها من كثرة البكاء فسكتت وبعد سكوت نصف ساعة من الزمان أخذت فى أن أرجوها باتمام القصة مسلية اياها على مصابها وحينئذ عادت فقالت بصوتها الضعيف .

أواه مما أصاب ذلك الملك الحزين فانه عندما وصل هذا الحد من الحكاية وقع الى الارض مغشيا عليه ففي الحال أخذته بين يدى ووضعت رأسه على ركبتي وجعلت أصب فى فمه المنعشات وأفرك يديه وبطون رجليه حتى فتح عينيه وقال لى .. آه — إنك أنت التي أهجت حزنى فهل ظننت أن مابى أمر سهل ففي الحال رميت بنفسي على رجليه أقبلهما وأجتهد فى تسليته وتعزيته وكنت فى شوق زائد لاتمام الحكاية وبعد أن هدأ باله واستجمع حواسه عاد إلى حديثه فقال :

نعم الى هذا الحد انتهى بي العشق والوله بفتاتى الملكة المحبوبة وانقضت معي الليالى الثلاث على ما تقدم كما انقضت الليالى الثلاث فكذلك انقضت الليلة الرابعة وعندما استيقظت فى الصباح لم أر أثرا للبنات ولا للصواوين ولا لكل ما كان مشهودا ومنظورا لى فى الليل . ومع أنى كنت أجتهد فى الوقوف على حقيقة هذا لكن عبثا كان كل اجتهادى .

ولما نهضت فى اليوم الرابع ولم أجد أثرا للبنات أخذت فى التطواف فى تلك الأطراف وأنا فى حالة حزن وملل ثم جلست تحت شجرة عظيمة هناك وأخذت أستعرض حالى ولم أذق فى ذلك اليوم شيئا لأن نفسي عافت الأكل ولما رأيت انحطاط نفسي الى هذه الدرجة قلت ماهذا يارب أسألك الرحمة فلا تتركنى بعد أن وصلت إلى هذه الدرجة من اليأس . . . فلأي شيء تعاملني هذه الفتاة بقسوة وتنسحب ولماذا تشوقنى وترغبنى فيها ثم تحافظ على الاحترام والاعتبار ومن

أى شيء أيضا تخيفنى وما الذى يمنعها من السماح لى بالوصال بل كلما سألتها فيه تطلب إلى الصبر والا أندم فيما بعد هى تعدنى ولا أظن فيها الكذب فلا بد من الوفاء واذا كان لا بد من الوصال إيفاء بالوعد فلماذا التأخير وبعد الفكر والتأمل فى ذلك قت إذا كان الدهر الغدار يرى أن هذا غير موافق لى فكيف يمكن له أن يساعدنى .

أواه منك أيها الدهر الغادر الظالم لقد ضيعتنى ولا ذنب لى وعاندتنى وأنا أطوع من بنانك ولكن لا لوم عليك فهذا فعلك وصفتك أيوجد فى الكون واحد قد سره الدهر ولم يعضه بنابه ولكن :

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

أواه منك يا دهر فالخيانة صفتك والظلم طبيعتك وأنت عديم الرحمة ، ما هو المصاب الجديد الذي تهيئه لى فى الغد لتصب جامه على رأسي أما كفي ما جرى وما أوصلته الى من الأحزان .

وبقيت جالسا تحت الشجرة حتى المساء أندب حظى وأخاف من مستقبلى المظلم وقد مر نحو ساعة من الليل وأنا أنا لم أشعر بذلك لضياع فكرى وانشغال بالى وقد جاءت البنات كالعادة واشتغلت كل واحدة بعملها ولما لم ترنى الصبية أرسلت احدى جواريها تفتش على فطافت تلك الجارية من مكان الى مكان حتى وجدتنى فى مكانى وتقول لى لقد دنا الليل وجاءت البنات وأنت تضيع الفرص ولا تحاول اغتنامها والواقع ان الحب شيء عجيب والقلب اذا ربط بشيء رباطا حقيقيا لا يحول من ذلك الشيء ولو ضربت الدنيا وعلى ما أظن لا يقدر أحد أن ينكر ذلك على العاشق لان العزل والعتاب واللوم يزيده تولها بالمحبوب وتعلقا فيه

واذا تألفت القلوب على الهوى فالعزل ضربك فى حديد بارد

وأخيرا فان البنت التي كانت تفتش على وجدتنى ولما رأتنى على تلك الحالة دنت منى وأنهضتنى وأخذت بيدى وقالت لي ماذا دهاك يا حبيبى فاذا كنت ونحن حولك وفي خدمتك نأتيك في المساء ونبيح لك نفوسنا كل الليلة وأنت على هذه الحال فماذا يجرى عليك لو انقطعنا عنك فانهض وشد عزمك واغتنم فرصة الملذات ولا تتظاهر بالضجر والملل أو تبدي اشارات عدم الصبر والقلق فأنت فى نعمة لا تعرف مقدارها إلا إذا فقدتها .

فلما سمعت كلامها مشيت معها حزينا حتى وصلت إلى الصبية مالكة قلبي

ولي فلما رأتني هذه نهضت من مكانها وتبسمت لي ودعتني اليها وقالت اقترب مني ياضيفي العزيز لاتكن حزينا هذه الليلة الخامسة ولم يبق الا القليل ولا بد أن انتشلك من وهدة أحزانك وأكدارك . فدنوت منها وجلست الي جانبها فضمتني الى صدرها وأبدت لى من الالتفات والاعتناء كسابق عاداتها ما أنساني همومي وغمومي وعدت الي البسط والانشراح ثم أمرت بأن يقدم لي كأس من المنعشات فشربتها وهي تزيد في اكرامي وانبساطي حتى تهيأت مائدة الطعام فجلسنا حولها والبنات فى خدمتها وفتاتى البديعة تطعمنى اللقمة بعد اللقمة وهى لا تنفك عن إبداء كل مايسرنى حتي انتهينا من الطعام ورجعنا الي سريرنا وطافت بنا جيوش الحظ والمسرات من كل الجهات وإذ ذاك أخذنا فى المداعبة والمصاحبة والمعانقة والتقبيل وقد انفرج عن قلبي كل ما لحق بى من الحزن واليـأس في نهارى حتى ولو كانت أضعاف ماهى بألف مرة لذهبت من قبلة واحدة أو نظرة فى وجهها الجميل فكم بالحرى وقد حصلت على مائة صنف وصنف من القبـلات والضمات والعناق والدغدغة والتمرغ والمص والرشف والاستنشاق الى غير ذلك مما أبيح لى اغتنامه وهي لاتبدي ممانعة ولامدافعة فى أمر من الأمور فكنت كأنى موجود فى قلب السرور محافظ على بحرص زائد حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد تركنى فى هذه الدنيـا بغير غم ولا هم كيف لا وأنا محاط ببدور من الجواري تفوح منهن الروائح الذكية وكلهن فى خدمتى بعضهن يعاطينى المدام وبعضهن يغني لى وبعضهن يرقص وبعضهن يضرب على آلات الطرب وأمامي وإلى جنبى سيدة الجواري وملـكة الجمال قد طرحت ثيابها ولم يبق عليها الا قميص ناعم من الاطلس البديع وقد ظهر لعينى جسمها الناعم بهيئة غريبة ولا أعلم بماذا أشبهه لأن لا شيء فى الدنيا من الموجودات يشبهه فكنت أقبلها فى عيونها وجبينها وخدودها وفمها وعنقها وأمرغ وجهى بين نهديها وأمتص المرة بعد الثانية من فم القمقم كل ماوقع فمى عليها كل هذا ويدى تجول من مكان الى مكان وتنتقل من المصاطب الي الأركان .... وهى لا تبدى ممانعة أو مدافعة تاركة نفسها بين يدى وبدورها كانت تقبلنى وتضمنى الي صدرها وتعانقنى مظهرة نحوى كل شغف وولهفماذا يانرى تطلب النفس وقدحصلت علي مثل هذه الأمنية العظمى نعم انها كانت تطلب الوصال ونيل المنى ولـكن هكذا كانت الحال ولما كنت أصل الى هذا الحد من الحظ والحرية أري نفسي قد بلغت المرام ولم يبق بيني

وبينه الا حل تلك العقدة فواحسرتاه فانها عقدة لا تحل . فكذلك قد ختمت ليلتي هذه كغيرها من الليالى التى مرت لى معها فانى عندما بلغ الغرام منتهاه ولم تعد تصبر نفسى عن زيارة الامام سلمتنى الى احدى البنات البديعات فقادتنى الي السرير المعتاد وصرفت الليل معها أتلذذ بوصالها عند الصباح دخلت الحمام واغتسلت ولبست أفخر الثياب وكنت فى كل صباح ألبس ثوبا أفخر من الثوب السابق ويختلف عنه فى كل أنواعه وكذلك بعد أن غاب عنى كل شىء كنت أتمشى فى الحديقة على ماسبق وصفه وكان كل يوم يمر على من الايام الخمسة أحسبه أطول من سنة .... ولى الحق فى ذلك .... وأقسم بالله العظيم أن لي الحق فى ذلك وأيضا جاءت الليلة السادسة وتهيأ لى ذلك الحظ. وكان زائدا عن كل ليلة مرت فتوغلت بالمسرة وقد رميت بنفسى على الصبية وسألتها الوصال وقلت لها ارحمينى يرحمك الله اشفقي على رقى لمصابى فقد زاد بى الوجد عن الحد حتى لم أعد قادرا على التحمل وربما أقع مائتا من التمنع والمطاولة والمماطلة فلا تظلميني وعامليني بكرمك ولطفك فكان جوابها كالسابق أى أن ضمتنى إلي صدرها وجعلت تقبلنى وتلاعبني وتقول لى صبرا ياحبيبي فمن الواجب عليك أن تتحمل وتصبر والا فانك تندم فيما بعد حيث لا ينفع الندم فتسل الآن بما لديك من أسباب الحظ فها أنا بين يديك فضمنى وشمنى وقبلنى مهما شئت وهاك البنات بين يديك وفى خدمتك وتحت أمرك فاشغل نفسك بالرقص واستماع الأغانى وشرب المدام ولا تكن لجوجا فان اللجاجة عاقبتها الخسران والنهاية فانى عدت الى ما كنت عليه فى الليلة السابقة حتي تنتصف الليل واشتد بى الوجد فدعت فتاة بكرا وأمرتها أن تسوقنى الى الصيوان فأظهرت فى الأول ممانعة وقلت لها لا أذهب الا معك فهشت وتبسمت ورجتنى أن أجيب طلبها فانقدت صاغرا وأتيت الصيوان مع الفتاة الجديدة وكنت غائبا عن الصواب من شدة هيامى وغرامي بالصبية وان كنت أتلذذ بالبنات لكن عن غير رغبة ولا ميل ولهذا كان يقل نومى وتكثر أفكارى وأقول الى متى تحيط بي السعادة التامة فيضمنى السرير ومن أحببتها وتنطفي النار المتأججة في الضلوع وكان باقى ذلك الليل أطول من الليالى الست الماضيات

ولما جاء النهار وغاب البنات وكل مافى ذاك المكان جعلت كعادتى أتمشى كالمجانين من هنا الى هناك ومن هناك الى هنا لا أعلم ماذا أعمل وأخذت أخاطب

والشمس وأسألها سرعة المسير والعجلة ليقبل المساء وارتميت أخيراً تحت شجرة أنام في ظلها ولكن أين النوم وأين الراحة فاني لا ألبث أن أغمض عيني حتى يفاجئني شخص الحبيب فأنهض مرتاعا وأري نفسي منفردا على بساط الارض فتتراكم على الهموم ويزيد بي الوجد المبرح فأجلس أناجي نفسي وأندب حظي .

ولما قرب المساء نهضت من مكاني وذهبت في الطريق الذي يأتي البنات منه أنتظر ورودهن ، وعندما حان الوقت المعين ظهرت المشاعل بأيديهن فأسرعت لملاقاتهن وأخذت احدى الجوارى احدى قوائم السرير التي كانت تجلس عليه معشوقتي البديعة ومشيت مع الجوارى وأنا في نهاية الحظ والانشراح حتى وصلنا الي المكان الذى نجلس فيه فمددنا البسط وهيأنا السرير وباقي المفروشات ولما رأى البنات عملي واهتمامي ضحكن ضحكا عاليا واستحسن عملي وأحببنه ومن ثم لاحت لنا المشاعل أيضا مقبلة نحونا فطرت لاستقبال من خلفها

ولما رأتني الفتاة على تلك الحالة أظهرت المسرة والانشراح وأخذت بيدي ومشت وأنا إلى جانبها والبنات يسرن خلفنا جماعات حتي وصلنا من السرير فجلسنا عليه وبعد بث لواعج الغرام وإبداء ما لحق بي من الوجد والهيام واجراء السلام بالتقبيل والعناق أمرت باحضار الطعام فنهضت اليه وأكلنا كسابق عادتنا ثم عدنا إلى مراكزنا وابتدأت الملاعبة والمداعبة وما لبثت أن بدأت نار الوجد تشتعل بي فملت الى الصبية وقالت لى حذار لا تدن مما لا أسمح لك به وإلا ندمت غاية الندم وخسرت الخسارة العظمى .

فقلت لها يا حياتى وروحى ومنتهى أملي إنى لم أدن مما لم تسمحي لى به من قبل والآن أرجو كي أن تسمحي وتتكرمى فقد نفذ صبرى ولم يبق لى طاقة على التحمل فهل لا تزالين تقولين لا أسمح . وفي الحال أخذ جسمي يضطرب من رأسي إلي قدمي وتحيرت ماذا أعمل من الحسرة واليأس وتبدل لوني فصرت أصفر كالزعفران ودخلت فى مصاف الأموات . ولما رأتنى الحبيبة على هذه الحالة أخذت تلاطفنى وتؤانسنى وقد ضمتنى إلي صدرها وقالت لى لقد صبرت يا حبيى ستة ليالى فماذا يجرى عليك لو صبرت هذه الليلة أيضا . فقد قيل ان في التأني السلامة وفى العجلة الندامة .

فقلت لها إنى لأعجب من حالتي معك أنظرى نشاطى في الليلة الماضية وقابلية

بحزنى فى هذه الليلة . ففى الأول تريننى أضحك قليلا ثم لا ألبث أن يتبدل ضحكى بالبكاء أرى نفسي فى حظ ومسرة لكن ذلك الحظ وتلك المسرة ينتهيان باليأس والكآبة والحزن فكأنك تدفعين بى إلى الموت ثم تنتشلينى منه مع أنى أرى نفسى سائرا اليه بسرعة البرق فارحمينى تنالين الثواب من الله تعالى فقالت لى قلت لك يا حبيبي صبرا وأنت قليل الصبر مع أن لا بد لك منه . فقلت صبرت حتى فرغ الصبر وأضرم بى الصبر نارا لا تطفى الا برضاك وقبولك صبرت ستة أيام فافتكرى كيف كانت حالتى فيها أتظنين أن الصبر وأنا فى هذه الحالة أمر سهل فياليتنى أنا مكانك وأنت مكانى لتعرفى صعوبة الحالة التى أنا فيها الآن فما هي الوسيلة إلى رضاك على لا أعلم

فلما سمعت منى هذا الكلام أطرقت رأسها إلى الارض مفتكرة فكنت أمعن النظر فى وجهها ، وما كنت أميل بنظري لحظة عن ذاك الوجه البديع فكان لونها يحمر شيئا فشيئا ثم أخذ العرق يتجدول فوق محياها الباهر ، أواه يا ربي فما أجمل احمرار خدها وما أبدع تصبب العرق فوق وجهها فكأن ندى الصباح قد تجمع فوق أوراق الورد

فلما رأيت حبيبتى على هذه الحالة لم أطق الاحتمال ففي الحال طوقت عنقها بذراعى وفيما أنا أقبلها دخل فى فمى عدة نقط من عرق وجهها المعطر وأنا أقسم يمينا أنا فيه صادق انى لم أذق فى حياتى عسلا أو سكرا لذيذا أو حلوا كهذا العرق الشهى وقلت لها وأنا أذرف الدمع من عيني بماذا تفتكرين ياحبيبتي ومالكتى ولماذا يحمر وجهك فانك تزيدين بهاء وجمالا حتى زاد اشتعال فؤادى ، الرحمة الرحمة فقد كفي ما أنا فيه ارحميني إكراما لله فقالت لى انى أفكر فيك أتوجع لأجلك فظننت أن الرحمة وقعت فى قلبها وأنها تريد الرحمة بى فقلت لها إذا كنت تتوجعين لي فارحمى ضعفي واجبرى انكسار قلبي ... فقالت لى كلا كلا إن توجعى لك هو لكوني سأفقدك قطعيا .

ولما سمعت من فمها كلمة سأفقدك طار عقلي من رأسى وقلت لها لماذا ستفقدينني إنى لا أريد أن أنفصل عنك أبدا واذا كنت تتركيننى فاننى لا أريد أن أتركك إن روحى وقلبي وكلي بأجمعى فداء لك فلماذا تكلميننى بمثل هذا الكلام القاسي قالت القصد انى لا أريد أن تبعد عنى بل أري من اللازم أن تصبر هذه الليلة عن وصالى وأن تأخذ لك احدى جواري ضجيعة فقلت لها وان كنت

لا أقدر على الصبر فسأصبر هذه الليلة أيضا ولكنني لا أريد لا جارية ولا مارية ولا عاد قلبي يطاوعني أن أنظر الي سواك

فلما سمعت مني هذا الكلام الصادر عن الحزن واليأس تبسمت وقالت اذا كان الامر كما تقول فسأعطيك هذه الليلة ما يسليك ويرضيك ومن ثم أشارت الي واحدة من الجوارى وأمرتها أن تأتيها بشيء لا أعلم ما هو وفي الحال ذهبت تلك الفتاة وعادت وبيدها صندوق وضعته أمامي فأخرجت الصبية من جيبها مفتاحا فتحت به الصندوق وأخرجت منه كتابا دفعته الى وقالت لى خذ هذا الكتاب فانه يسليك باقى ليلتك فشغل بالى لذلك وقلت فى نفسي ماذا ياتري في هذا الكتاب ومع ذلك لم ينفصل خاطرى عنها ولا مالت أنظارى عن النظر اليها بل أخذت الكتاب من يدها وأنا محدق بوجهها شاعر بلذة غريبة تتضاعف الدقيقة بعد الثانية حتى أصبحت فى حالة تصعب على أفصح فصحاء العالم أن يصف بعضها ومع ما كنت فيه من اللذة فقد كان فؤادي يضطرم بنار الوجد ويتحرق على نوال ما منع عني ولا عجب فى ذلك فان النظر لحظة واحدة فى وجه تلك الحورية السماوية يحسب سعادة كبري لكن لا ريب إذا توصل المرء للحصول على سعادة النظر المتواصل لا يعود يرى السعادة لا بنوال قبلة واستماع كلمة من فيها أو لمس يد أو ضم عنق أو خصر على انى لما كنت حاصلا من هذا القبيل على مالا حد له ولا منتهى له كنت لا اري نفسي فى سعادة ونعيم بل كنت أرى السعادة كل السعادة فى الوصال فقط

وإنى بناء على اشارتها فتحت الكتاب واذا بى ارى فى الصحيفة الاولي منه رسم حديقة بديعة مكسوة بالأشجار المتنوعة وعليها الأثمار مدلاة فوق أغصانها وجداول المياه تتجدول فى ساحتها ولما امعنت النظر فى صورة تلك الحديقة وجدتها طبق الحديقة التى نحن موجودين فيها حتى الآن بلا زيادة ولا نقصان ، وقد رسم فيها أيضا كل أنواع الأشجار والأزهار والأثمار والمياه المتجدولة بينها كله باتقان وصنعة عجيبة حتى يخال للرائي أنه لا يمكن أن تكون قد خطت تلك الصورة يد بشرية لعظم مابها من الاتقان ولما نظرت فى الصفحة الثانية وجدت صورة من يا تري وجدت صورة قمرى الساطع وبدري الطالع وغزالى الشارد صورة مالكة فؤادى وغاية قصدى ومرادى وجدتها واقفة فى تلك الروضة الغناء وعليها قميص ناعم يكاد لا يحجب شيئا من جسدها البلورى

وقد زينت عنقها وزندها ورأسها ورجليها بكل أنواع الجواهر المختلفة الأنواع حتى كانت تضيء فوقها كالكوكب الساطع وهي ما بين أبيض براق وأحمر متلالئ، وأخضر ياقوتي وأزرق فيروزي متموج .

ولم تكن هذه الصورة لتخفف من وطأة غرامي او تطفيء من نار هيامي فاني عندما رأيت صورتها على تلك الحالة وشاهدت صفاء جسمها ونقاء بدنها هاج بي غرامي ولم أعد قادرا على امتلاك نفسي وعلى الخصوص عند ما رفعت عيني لأقابل بين جمال الصورة وبين جمالها فرأيت كأنها قد خرجت من ذلك الكتاب بالحالة نفسها وتجسمت بصورة بشرية وصار لون الملابس التي عليها كما في الصورة فيالله وبالشجاعة من يقدر أن يثبت في مثل هذا الميدان نعم لم أعد قادرا على الثبات فشعرت باضطراب ثم وقعت الى الارض غائبا عن الوجود

(ولما انتهت بنت ملك الهند من سرد قصتها لبهرام شاه إلى هذا الحد توقفت عن الكلام بعد أن قالت له أن الجارية ذات الثوب الاسود قالت لوالدتي أن سيدها الملك عند ما وصل في حكايته لها الى هذه النقطة شعر بانقباض صدر ثم أغمي عليه :

الا أن بهرام شاه كان قد شغل فكره في هذه الحكاية فلما رأى زوجته توقفت عن الكلام تاقت نفسه بشدة لاستماع نهاية القصة فضمها الى صدره وقبلها في خدها ونحرها وقال لها إنها لحكاية عجيبة فأرجوكِ أن تتمي حديثك لأني مشغول الخاطر على ذاك الملك المسكين بأكثر مما أنا متعجب منها وأريد أن أصل الى نهاية ما وصل اليه :

فلما سمعت بنت الملك رجاء زوجها عادت الى الحديث فقالت ان والدتي لما رأت من صاحبة الثوب الاسود الاسف والحزن على ما لحق بسيدها رثت لحالها وأخذت في أن تعزيها وتسليها حتى هدأ روعها فسألتها الى أتمام القصة فأجابت بعد أن كفكفت دموعها ومسحت أعينها فقالت .

ان سيدي الملك لما وصل في حكايته الى هذا الحد وقع الى الارض مغشيا عليه فأسرعت الى نجدته ورششت الماء على وجهه حتى فتح عينيه وعاد الى نفسه وجعل يبكي والدموع تسيل من عينيه كالامطار الغزيرة ولاريب ان الانسان الذي لقي مثل مالقي الملك لا يمكن أن يكون أكثر منه صبرا . واخذ يقول يارب هل مارأيته حلم أم سحر ما هذا)

عفوا يا ربى فانى بينما كنت انظر فى صورة المحبوب الموجوده فى ذلك الكتاب وأنظر اليها نفسها ضاع صوابى رأيت أن لا فرق بينهما مطلقا حتى بالملابس مع أنى لما كنت أداعب وألاعب الفتاة كانت تلبس غير الملابس التى فى الصورة فكيف قلب حالا طبقا لحالة الصورة ... آه يا حبيبتي كم انت جميلة وبهية كم وجسمك لطيف أواه .. واحسرتاه يا ليت روحي فارقت جسمى في ذاك الوقت ولا فارقت هذا الملاك العجيب الاطوار الغريب الاوصاف البديع المحاسن فان الفتاة لما رأتنى على تلك الحالة وقد غبت عن الصواب واخذت ترش الماء علي وجهى حتى عادت الى روحى نوعا ما لكن عادت النوبة بأكثر من الاول عندما فتحت عيني ورأيت ذاك البدر الساطع منعكفا فوقي ولما اعياها امرى صاحت ببعض الجوارى وامرتهن ان يحملننى الى الصيوان ويعتنين بي فرفعننى على السرير فى آخر صيوان واخذن بالاعتناء بي الى ان اصبح الصباح دون جدوى ولا فائدة فانى لم ازل غائبا عن الوجود وحيث لم يعد في وسعهم البقاء فى تلك الجنة غبن وانا على حالى الى ان تنصف النهار وانا اغط فى نوم عميق انتهي بى الي الراحة والانتباه ففتحت حينئذ عينى فرأيت نفسى بين تلك الاشجار الخضراء كسابق العادة .

وحقا فقد كانت حالتي تستحق الفرجة بأكثر مما تستحق الرحمة ففي الأول نظرت الى ماحوالى باضطراب كأنى موجود في عالم جديد أو كمن خرج من حالة قلق آلى حالة سكينة وهدوء ثم عاودتنى القوة شيئا فشيئا فاطمأننت نوعا ما وارتاح بالي ولا سيما وقد رأيت الكتاب إلي جانبي وفيه صورة قمرى البديع فان ذلك الحسن والجمال والقد والكمال واللطف والدلال لم يغب عن عيني قط فكانت كلها موجودة أمامى كما فى الليل وعقب ذلك تساقطت الدموع من عينى بغزارة وبعد أن بكيت نحوا من ساعتين أو ثلاث ساعات سكن جأشي ومسحت دموعى وأنا أقول يا إلهى أى نوع هذا إذا كانت رؤيا فها أنا أرى بعيني كل شيء وإن كان سحراً فانى لا أرى علامة أو إشارة سحر فما ذلك يارب العالمين وماهو الخير والثواب الذى كنت فيه أولا حتى أفرحتنى بالأمل بوصال من ألقيت حبها فى قلبى وبعدما هو الخطأ والجرم اللذين ارتكبتهما حتي أحرمتني من صحبتها ومعاشرتها ومن بعد أن رددت هذه الأفكار فى نفسى طويلا وأنا تارة أحدث نفسي وطورا أحدث خالقى وأخيرا اضطرمت فى نيران الغضب والحدة وقلت انى عجزت وضاق بى الأمر وتحقق لدي أنى لا أقدر على الارتواء من وصال هذه الظالمة لأنه أمر ظاهر فهى تغشنى ولم لا ترغب فى عن صفاء قلب حيث مر ست ليال وهي تقول اليوم غدا فهل في الامكان الصبر على وصالها ليلة واحدة فاتعجب كيف صبرت ست ليال وأنا بقربها ملتصق بها حاصل على كل ما يسر منها غير الوصل وأحيانا كنت لا أصدق نفسي بأنى صبرت هذه المدة الطويلة

وكان ما يزيد افتكاري وشغل بالي ويحيرني ويقلقني هو ما كنت أتعجب منه دائما وهي أنها كانت تشوقني وتهيج في مكنونات الطبيعة حتى إذا بلغ بي المجاز حده امتنعت علي وحذرتني . . . فما السبب يا ترى وعلى الخصوص فانها أعطتني الكتاب المحتوي على رسمها بهيئة غريبة فكان يزيد هيامي ويضرم النار في فؤادي زيادة عما هو عليه . . . وكنت أفتكر بأني أصبحت عديم التدبير أبحث عن وسيلة أنال بها المراد . فلم أهتد إلى وسيلة مفيدة وقد لاح لي أن من العبث أن أتحمل أكثر مما احتملت ولا طريق للتوصل من الغاية إلا بالرغم عنها واجبارها على الاصغاء إلى طلبي أي أني عند اشتداد الوله والوجد وميل النفس لركوب الهول أرجوها وأتوسل اليها أن ترحمني وتشفق علي وتجيب طلبي بفك العقدة الصعبة الحائلة دون مرادي فاذا أنعمت وأجابت تم الغرض والا هجمت عليها واقتنصتها قوة واقتدارا . . . وما كاد يتقرر هذا الخاطر في ذهني حتى وجدت من غرامي زاجرا فصحت كلا . كلا فما فتاتي مما تعامل هذه المعاملة فهذا غير ممكن إن القلوب القاسية الصخرية لا تجسر على أن تمد يدا إلى ذاك الجسم اللطيف بعد أن قيل فيه :

خطرات النسيم تجرح خديـه ولمس الحرير يدمي بنانه

فحاشا لي أن أفعل ذلك أو أقدم على أن أغيظها وأفعل ما يفعله البرابرة مع نسائهم أو ما تفعله القبائل المتوحشة بنساء أعدائهم عند انتصارهم عليهم انما الأمر الوحيد الذي أقدر عليه هو أن أتوقع عليها وأستعطفها وأسألها الرحمة والرفق وأصرف الجهد فلا بد من أن ترق وتلين وتجيب طلبي في النهايه وعلى الخصوص إذا رأتني مصرا على نيل وصالها ملازما على الالتماس والرجاء خاضعا لارادتها متذللا بين يديها فلا بد لحالي معها من نهاية ولا أحرم في النهاية من حصولي على مرادي ، وكنت وأنا على هذه الأفكار أقف مرة وأقعد أخرى وأتمشى مرة لا أعي على نفسي ولا أفرق بين السماء والأرض . . . أسأل الله أن لا يبلي أحدا بمثل هذه المحبة ، فهي ليست محبة بل محنة ، فكنت وأنا أفتكر في الفتاة وأشاهد صورتها أصل الى حالة اليأس حتى أرى نفسي قربت من الموت وعلى الخصوص عندما أتصور الحالة التي أكون فيها بين يديها وأنا أضمها فتضمني وأعانقها فتعانقني وتترك لي الحرية التامة في أن أتصرف كيف شئت وأسير على السهل أينما أردت ولكنها تمنعني عند عزمي على الدخول بين الحبلين

كنت ملكا عائشا بالعظمة والمجد أملك العالم وأحكم فى الناس ولأجل هوسى تركت المجد والعظمة وطفت الدنيا وتوغلت بالاتعاب والمصائب ، ومع ذلك لم يخطر مثل هذه الأمور فى خاطرى هذا ولا فكرت بغير خيال محبوبتي ولا حلا لعيني غير صورتها وكنت أقول يا ربي ماذا أعمل وإذا بقيت كذلك فالي أى حال تنتهى بى محنتى هذه

ولبثت على هذه الحالة وانا كالمجنون تارة أبكى وأندب حظي وطورا اطرق مفكرا غائبا عن الصواب فلما اقبل المساء جلست حزينا تحت إحدى الشجرات على الحالة التي انا فيها ابحث الساعة بعد الثانية عن الواسطة المفيدة لنيل وصال ذلك القمر البعيد المنال

(تنبيه) لا ريب اننا نعذر الملك اذا هو لم يقدر ان يثبت أمام سلطان جمال معشوقته وليس من المنتظر ذلك فلاقوة فى الدنيا تعادل قوة الجمال ولا سلطان اعظم من سلطانه وقد اخبرنى احد اصحابى عن حدوث امر وقع له نسرده هنا بالاختصار قال :

وجدت فى محل فيه نحو من خمس او ست بنات وفيه كثير من الناس لأجل الفرجه والتسلى لأن المحل المذكور كان من المحلات العامة وكان به رجل فى سن الثمانين او الخامسة والثمانين اراد ان يحضر اليه ابهى واجمل البنات فأشار اليها بعينيه ان تدنو منه فنهضت الفتاة وتقدمت منه وجلست الى جانبه ولا اعلم اكان منها ذلك جبرا لخاطره او لأمر آخر ، والحاصل ابتدأت الفتاة مضاحكته والمصاحبة والملاعبة ، واما الرجل الشيخ فقد ظهرت عليه علائم السرور والنشاط وصار يتحبب اليها ويتقرب منها كأنه في ريعان الشباب ويزيد بالفرح والانبساط كلما رأي من الصبية التفاتا وقد احضر المشروبات الكثيرة وصرف مالا غير قليل (وكنت انظر اليهما بعين الاستطلاع متعجبا من هذه المناقضة) فمر عليهما نحو نصف ساعة وهما على تلك الحالة ، ومن المؤكد ان فتاة فى سن الخامسة عشرة لا يمكن ان تحب شيخا فى الخامسة والثمانين وتعطيه قلبها عن خلوص ووفاء ثم رأيت الفتاة وقد نهضت واسرعت الى مكانها وجلست وعليها علائم الضجر ولا اعلم ان كان الشيخ كلمها كلاما مغيظا او اغتاظت من شيء آخر ، اما الشيخ فسرعان ما اضطرب وظهرت عليه علائم الحزن والكآبة وقد حاول كثيرا ان يخفى امره عن الحضور ولكن عبثا فقد لاحظ الجميع حركاته وحالته وهو

يحاول أن يحول نظره عن الفتاة ولكن عبثا لأنه كان يشير اليها بعينيه وبديه ورأسه دون انتباه ولما أعياه الأمر أخذ الدمع يتساقط من عينيه كالمطر وقد افتضح أمره ولما رأى بقية البنات حالته أشفقن عليه وألزمن الفتاة محبوبته أن تعود اليه فعادت فانقلب من الحزن إلى الفرح ومن الانكسار إلى العظمة وعاد إلى المداعبة والملاعبة والشيخ كأنه ملك الدنيا برمتها غير ملتفت إلى أحد وقد نسي نفسه وأنه محاط بالناس وأن العيون تحدق فيه ... أما أنا فكنت أتعجب من العشق وحالاته وكيف يفعل بنفوس البشر حتى الشيوخ فان هذا الشيخ قد لعب به الغرام إلى درجة جنونية وتجدد فيه الشباب والنشاط وغاب عنه الصبر والحياء فاذا كانت هذه حالة شيخ مسن مع فتاة من بنات الهوى فماذا ياترى تكون حالة الملك الشاب مع معشوقته التي هي من آلهة الجمال والمحاسن فاننا نعذره على حاله وعلى مالاقاه من الهيام وقلة الصبر من نيل المرام .

وأما الملك فانه صرف ذلك النهار مهموما مغموما وعند المساء عادت البنات على حسب العادة . ومن بعد أن زين الوسط بالمفروشات هيأن السرير ووقفن ينتظرن السيدة بالمشاعل أقبلت الملكة مع حاشيتها وظهرت بكمال البهاء والوقار ومازالت تتقدم حتى دنت من السرير فارتفعت عليه وجلست فوقه . أما أنا فلم أقدر أن أحتمل لحظة واحدة ومع ذلك قلت فى نفسي لأذهب اليها الآن لأرى ماذا تقول فأتيت وجلست في مكان قريب أقدر أن أسمع منه الكلام وأصغت آذانى للسمع ومن بعد أن جلست الصبية على السرير صاحت بالجارية التى كانت سلمتني اليها في فى الليلة الماضية وسألتها عني

فأجابتها الجارية بعد أن دعت لها وأثنت عليها نعم ياسيدتى لقد أخذت الضيف وأتيت به إلى الصيوان وصرفت غاية جهدى لانبساطه وسروره ولما لم أقدر أن أزيح عن صدره الكدر المتسلط عليه تكدرت أيضا وعظم عليه أمره ومازلت فى السعى بخدمته والاهتمام بانشراح صدره حتى الصباح وفي الصباح رششت الماء على وجهه ولا أعلم ماذا عمل هو ولا ماذا جرى له إذ ذاك وبعد ان وضح النهار تركته وانصرفت عنه .

ولما سمعت السيدة من الجارية هذا الكلام تغيرت أحوالها وجعلت توبخها وتعنفها قائلة لها لاي شيء تركته وحده ولماذا لم تبقي معه فأسرعى الآن وفتشى عليه وأين وجدتيه فادعيه الي".

وأما أنا فقد شاهدت من المكان المختفي فيه حالة معشوقتي واضطرابها وسمعت ما قالته للجارية فقلت فى نفسى انها ولا ريب تحبنى فكانى الآن أملك الدنيا وما فيها . ولم يبق لى صبر على الاختفاء فنهضت فى الحال . وأتيت اليها .

فلما رأتنى فرحت جدا واستقبلتني بالأنس والبشر . ثم ضمتني إلى صدرها وقالت لي أى ضيفي العزيز إن شاء الله تكون غير متكدر فاصبر ولا تسلم نفسك لتيار الأحزان فقريبا تنل مرامك وتطفيء غرامك وتقطف وردة حظك من روض وصالى .

ولما سمعت من قمرى الساطع هذا الكلام وعلى الأخص قولها . . . قريبا . . . ظننت أنى فى تلك الليلة أنال مرامى وأحظى بوصلها لكن عدت فاشتبهت وقلت فى نفسي لو كانت تقصد هذه الليلة لما قالت قريبا بل لقالت الآن فمن المحال أن يضمن معني كلامها هذه الليلة حتي لو كان فى الليلة الآتية لما قالت قريبا بل قالت غدا وفيما أنا أفكر فى ذلك جلست على السرير فى موضعها فقادتني إلى جانبها وتبسمت في وجهى بعد أن قبلتني مرارا بين عينى وفوق جبينى وقالت لى ياضيفي العزيز ماالذى عرض لك فى هذه الليلة . فأجبتها ياللعجب تعلمين بحالى وتتغاضين فأنت أدري بحالى منى بل أنت أشد حبا لى من لك فلماذا تتجلدين وتجفى عنى مابقلبك ولماذا لاترحميني قبل أن تترحمى على ولماذا لاترفقين بأحوالى وتنتشليننى من وهدة العذاب المحيق بى أما كفي مافرغت من جعبة وعودك وكثرة صدك واعراضك عني . آه ياجوهرتى الثمينة ويابدرى العديم المثال إلى أى وقت أصبر وإلى متى أتحمل هلمى أنصفيني ارحمينى الطفي بى تكرمي على بقربك أعيرينى عنايتك واهتمامك .

فلما سمعت كلامي تبسمت تبسم الوقار وأحدقت فى وجهى احداق المشفق على وقالت لى . لا يليق بك أن تكون عديم الصبر . مامعني هذا الكلام وأنت ضيفي العزيز وأعز من روحى فقلت لها ابعدى هذا من خاطرك فأنا الآن لست ضيفك ولا أريد أن أتركك وفى الوقت الذى أودعك فيه تودعنى روحى وأذهب عن الدنيا بالاسم والرسم فارفعي من فيك لفظة ياضيفى العزيز فكفانى همى فلما سمعت الفتاة كلامى انبسطت وقالت إذا كان الأمر كذلك فلنلتفت إلى ماهو أهم فأمرت فأحضر الطعام وكان طرز المائدة جديداً مثل كل ليلة وعند تناول الطعام على الطريقة المعتادة جلس البنات فى أماكنهن وأخذت المطربة العود وغنت الفتاة

ذات الصوت الرخيم وطافت الساقية بأقداح الشراب وقد أخذنا فى الحظ والانبساط وبدأنا فى اللعب والمزاح وأدركت محبوبتى ما يخطر بفكرى وقد تقرر فى خاطرى أنى سأفتضها بالقوة فى تلك الليلة ولذلك أشارت إلى البنات فأكثرن على من الشراب ومن ثم سلمتني إلى احداهن فأخذتني الى الصيوان لأجل الراحة . وأما أنا فحيث قد شربت كثيرا أصبحت فى حالة سكر وضياع وانما بعد قليل من الوقت عاد عقلي الى رأسي لكن لم يبق فى اليد حيلة وبعد ذلك لم يبق على الا أن أسكت وأشير بعينى فقط .

وقد صرفنا تلك الليلة على هذه الحالة حتى أصبح الصباح وفى الصباح غاب البنات ولم يبق أحد فى تلك الجهة سواى ولما كنت قد شربت كثيرا فى تلك الليلة بقيت فى حالة الحذر حتى نصف النهار ومن ثم نهضت وابتدأت فى الطواف فى تلك الارض فأكلت شيئا من الفاكهة وشربت بعضا من الماء وحينئذ عدت الى الافتكار قائلا فى نفسي عجبا كيف ينتهى معى الحال وهل أنال وصل الغزال وأطفىء ما بقلبي من نار الاشتعال . وقد صرفت النهار على مثل هذه الأفكار حتي أقبل المساء ولكن بمر النهار والليل كما قد أصبح معلوما . . . وهو أنه بناء علي الخطة السابقة جاءت البنات وزين الوسط وجلسن ينتظرن مجىء سيدتهن حتي ظهرت من بعيد ، وكانت حالتي مهاحرية بالتعجب وكنت أقول فى نفسي وأنا قاطع الامل اني سأبقى محروما من وصالها وأنا محقق أنها تغشنى وتلعب بعقلي فكيف اصبر لا أعلم مع أنها اذا لم ترض لا اقدر ان أمسها أو أجوار عليها . وما لبثت ان وصلت الى تلك المعشوقة السحرية . فهل بقي لى عقل . . . هيهات . . . هل عدت املك شيئا من الحواس . . . حاشا . . . هل لبثت على قطع الأمل . . . كلا . . . فعن غير اختيار رأيت نفسى مجبوراً لملاقاتها مساقا بحبال حسنها وجمالها ونظرت اليها واستقبلتها وأبديت لها واجب الدعاء والثناء بكمال التعظيم والتكريم فتبسمت فى وجهى وقالت ان شاء الله تكون رجعت الى نفسك وعدت الى التأنى والصبر فقلت . كلا . كلا . ياسالبة رشدى ومضيعة حياتى هل هل يمكن للانسان أن يرى وجهك البديع ويقدر على التحمل والصبر . فقالت لا بأس اذا صرفنا أيضا هذا الليل بالصفاء والانس ثم جلسنا أعلى السرير وتحضر مجلس الطرب وبدأنا بالمداعبة والحظ ، ولما كانت تلك الليلة تتظاهر بانحراف الصحة فمن بعد مناولة الطعام واستماع شىء من الغناء والانغام قالت لى ألك رغبة بالفرجة والتنزه

قالت الامر اليك فى ذلك ففي الحال امرت الجواري ان يفرشن المفروشات ويمدون البسط عند مجرى عين من الماء الرائق الصافى وان يزين ارضها بالزينات والزخارف ثم وضعت يدها بيدى وقادتني الي تلك العين فطفنا حولها مدة ثم جلست الجواري حول الماء بترتيب صفاصفا ... نعم إن هذه لذة العمر ... لكن ماالفائدة فاني كنت حزينا لا أفوه بكلمة غير قانع بالحظ والمداعبة والمعاشرة والشم والضم ولا تطمع نفسى إلا إلى شيء واحد ... والحاصل أن الملكة أو بالحرى السيدة فى ذلك المقام نظرت إلي وجهى وعلمت ما أنا فيه من الحزن والهم فأخذت فى تسليتي وتفريجى والتزلف الي . ثم نهضت ولفت يدها على يدي وأخذنا نتمشي فى فسحات تلك الرياض وكانت تلك الليلة الثالثة والعشرين من القمر ولذلك صادف بزوغه فى تلك الساعة فبسط أشعة نوره الضعيف على تلك الخمائل فأنارها ولكنه لم يتمكن من انارة قلبي المسود المظلم مع أنه لولم تكن أفكارى موجهة الى غايتى التى كنت أرى كل شيء دونها عبثا لعلمت مقدار ما أنا عليه من السعادة وأدركت ماهنالك من الحظ الوافر والمناظر البديعة فان نور القمر كان يتخلل أوراق الأشجار فتظهر من فوق الأثمار كأنها أغطية فوق قطوع من فضة وكان وجه الماء يتموج تموجات لطيفة بتلاعب النسيم يتنقل فوقها بخفة روحه وتتلاعب تحتها الأسماك المختلفة الالوان كأنها تقوم بمناورات حربية وأبدع من كل ذلك كان محبوبتي البديعة الفاتنة كانت تبذل كل مافى وسعها لاجل غبطتي وسعادتى ولم تترك بابا لتفريجى وتسليتي فكنت أتظاهر بمسايرتها المرة بعد الثانية ثم أعود فأنقبض مفكرا فى ممانعتها ومطاولتها لى . وأخيرا أخذت قطعا من الخبز وقالت لى هلم فليرم كل واحد منا قطعة فى الماء لنرى أية قطعة يجتمع عليها السمك أكثر ففي الحال أخذت قطعة وألقيتها في الماء اجابة لامرها وانفاذا لارادتها وما استقرت في الماء حتى اجتمع حولها السمك فرمت قطعة فأسرع السمك من قطعتي الى قطعتها ثم رميت أنا قطعة فجاء جهتي وهكذا بقي السمك يأتى ويذهب وأخيرا ألقيت ثلاث قطعات فتزاحم حولها السمك فألقت هي قطعة فلم يذهب السمك اليها كالاول فأبدت التعجب وسألتنى عن السبب فقلت لها ان السمك يحسن الوفاء فقد ألفنى ورعي حق صحبتي فلم يرض أن يتحول عني . فنظرت الى وتبسمت وقالت لى

ستبدى لك الايام ما أنت جاهل ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وبعد أن صرفنا مقدار ساعة على ماتقدم عدنا الى موضعنا وجلسنا على السرير

ولم يمر على يوم من الحظ والسرور كذلك اليوم لأننا عندما طافت كؤوس التهاني ودارت الراح بالأقداح لفتني الصبية بين ذراعيها وقالت لى كن طيب الخاطر والقلب فانى أبشرك بقرب نوال المراد قريبا فاذهب فى هذه الليلة ونم قريراً مع احدى الجوارى ومن تأنى نال ماتمني .

فأصبحت ممنونا منها وقلت فى نفسي ربما لم تعد قادرة على التحمل والصبر لكنها تريد أن تمتحنى لتعلم ان كنت أفكر بأخذها جبرا أو أصبر عليها ولأجل ذلك قطعت على الطريق فمن الواجب أن أصبر وأتحمل فوق طاقتي لأرى النهاية فنهضت وسرت مع تلك الفتاة إلى المحل المعهود وأخذنا معا فى المداعبة والملاعبة والتقبيل والعناق الى أن قرب وقت الصباح فنمنا سواء ونحن على ما نحن عليه ولما كانت اللذة التى ألاقيها كل ليلة من البنات ليست كاللذة مع البنات الآدميات كنت اتعجب من ذلك وأشغل أفكارى قائلا فى نفسي أحياناً ياللعجب ألست من بنى آدم وأحيانا أقول كلا لست من بني آدم ولو كن من بني آدم لما كانت حالتى معهن على ماتقدم لا أرى أثرا لانسان ثم يخطر لى أنهن ربما يذهبن فى الصباح إلى بلد قريب من هناك لطوائف من الانس فيذهبن في الصباح ويأتين فى المساء لأجل التسلية والفسحة . وكانت الأفكار تتلاعب بى فى كل ساعة على معنى جديد وقد خطر لى أن أتملق الجارية وأسألها عن أحوال معشوقتى ومن هي ولماذا تشوقنى وترغبنى ومن ثم تمانع وتدافع عن طلب الوصال وقد أملت الحصول على جواب منها . ففي البداية عانقت الفتاة وأظهرت لها التعجب ومن بعد أن قبلتها فى عنقها وخدها وعينيها قلت لها لي اليك سؤال ياروحى العزيزة فهل تجيبيني عليه بصدق . فقالت لى تفضل فاسأل ما انت سائل فانى أجيبك إلى حد ما أنا مأمورة أن أجيبك عنه وأما منعت عنه فلا أقدر على التلفظ به . ففهمت أنا أيضا ماهو محظور على الجارية التلفظ به وعرفت أنها لا تقدر أن تتكلم بالحقيقة . فقلت لها انى لم أعد أرغب فى سؤالك قط لأنى على يقين من عدم جوابك لى كما اريد فقالت حيث انك تعلم فلا تسأل .

وقد صرفنا الليلة على هذا الحال وفى السحر أيقظتنى الجارية وذهبت بى إلى الصيوان وذهبت لتغتسل ومع انى قصدت ان لا أنام بعد الاستحمام لكن النوم قوى على فنمت برهة ثم استيقظت فرأيت البنات قد ذهبن وبقيت لوحدي في تلك الرياض فنهضت وأتيت رأس عين الماء فغسلت وجهى ويدى وقد تذكرت لعبه

السمك مع ملاكي الفردوسي عند راس الماء في الليلة الماضية وكنت اقول في نفسي ياليتنا نبقى متحدين مع بعضنا ليلا ونهارا على مثل ما كنا في الليلة الماضية رباه ماهذه الحالة وكيف هذا العمل وجعلت افتكر متحيرا في قدرة الله سبحانه وتعالى ومن ثم نهضت عن الماء واخذت اتمشي بين الأشجار حتى أقبل الليل فلبثت منتظرا عودة روحي إلي جسمي . وحينئذ كسابق العادة ظهرت غيمة بيضاء اولا ثم اخذت تتقدم نحوي وتنتشر حتى لاحت المشاعل والبنات كأنهن زهر البنات ولما توسطن المكان اخذت في اعداد الفرش والبسطة ثم نصبن في وسط الاسرة سرير محبوبتي البديعة ووقفن ينتظرن قدومها . ولم يكن الا القليل حتى اقبلت محاطة بجواريها تتمايل كأنها قضيب بان هزه ريح الصبا وبين أيديها المشاعل تضيء كأنها الكواكب في افق السماء .

وما زالت تتقدم بالدلال والتيه إلى ان قربت من السرير وجلست فوقه . وكنت لا أزال عند الماء افكر فيما هو اهم من كل امر لدى ألا وهو الحصول علي المأمول أي نيل وصال محبوبتي واطفاء نار لوعتي . ولكن لما حضرت البنات واصبح كل شيء حاضرا فارقت الماء وتقدمت بكمال الفرح والنشاط حتى دنوت منها .

فلما رأتني صفقت من السرور ونهضت وقبضت على يدى واجلستني الى جانبها ثم سألتني عن حالي ومايشغل بالي فقلت ألا تعلمين ياسيدتي وما الكتني فلماذا تتغافلين عنى فتبسمت وقالت لي ان شاء الله يزول همك وتنال غايتك فأجبتها الى متي وكيف ارفع الهم وأنال المرام بعد مفارقة الروح وشرب كأس الحمام فلا زلت تقولين لى حتى تدنو الفرصة حتى تغتنم الفرصة ايوجد فرصه احسن من هذه فهيا بنا .

لأقول للعذال موتوا حسرة　　　هذا الحبيب وها انا اتمتع

ثم تقولين لي ان لم تصبر تندم أهل بعد إتمام العمل واطفاء لوعة الوجد بنوال الوصل منّ نظم او حسرة

اذا العشق أحنق القلب واللب فالدوا

هو الوصل من ليلي وليس من السوى

فأنت اليوم المقصود من عشقي وبك قلبي قد ابتلي وبغير وصالك لااجد لي

من دواء فاذا منعت الدواء طالت العلة وقادتني الى الفنا فهل من ندم على زوال العنا ونوال المنـــا .

فلما سمعت الصبية كلامي قالت انى اعلم مالا تعلمه ولذلك اقول لك لا تعجل فتندم وانى لا امنع عنك الدواء عندما يكون به الشفاء واما الآن فاعرف ان هذا الدواء لا ينجع فى علتك بل يزيد بلواك ويكثر أوجاعك ومتي آن وقت الوصال دعوتك اليه بغير مطال ألا تعلم ذلك . قلت كلا ياروحى السا كنة بين ضلوعي لا أعلم إلا انك تكثرين من الوعود وتطيلين فى عذابى حتي تبلغ الروح التراقي فتبسمت وضمتني وقبلتنى وقالت جرب الصبر تر حلاوته .

ثم بعد المعاتبة والمداعبة نهضنا الى سفرة الطعام وأخذنا فى تناوله وكان بقية الجوارى يطفن من حولنا كالهالة حول القمر يخدمننا ويقدمن لنا الطعام . ومن بعد أن تناولنا الطعام نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا ثانية للجلوس على السرير وعاودنا المداعبة والملاعبة . ثم خطر للصبية ما لقيته من المسرة على الماء فى الليـلة الماضية فأمرت أن تنار العين بالأنوار وتفرش حولها المفروشات وبأسرع من لمح البصر تهيأ كل شيء فأتينا الماء وجلسنا على حافة العين وابتدأنا بملاعبة الأسماك غير أن عقلى وفكرى كانا عند معشوقتي أراقب حركاتها وأحدق فى وجهها وأنتظر منها إشارة تبشرنى بزوال العنا ولما انتصف الليل دعت جارية فسلمتنى لها فذهبت معها ونمت إلي اليوم الثـانى فذهبت البنات وأصبحت وحيدا فريدا فأخذت فى في التمشى والانتقال كسابق عادتى وقد صرفت على هذا الوجه ٣٧ ليلة لاقيت فيها من الهناء أعظمه ومن العناء وتبريح الهوى أشده وقد أصبحت حالتى معلومة فلا لزوم للاعادة ... وقد قلت فى نفسى لقد قطع الأمل من وصال محبوبتى ومن اللازم أن آخذها جبرا وغصبا لان التضرع والالتماس لم يجديانى نفعا فماذا يجدي اذا أجريت اقتناصها بالرغم منها ولما كانت الليلة الثامنة والثلاثين جاءت على حسب عادتها وجلست على سريرها وأنا الى جانبها ومن بعد المعاشرة وتناول الأطعمة النفيسة ضربت الآلات وغنت المغنيات وشربن الخمور ودارت برأسنا مفاعيلها وكانت الصبية قد أدركت من سرورى الغير معتاد أن قصدي غير حميد فعمدت الى الحيلة وقالت لى هلم لنصرف هذه الليلة فى الحديقة ثم أمرت بتعليق المصابيح فوق الأشجار وفرشت المفروشات تحتها وعنيت بأن يجلس تحت كل شجرة خمس منهن ويبدين لى تلك الليـلة كل طرق التسلى والانبساط فأجيز أمرها ونهضن

بعضهن حاملات آلات الطرب وبعضهن أقداح المدام وبعضهن اهتممن باتقان المقام . وقد نصبن فى وسط الحديقة سرير سيدتهن فوضعت يدها فى يدي وأتقيا السرير فجلسنا عليه وطافت من حولنـا الجوارى كالهالة كأننا فى كرسى الملك نأمر وننهى بما نريد فأخذت أفكر فى نفسي عن هذه الحال وأقول عجبا هل حان الوقت ثم بعد التفكر والتأمل أردت التقرب منها واجبارها على ما أريد ففتحت فاها وخاطبتني .. ماشاء الله فلله درك من عاشق غير قادر على الصبر والتأنى لقد قرب وقت احتضانى فاذا كنت تصبر يوما فأنا من نفسى أدعوك لنوال المراد وبلوغ المرام كي لا تبقي حسرة فى قلبك فلا تخف من ضياع الوقت ... فقلت نعم أخاف ... فكم من مرة غششت حتي صرت لا أصدق بكلمة فى هـذا المعنى ولـكنى عند النظر في وجهها لم أعد أتمالك نفسى فتاه عقلى وغاب رشدى ولم أعد أدرك شيئا مما حولى

وقد صرفنا تلك الليلة على البسط والانشراح فما رجوتها ولا التمست منها السماح بالوصال ولا جبرتها عليه . وبعد أن صرفنا الليلة الثامنة والثلاثين على ألف نوع من أنواع التسلى والحظ . وأصبحت في اليوم التالى وحيدا فريدا شعرت من نفسي بعدم الصبر فى الدرجة الأخيرة فلم أعد قادرا على أن أتصبر ولم يبق لي طاقة على التحمل فقررت فى نفسي ووطدت العزم على أن لا أتوقف فى هذه الليلة عن أخذها جبرا نعم انى لا أرى نفسى جسورا إلى حد أن أرغمها على التسليم معى بما أريد منها لـكن ما العمل وقد فقدت اصطبارى ولم تعد لى قوة على الاحتمال فيلزم لى شجاعة فوق العادة لأباشر هذا الأمر نعم سأتخذ هذه الشجاعة واترك كل حياء وخجل وخوف . والا لو صبرت عليها وهى تعدني وتقول لى كل ليلة غدا ولمرت الأيام والسنون وأنا أتقلب على جمر التحرق والهوى وقد ثبت لدى أن هذه الصبية لا تؤخذ الا جبرا وهى ربما كانت لا تسلم لى الا بهذه الطريقه ولا تلين وتجيب الا متى رأت منى الاصرار والحـدة وقوة العزم شأن كثيرات من النساء مثالها فيما نعن فى بادىء الأمر تظاهرا بالتعفف ثم يجبن عند الارغام والحدة وفى عقولهن أن الرجال يقنعن انهن سلمن اليهم جبرا لا طوعا وعلى هذا الوجه قطعت وحتمت ووطدت العزم ونويت كل النيـة بأن لا أصبر على وصلها تلك الليلة مهما جرى فاما أن اموت واما ان اعيش .

ولما أقبل المساء وردالبنات أيضا وبسطن المفروشات واحضرن السرير ووقفن

فى انتظار مولاتى ولم يمر على ذلك الا دقائق قليلة حتي ظهرت من بعيدظهور البدر من وراء حجاب الظلام فأخذ قلبي يدق واعضائى ترتجف عند اول لحظة بانت فيها وكانت تتقدم متمايلة تمايل الغصن فوق الكثيب وكلما دنت منى كلما زادت نورا واشراقا حتي وصلت الى سريرها فجلست عليه أما أنا فقد صممت العزم وأكدت النية على الثبات على عزيمتي فاما أن أضحى بحياتي في تلك الليلة أو انى أحتضنها وأنال منيتى وبغيتى منها وكذلك قد عزمت أن لا أكثر من شرب المدام ولا من أكل الطعام كي لا أسكر وأغيب عن الهدى كالعادة ونطلب نفسي المنام بل أبقى منتبها لنفسى ساهرا على انفاذ مرامى فلا أغش ولا أقاد كالطفل الصغير .

ولما دخلت على مجلس البنات نهضن الي كالعادة ولاقيتنى باحتفاء واحتفال وبعد أن جلست الي جانب الصبيـة بدأت بمداعبتى وملاعبتى وأنا أرتجف وأضطرب من تأثير إصرارى على إنفاذ أفكارى .

ثم أحضر الطعام فأكلت ماسددت به رمقي وبعد أن رفع الطعام احضرت سفرة المدام وعليها من كل فاكهة زوجان وأخذ البعض من البنات آلات الطرب فهذه حملت عودا وتلك طنبورا وهاتيك شغلت بربط الاوتار وأخذن بالغناء والضرب على الآلات وأما أنا فبقيت مصرا على اتمام ماعزمت عليه أردد فى نفسى ما تقدم بيانه اي كنت أقول بروحى وأما بالوصال

اذا كنتم تبغون روحى بوصلكم خذوها فروحى فى الوصال قليل

وعلى هذه الحال تعانقنا وبعد أن أكثرت من تقبيلها فى خديها وعينيها وفمها ومسست شفتيها أخذت بالرجاء والالتماس وفتحت باب الطلب وأنا أمر بيدى على جسمها الناعم الطري فيزيد بى الهيام والميل الوحشى فسحبتها الى وقلت لها آه يامليكتي ومالكتى ولم يبق لي احتمال ولا صبر ولا عدت أرى فائدة فى حياتى فأسعديني بوصلك وارحمينى تكسبي أجرى فماذا يضرك لو قلت لى هلم فاقض غرضك واشف مرضك ونل مشتهاك . فلماسمعت كلامى تبسمت وقالت لى أنت محق ياحبيبي لكن أقول لك الصحيح وأبشرك أن مرامك ينتهى عندما تكمل الاربعين ليلة فهذه الليلة هى التاسعه والثلاثون ولم يبق عليك إلا ان تصبر هذه الليلة فقط وفى الليلة الآتية ستنال غرضك قطعا وبدون شك

فماذا ياترى هل أصدق وعدها وقد سمعت مثل هذا الكلام كثيراً فصبرت

ولذلك قلت لها كلا لا يمكن لانك أيضا تقصدين غشي وخداعي في هذه الليلة أريد قضاء حاجتي ولا أصبر قط فاما أن أحصل عيها واما أن أبيع حياتي وأضحي ذاتي فزاد تبسمها وانعطفت علي وقالت لي اصبر هذه الليلة فقط فاني أعاهدك صدقا ولا أخلف وعدي معك ففي غد تنال مرامك وتطفيء جمر هيامك فالصبر لك أفضل فالمال مالك وليس اسواك وصول اليه فلا تضيع مالك ولا تعجل فتندم فاشرب المدام وكل الطعام واطرب وافرح وقبلني ما شئت وضمني ما قدرت وافعل كل ما يحلو لك غير الوصل فالي غد وما هي الا ليلة تنقضي فقلت لها كلا كلا لا يمكن فهل بعد مرور مقدار ماسمعت منك من كثرة الوعود والعهود أصدق ولاسيما هذه الكلمه (ستندم) فقد سمعتها كثيرا فما عدت أخدع ثانيه وعبثا تمانعيني وتدافعيني لان هذه الليله هي الاخيرة فالذي ينظر هذا الوجه البديع ويشاهد هذا الجمال الباهر لا يصبر عليه لحظه واحدة ولا يقعد دقيقه واحدة عن المخاطرة بالحياة في سبيل نوال المراد فكيف صبرت ثمان وثلاثين ليله مع أن تشويقك وترغيبك ودلك وغنجك تزيد في الرغبه والتهالك في طلب الوصال انك تمنعين عن ظمآن ملتهب الفؤاد مثلي ماء زلالا وتقولين صبرا لاتشرب أأصغي بعد الى مواعيدك أأتخلى عن فتاة بديعه مثلك وهي في قبضة يدي فاذا كنت آدمية فأنا آدمي فاذا كنت جنية فأنا ايضا عاشق مجنون سكن فؤادي عفريت غرامك وهواك ولهذا ترينني واقعا عليك مصرا على نوال المراد لا أنفك عنه ولا أتركه ولا أصبر دقيقة بعد ولا أرجع إلا فائزا منصورا فهلم ارحميني أنصفيني فقد بلغ الصبر حدة ومن جهة ثانية أراك تقولين لي اصبر لاتحزن ولا تتكدر فأنا ملكك وفي يدك لكن هل أغفل عن حكم القدر فاذا انفصلت عني وغبت ولم أعد أراك فماذا يجري في وماذا يصيبني مع أني لا أقدر أن أغيب عنك لحظة ولا أريد أن تبعدي عني دقيقة والآن لم أعد أرى أن الحياة لازمة لي فاذا كنت لا أنال مرامي في هذه الليلة مطلقا أصير مجنونا .

فلما سمعت الفتاة كلامي ورأت اصراري أخذت في ملاطفتي وجبر خاطري وقالت لي انك مصيب ومحق وان المملوكه ملزومة بالطاعة لمالكها فها أنا حاضرة مستعدة لانفاذ أمرك وقضاء غرضك انما عليك أن تصبر هذه الليلة فقط لأن من الصعب أن تنال مرادك في هذه الليلة فاذا شممت من شجر السنديان رائحة العود والعنبر فاعلم أن غرضك قضى وأنك نائل وصالي وفي اليوم الذي ترى فيه أن القمر

وقع فى حضن الشمس اعلم أنى أقع فى حضنك تلك الليلة فتفض الختام وتزيل الغشاء العام ولم يبق لذلك إلا ليـلة واحدة فاصبر فهلم الآن وكن قانعا بالبوس والعناق والضم والشم والا أضعتنى فتندم ولا يعود ثم ينفعك الندم .

فلما سمعت كلام محبوبتى تفكرت قليلا وأردت الانسحاب غير أن الشوق والرغبة وسوء الحظ حملنى على العناد فقلت لها كلا ان الصبر مستحيل على فانى نائل غرضي منك هذه الليلة قبلتي أو لم تقبلي لأنى سمعت منك كثيرا مثل هذا الكلام ثم عمدت الى الرجاء والالتماس فرميت حالي بين يديها وقلت لها الرحمة يا ملاكي الشفقة يا معبودتى فجودى به ولا تمنعينى عنه فانى لا أقدر أن أعيش بعد بدونه فقد أصبحت كالسمك المخرج من الماء تتردد فيه النسمة الأخيرة من الحياة فاذا أعيد إلى الماء عاش واذا ترك لحظة أخرى فقد الحركة فها أنا فى الدرجة الأخيرة من الحياة فاذا قلت لى اصبر ساعة لا أضمن نفسي الى ساعة ولهـذا أرى نفسي نائلا وصلا أو مائتا والسلام فاما أن تسمحي لي بنيل وصلك فأهدم الابراج وأنال المراد وأسعد أو تقطعى جسدي بيديك قطعا قطعا فقد سامحتك فى حياتى وهدرت لك دمي بشرط ان لا تقولين لى اصبر ساعة فمن فى الدنيا من الانس والجن يراك ويرى منك هـذا الترغيب والتشويق ويشاهد بديع جمالك الفتان ويسمع رقة لفظك المسكر ويضم خصرك النحيف ويشم نكهة خديك الموردين ويلف عنقك الابيض الجميل ويقبل فسيح صدرك المرمرى ويلمس أعكان بطنك الناعمة ثم يقف عند هذا الحد ويصبر عن نوال المراد ويرضى بالوعد والتأجيل .

ولما رأتنى فى هذه الحالة وأنا أتكلم وأضطرب وقد اشتد بى الحال وهجت كما تهيج فحول الجمال احمر وجهها من الخجل حتى أصبح في حمرة الورد وبعد ثوان قليلة عادت فتبسمت وقالت لى يا حبيبى وضيفى العزيز اصغ إلي هـذه المرة فقط ولا تلح فتندم ولا تمهلنى زيادة عن هذه الليلة مطلقا ولا تصبر أكثر من ليلة واحدة وفى الغد لا تعد تسمع لى قولا ولا وعدا وانى أعاهدك وأصدقك الكلام ولا أكذب عليك قط وقد جربت سابقا فجرب هذه الليلة فقط ففي مساء الغد افعل ما أنت فاعل ولا تعد تسمع كلمة إلى الغد واذا رأيتني امتنعت عليك أو حاولت التأجيل والتأخير فاعمد الى الجبر والاكراه وأعاهدك أن لا ألومك

على فعلك وإلحاحك وإنما إكراما لخاطري دع هذه الليلة تمر وأجب رجائي والتماسي فكن صاحب مروءة وتلطف واعذر وكيف يصعب عليك الصبر وقد صبرت ثماني وثلاثين ليلة فاصبر هذه الليلة فقط وفي ليلة غد تتم الأربعون ويتم صبرك فتنال غرضك وتقضي مرادك ثم لا تعد تنفصل عني طول العمر ولا أنفصل عنك فيما بعد ثم انعطفت علي وقبلتني ولفت زنودها على عنقي وأكثرت من تقبيلي وأمرت جواريها أن تناولني المدام .

فلما سمعت منها ذلك كدت أنقاد اليها وأطيع طلبها وأصبر ليلة ثانية إلا أن شيطان الطمع أغراني فعدت الى سابق اصراري وقلت : كلا كلا كفي الوعود والتغرير واني على يقين أنك لا في الغد ولا بعده تجيبين طلبي ولا بد أنك بعد أن رأيت مني الاصرار والالحاح علي اقتناصك جبرا اذا لم يكن طوعا تنوين التخلص مني الآن وفي الغد لا تعودين ولا تريني وجهك فيما بعد . آه يا حياتي ونعمتي اني أرى فيك السعادة والحياة فها أنت في حوزتي ولم يكن بيني وبين نيل مرادي الا مد يدي فكيف أصبر الى الغد ان الغد بعيد علي جدا فلا تطمعين بالمحال ولا تتوهمين أني أرجع عن عزمي أو أصبر ساعة أو بالحري نصف ساعة هيا أسرعي أسرعي فقد ضاق بي وجدي وعيل صبري . هيا . هيا . فالوصل لا بد منه الآن وهذا آخر الكلام وقد سددت آذاني عند سماع جوابك واعتذارتك فلا تعودي تجيبني الا بالرضى والقبول .

وحينئذ وقفت الفتاة في حيرة واضطراب بعد أن رأت أن رجاءها والتماسها وتذللها ذهب سدى وسمعت مني مالم تكن تظنه بعد ذلك الصبر الطويل ومع ذلك فقد قالت بعد أن تنهدت وأخذ الدمع يترقرق من عينيها انك الآن لا تريد أن تعدو عن فكرك أليس كذلك ولا ترغب أن تكبح جواد شهوتك فتقبل رجائي والتماسي وتذللي بين يديك وقد رجوتك كثيرا وأرجوك أخيرا حبا فيك ولصالحك أن تصبر هذه الليلة فقط.

فلم أصغ لها ولا وعيت كلامها وكنت متيقنا أن ممانعتها ومدافعتها هذه لأجل التخلص مني في تلك الليلة ثم لا تعود الي فأبقى بحسرة وصالها طول عمري وربما أجن أو أموت ولذلك قلت لها نعم لا أصبر ولا أعدل عن طلبي مطلقا فان لم تقبلي طوعا فكرها ولا يمكن أن تتخلصين مني هذه الليلة ومهما يجري يجري

ثم قبضت على خصرها وسحبتها الى وعاودنا الكرة وألححت عليها بوجوب قبولها والسماح بوصلها الذي لا بد منه ففهمت الصبية اني لا أمتنع وان لا فائدة من توسلاتها فظهرت على وجهها علامات اليأس والقنوط وتدحرج من عينيها على خديها بعض نقط الدموع وقالت لي مادمت لا تنفك عن طلبك ولا ترجع عن اصرارك ولا تريد ان تصبر ليلة واحدة فها أنا بين يديك فقط. در بوجهك الى الوراء دقيقة بينما أستعد لك ثم افعل ما أنت فاعل وسترى عاقبة الحاحك

فلما سمعت منها هذه البشارة كدت أطير من الفرح وقد ظننت أن الدنيا لم تعد تسعني فدرت بوجهي فى الحال لتسرع بتدبير نفسها فأنال وصلها ولو قبل بدقيقة ولم يمر على الادقائق قليلة حتي قالت لي هلم در بوجهك الي ونل غرضك واشف مرضك فدرت بوجهى وأنا في ارفع فرح وأعظم مسرة ولكن ماذا رأيت (والله لا يرى احدا) رأيت نفسى فى الخرابة التى احضرنى اليها الجزار جالسا في الصندوق الذى رفعت فيه كما تبين فى بداية القصة وقد التصقت يداى الاثنتان فى اطراف الصندوق والظلام قد غطى الخرابة ولم اعد اسمع صوتا ولا حركة ولبثت مدة فى عالم الذهول والحيرة ولما انتهيت من غفلتي حدقت فيما حولى متحيرا لأتأكد اين انا وهل انا فى يقظة أو فى منام واذا بى ارى شخصا يتقدم الى تحت جنح الظلام ولما اقترب مني تبينته واذا هو الجزار وما كدت أتأكده حتى غبت عن الوجود ووقعت مغشيا على فاهتم الجزار باخراجى من الصندوق ثم جعل يرش الماء على وجهى حتى انتبهت ولما سمعت صوته عدت وأغمى على وهو يهتم بى وبقيت اغمى وافيق عدة مرات واخيرا فتحت عينى وجلست

ثم وقفت وأخذت فى البكاء على غير اختيار مني وبعد ان مر على نحو ثلاث ساعات تقريبا وأنا فى حالة يرثى لها اخذ الجزار يسليني ويعزيني وقد قال لي ارفق بنفسك ياسيدى الملك لو كنت اخبرتك عن الحالة التي رأيتها بعينك وبينتها لك بالتفصيل حالة حالة وكل ماشاهدته ورايته ولمسته واقسمت لك الف يمين لما كنت صدقتني ولو كنت انت تحكي هذه القصة لأحد هل يصدقك كلا ولذلك قصدت ان ارسلك الى هناك كي ترى بعينيك وتلمس بيديك وتسمع بأذنيك فتتأكد هذا البلاء الذي وقع علينا كلنا فألبسنا السواد والآن لم يبق قط من فائدة فقد مضي مامضى ولم يبق فى اليد حيلة فقط عليك ان لا تخبر احدا بذلك فاكتم امرك واصبر على ما بليت به فلك اسوة بنا .

فلما سمعت كلام الجزار شعرت بأن الدنيا قد سقطت على رأسي فاحمرت عيناي حتى لم أعد أرى بهما ما لدى فعمدت إلى إهلاك نفسي فمنعني الجزار وقبض على يدي وإذ ذاك تساقطت الدموع من عيني كالأمطار وما زلت أذرف الدموع حتى شعرت ببعض الراحة وعاد إلى عقلي كل هذا والقصاب يهتم بي وقد قال لي أخيراً ارفق بنفسك ياسيدى وفكر أن ما مر عليك كان فى الحلم لا فى اليقظة فما أنت أحسن من أهالى هذه المدينة فالصبر والاتكال على الله أفضل الأشياء فما الذى رأيته بكاف ليغير من اعتقادك بالله وايمانك به فاعمد الى طلب الصبر منه ترى العزاء والسلوى وإذ ذاك اتكلت على الله فعدت الى الصبر متكلا عليه تعالى لكن خطر لى أن أساوى أهل المدينة فألبس السواد وأصرف باقي عمرى فى الحداد على ما أصابنى وفقدته فوجدت أن الجزار قد هيأ لى الثياب السود فأحضرها معه فأفرغها على وقادنى بيدى تحت ذلك الظلام حتى دخلت بيته فجلسنا دون أن أفوه بكلمة وأنا غارق فى بحر من الافكار أقول فى نفسى أين كنت وماذا رأيت وأين الصبية حبيبتي وجواريها وكيف خسرت ذاك النعيم وتلك السعادة لسبب الحاحى وتعدى على سلطان الجمال واصرارى على جبرها واغتصابها دون حق مع انى ضيفها وربما كانت صادقة فى قولها أنها فى ليلة الاربعين تسمح لى بدوام السعادة فجعلت أعض على اصابعى ندما لكونى لم اسمع منها وقد نبهتني وحذرتني وقالت لى انك ستندم حيث لا ينفع الندم وفيما أنا على ذلك رفع الجزار يده وقال لى ياسيدي الملك ان الندم على ما فات من أشد الحسرات والبكاء والنواح من مجلبات الانزاح والأنين والتنهد مما يزيد المصاب ويعظم العذاب وقد أصبح من المستحيل أن ترى وجه تلك الصبية التي فقدتها وقد مر علينا أكثر مما مر عليك من الحزن والأسف فبعضنا مات وبعضنا جن والباقى كما ترى وما من واحد الى نتيجة وذلك كله من أيدينا لأنه ما من واحد قدر أن يصبر أربعين ليلة على نوال غرضه فحمله الالحاح والاصرار على الانفصال بالرغم عنه عن آلهة الجمال التي كنت عندها وقد جرب الكثير الرجوع ثانية فعادوا إلى الصندوق ونزلوا فيه فلم يتحرك ولا انتقل من مكانه وناموا فيه ليالى وسنين دون فائدة وقد كسروه ليمحوا الناس منه فبعد أن يكسروه وينشرون قطعه فى الفضاء يرونه فى مكانه كما هو ولما أعيتهم الحيل تركوه صاغرين وصار كل واحد منهم يندب حظه بنفسه ومن العجائب أن ما من واحد نوي وأصر على الصبر أربعين ليلة صبر

أكثر من الليلة التاسعة والثلاثين . وأنا كنت أحسب الليالي على ذهابك من عندى فلما وصلت إلى الليلة التاسعة والثلاثين تأكدت رجوعك فسرت اليك لآتى بك إلي هنا وأخفف عنك بعض العذاب خوفا على حياتك وعقلك لعلمى انك ملك عظيم وأن الرجوع الي ملكك خير لك من التحسر والتأوه فقد سلمك الله عباده لتحكم فيهم وتعدل بينهم وتصرف باقى عمرك فى النظر الي مصالحهم ولذلك فأنت فى حاجة إلي الحكمة والدراية والتأنى والصبر بعد أن علمت سر مامضى وشاهدته وثبت لديك أن لا أمل بالرجوع الى ماكنت فيه فاتكل على الله ولا تفكر بتلك الحوادث التي مرت عليك كالرؤيا وافتكر بنعمة الله فيهون عليك الأمر ويسهل المصاب .

فتعزيت بعض العزاء بكلام الجزار وملت بأفكارى الي الله ورعيتى وخطرت على بالى مملكتى وبلادى فصرفت باقي ليلتي عنده وفي الصباح ودعته وخرجت من بيته فبعت كل أمتعتى وما لدى حتى خف على الرحيل وخرجت من المدينة حزينا يائسا أقول أواه ياليتنى لم آت إلى هذه المدينة ولم أشاهد ما شاهدت فماذا ياترى كان يضرنى لو كنت صبرت ليلة أخرى ولا خسرت ذلك النعيم كل هذا كنت أفكر به وأنا فى الطريق وقد صممت على ترك الملذات والافراح ونويت أن اصرف باقى عمرى بعيدا عن كل حظ ومسرة عاكفا على عمل الخير والاحسان وبعد أيام دخلت عاصمة مملكتى ومنذ ذلك اليوم وأنا بعيد عن كل مسرة وحظ كما تريننى فهذا هو السبب فى حزنى ولبسى السواد

ثم قالت الجارية لوالدتى انه ما انتهى الملك من كلامه إلي هذا الحد حتى تأوه وتنهد وصاح من الألم ووقع إلى الارض مغمى عليه فاضطربت وتأثرت لمصابه تأثرا عظيما ولذلك لم أعد قادرة على أن أتمالك نفسى فوقعت فوقه غائبة عن الوجود ولم أفق إلا والخدم والجوارى حولى يرشون الماء على وجهى فلما تمالكت نفسى لم أر الملك ثم سمعت أصوات البكاء والعويل فنهضت مذعورة وسرت بعض خطوات وسألت الجوارى عن الملك وعن هذا العويل فقلن لى ان الملك قضي نحبه فما طرقت أذنى هذه الكلمة حتى عدت إلى الاغماء ثانية ولبثت على ذلك عدة ساعات ثم حضر إلى بعض الوزراء فسألونى كيف قضى الملك نحبه مع أنه كان بالامس بصحة جيدة فقلت لهم كنت وإياه على خلوة ونحن فى حديث فطلبت اليه أن يخبرنى عن السبب الذى أوجب لبسه السواد وتركه الحظ والفرح .

فلما سمع كلامي أخذ يبكي ويذرف الدموع السخينة وبدون أن يفوه بكلمة صاح صيحة عظيمة ووقع على الارض مغشيا عليه فارتعدت وتأثرت ورميت نفسي فوقه دون وعى ولا إدراك ولم أفق إلا والبكاء والنواح قائم فى القصر فصدقوا كلامي وقد امتلأ القصر برجال الدولة وأعيان المدينة كلهم ينوحون على الملك ويندبونه ثم واروه التراب أما أنا فمن حينئذ تأثرت كثيرا على الملك وعلى ما أصابه فى القصة التى رواها لى وقد رأيت نفسي بعد الملك مهملة متروكة زهدت الدنيا وسكانها فلبست السواد وعاهدت نفسي أني لا أتركه طول عمري وقد مرت على السنون وتغيرت الأحوال وتقلبت على حوادث كثيرة وأنا كما ترين . فهذا سبب لبسي السواد وقد أخبرتك به . ولما انتهت من حديثها حتى تحسرت وتنهدت ووقعت الى الارض مغشيا عليها .

وأما والدتى فانها عندما سمعت من الجارية هذه القصة تأثرت منها كثيرا وأذرفت دموعها على خديها لما لحق بها من الشفقة عليها ثم مالت اليها وأمرت باحضار الماء والروائح الزكية فصبتها على وجهها ولكن بدون جدوى لأن الفتاة كانت قد قضت نحبها ولحقت بمولاها الملك . فزاد لذلك غم والدتي وعظم عليها الأمر وفى الحال أمرت بدفنها على الاعزاز والاكرام فدفنت .

ولما وصلت بنت ملك الهند من حكايتها الي هذا الحد سكتت وأما بهرام شاه فقد تأثر تأثرا عظيما من هذه الحكاية وغاص فى الافكار مظهرا غاية التعجب مما سمع وإذ ذاك أطلقت فصيح لسانها بالدعاء للملك وقالت له . أجل يا حبيبي وفخرى فانى سمعت هذه الحكاية من أمي وأنها بعد أن دفنت تلك الجارية ذات الثوب الاسود كان حظ أمي أن لبست الثوب الاسود وهي تتعجب كلما خطرت هذه الحكاية على بالها وتتأثر منها وصارت شغلها الشاغل ولم تعد قادرة أن ترفعها من خاطرها ولأجل ذلك اختارت جاريتكم لبس الاسود لأبقى متذكرة هذه الحكاية فلا أنساها مع أن اللون الاسود مقبول ومرغوب [وهو أليق من غيره مع أنه مبارك وذو قيمة . وهم يقولون ان ماء الحياة فى داخل بحر الظلمات وان اللون الاسود على الابيض من أبدع الزينات ألم يكن انسان العين أسود وهو أفضل ما فى الانسان وكذلك الليل أسود ولسبب سواده يرتاح الانسان تحته من الاتعاب ويكون أمينا من الهموم مغمورا بالحظ والفرح والمداعبات والملاعبات مع حريمه اللاتى وجدن لبسطه وأنسه

ولما انتهت بنت ملك الهند من حديثها كان الليل قد أقبل فقالت له وهاك يا سيدى أثبت لك ما قلته وأقدم لك دليلا واضحا فالليل قد أقبل وجاء زمن الانبساط والانشراح . فسر بهرام لكلامها وضمها اليه فقبلها فى عينيها وأمر باحضار موائد الصفاء لانه قد سر منها سرورا لا مزيد عليه وقد عدجيئه للقصر الاسود فأل خير بناء على هذا البرهان الذى سمعه من زوجته فحمله على أن تزيد محبتها فى قلبه وتتضاعف وأقبلا معا على الحظ والانبساط

ولما جاء وقت الطعام هيأت سفرة عليها من كل أنواع الطعام الفاخر الزكي فجلس عليها الاثنان وبعد تناوله الطعام دخلا الى غرفة خاصة كانت مزينة بجميع أشكال الزينة فرآها مناســبة للراحة وصرف السهرة فيها علي ما يرغب وبعد أن أقام فيها مع زوجته على المداعبة واللعب والعناق والتقبيل جاء وقت النوم فدخلا السرير بكمال السرور والنشاط فصرفا عليه ساعتين لا ألذ ولا أشهى منهما على قلب العاشق الولهان ثم خضعا لحكم سلطان النوم فناما حتى الصباح .

وفى الصباح نهضت الفتاة قبل بهرام شاه فهيأت معدات الحمام وعادت فوقفت عند رأسه حتي استيقظ فرآها تنتظره فمد يده وسحبها اليه ثانية وعانقها ورفعها إلى السرير وداعبها ولاعبها ريثما هدأ شوقه وسكن بلباله ثم دخلا الحمام واغتسلا وهما على ما هما عليه من الانبساط والانشراح وكانت قد سألته بعد أن يخرج من عندها إلى أى قصر يريد أن يذهب اليه فقال لها إلى قصر هماي بنت ملك الروم ولذلك أحضرت اليه ثوبا ملوكيا أصفر اللون فأفرغته عليه بيدها وهى ترشه بالروائح العطرية وتقبله وتضمه . وقد تعجب بهرام من عملها ومن تهيئتها الثوب الأصفر موافقة لضرتها التي سيذهب اليها فسألها قائلا لا يمكن للمرأتين المتزوجتين برجل واحد أن تحب احداهما الأخري أو تميل اليها فلماذا هيأت لى الثياب التي ألبسها عند ضرتك المزمع أن أبيت عندها في الليلة الآتية فأجابته بعد أن دعت له بدوام العز وطول البقاء اعلم يا سيدى ومحبوبي أنك تكلمت بالحق وأتيت بما عليه أكثر العالم لكن العاقل من النساء والرجال لا يترك مجالا لايجاد القيل والقال ولا يأتى سببا يكون وراءه الهم والغم والنزاع ولا يفكر لحظة واحدة بالمشكلات والمجادلات العديمة الفائدة فلو فرضنا الآن أن اهتم الانسان بالمحال أو صرف أيامه بالهم والكدر أيجد من ذلك فائدة فهل لو كنت أصر الآن وأرجوك قائلة

اكراما لى ولأجل خاطرى اترك نساءك الست واصرف أيامك عندي أيمكن لك
أن تتركهن وأنت على ما أنت عليه من العقل والحكمة والانصاف والميل إلى المساواة
بين الرعية فكم باخرى بين أهل بيتك وحريمك . فأجابها بهرام شاه لقد أحسنت
لأنك لو سألتني هجر غيرك والبقاء معك لجلبت لى الهم والكدر دون فائدة وربما
نفر قلبي منك غير أنك حملتنى على الامتنان منك بالمحافظة على راحتي وهنائى وعدم
تكدير صفو حياتي بالقيل والقال والتشكى ولا أرى بداً من مكافأتك برفع
مكانك فى فؤادى لأن الزوجة العاقلة هي التى لا ترى إلا راحة زوجها وابعاد
الأضرار والأكدار عنه والاهتمام بكل مايرضيه ويسره وبذلك تستعبده وتعيش
معه العمر مكرمة سعيدة . ثم إن بهرام بعد أن خرج من الحمام وارتاح قليلا
وشرب ما كان قد هيىء له من الشرابات اللوزية وماء الورد الممزوج بالسكر قام
لوداع زوجته نور فقبلها وقبلته وسارت برفقته حتى منتهى السلم وهناك أعاد
التوديع ثانية ثم ركب وسار بالعز والاجلال لابسا الثياب الصفراء

﴿ بهرام شاه فى قصر هماى ﴾

ولما ودع بهرام شاه بنت ملك الهند صاحبة القصر الأسود كما تقدم وخرج
من عندها فى صباح يوم الاحد محفوفاً بالخدم والحشم قاصدا القصر الاصفر
حيث تقيم الملكة هماى بنت ملك الروم فلما قرب من القصر ترجل عن جواده
ودخل بها إلى الحديقة وكان فى وسط الحديقة بركة من الماء مزينة بالنقوش
ومحاطة بالكراسى والاسرة الذهبية الصفراء فجلس واياها على سرير واحد
مفروش بالحرير والاطالس الصفراء وبدأ بالانبساط والانشراح واللعب والمزاح
وقام بين يديهما الجوارى والخدم يتلقون الاوامر ويتسابقون الى مايطلبه مولاهم
ومولاتهم وبعد أن استقر ببهرام شاه الجلوس ورأي نفسه بغاية البسط والانشراح
وفى يده والى جانبه زوجته هماي وهى من أبدع خلق الله صورة قام فصلى صلاة
الشكر لمولاه وشكره على نعمه وكرمه حيث ملكه ملكا واسعا وأوصل الى
يده سبع بنات من بنات أعظم ملوك العالم وأجمل فتيات الدنيا ثم عاد فجلس واذذاك
قامت بنت ملك الروم فوقفت بين يديه ودعت له بالبقاء وطول العمر وسألته
اذا كان يتنازل ويسمح لها أن تحكى له حكاية من حكايات الزمان العجيبة ويمن
عليها بالاصغاء الى كلامها . فسر لذلك وأبان لها رغبته الى سماع حديثها فأعادت

الثناء عليه والدعاء له وجلست فى مكانها الى جانبه وأخذت فى الكلام فقالت :

حكاية ملك العراق

يحكي أنه كان فى بلاد العراق ملك حكيم عاقل عادل منصف صغير السن لا يتجاوز الثلاثين من العمر وكان على جانب عظيم من العلوم والمعارف لانه كان قد درس كل فن من فنون الآداب حتي حساب النجوم والافلاك وغير ذلك من العلوم والفنون ففي ذات يوم رأى أن يعمل لنفسه طالعا يعرف ما يكون له من نحوس الزمان وسعوده فتبين له أنه فضلا عن أنه لا يكون له حظ من النساء فقد رأى أيضا أنه سيناله ضرر بسببهن ولذلك تكدر فى نفسه وصمم على أن يصرف العمر دون زواج فيبقي بكرا الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا وينتهى عمره ولم يعد يريد أن يسمع باسم النساء وبناء على ذلك صرف مدة طويلة لا يخطر بفكره جنس النساء قط الى أن غلب عليه حكم القضاء وأخذت أفكاره تتغير شيئا فشيئا ونفسه تطلب معاشرة الغادات ومبارزة ذوات القدود ومناهدة ذوات النهود فقال ذات يوم فى نفسه لو بقيت أنا بكرا ولم أتزوج وأقرب من النساء فمن المقرر أنى لا أترك وريثا للسلطنة فالاحسن أن لا أستمر على البكارة ولكن ما الوسيلة والهم كل الهم فى وجه النساء وكان كلما انفرد فى خلوة تلاعبت به هذه الخواطر والهواجس وحمله تيار الافكار على تسهيل المصاعب واحتقار المتاعب مع التوغل فى الحزن والملل مشتكيا من طالعه وسوء حظه الذى كتب له مع النساء حيث أن كثيراً من الناس من يكون له حظ وافر ونجم زاهر فى سماء القلوب اللطيفة فيصادف مشتهاه ويلاقي فوق ما يتمناه دون تعب ولا مشقة وربما كان غير حسن الصورة وغير حائز لاى فن من فنون الآداب فان كثيرا من الناس ممن كتب له عدم التوفيق فى معاشرة الجنس الرقيق وان يكون مقبولا محبوبا فانه يكون أديبا وما ذلك الا بحكم الاقدار فضلا عن أن الكثير من الرجال ذوي الآداب والنفوس الكريمة والاخلاق الوديعة والصفات والمزايا النادرة تكون همومهم ومصائبهم وبلاويهم ناتجة عن اتصالهم للنساء وميلهم لهن وتعلقهم بهن

ومالبثت من الأفكار موضوع اهتمام الملك ومازالت تقوى من يوم إلى يوم وتنمو من ساعة إلى ساعة حتى أملّه الفكر وأضناه الهم وأخيرا قال من الموافق

أن أجرب طالعى دون أن أمتزج بالنساء امتزاجا حبيا وأختلط بهن اختلاطا أبديا وعلى ما أري أن من كان مثلى سلطانا عظيما وملكا قويا لا تجسر النساء على الحاق الضرر به أو أذيته بل بالعكس يكون مبجلا معظما مكرما محترما فى غبطة ونعمة فمن المناسب أن أرى طالعى دون الامتزاج بهن والوقوع تحت طائلة حبهن حتى اذا تبينت الضرر فى عشرتهن انسحبت وتركتهن ولما قر رأيه على ماتقدم حضر اليه وزيره الأول ومستشاره وأطلعه على ماتقرر فى ذهنه ومانوى عليه فاستحسن الوزير هذا الأمر ووافقه عليه وقال له ان ما أراه مناسبا ومستحسنا أن تأخذلك عدة من النساء فاذا كن على ما تحب أبقيتهن وإذا وجدت فيهن من لاتوافقك أخرجها وابدلها بغيرها حتي ترى أنهن قد أصبحن على حسب مشتهاك .

فوافق الملك على ذلك واشترى نحو عشرة جوارى ووضعهن فى قصر مخصوص كان قد أمر بتهيئته وإعداده لهن وفى ظنه أنه يعيش معهن على المسرة والحظ ولما كان يعلم أن للعجائز من النساء الدهاء والفطانة ماليس لغيرهن عين عجوزا شمطاء داهية دهياء لكي تراقب الجوارى وتفحصهن وترى من منهن تليق ومن لا تليق وتكون مديرة عليهن وسيدة فوقهن (ومن المقرر أن حال العجائز معلوم) وان قلنا أن حال العجائز معلوم فاننا لا نقصد الكل منهن بل اكثرهن . والنتيجة أن تلك العجوز أمرت بتربية وتعليم الجواري مع أنها كانت إلى حد أسبوع تكتشف حالة الجارية وتستخرج من رأسها خبايا مزاياها . وذلك أنها عندما كانت تقرب الجارية إلى الملك كانت تعظمها وتفخمها وتدعوها باسم ملكة وتبين لها أنها أصبحت زوجة الملك المقدمة فتصدق تلك المسكينة وتقول فى نفسها مادمت أنا الملكة وحرم الملك الخاص فلماذا أتملق باقي الجوارى وأشاديهن فى المقام والعمل فتأخذ فى أن تنهى وتأمر وفى مدة أسبوع تخرج كل مافى جعبتها فتكدر هذه وتوبخ تلك وتشتم هاتيك الى غير ذلك من شروط الامرة والعظمة وحين تراها العجوز على هذه الأطوار تقول فى نفسها ياخائنة ياخبيثة إن تركتك على غيك أوصلت لى اذاك وألحقت بى شرك وربما تسببت فى طردى من بيت الملك فتأخذ فى أن تعائدها وتلومها على عملها مع الجوارى فتقابلها بالاهانة وتقول لها ماشأنك ودخلك فى ما لا يعنيك فأنا أدرى بحالى وبعملي فتذهب العجوز الى

الملك شاكيـة نائحة وتخبره بسوء أخلاق الفتاة ومعاملتها أياها بالقوة والعنف وأنها غير موافقة له . فيغضب على الجارية ويقول للعجوز معاذ الله أن أرضى بغضبك أو أقبل اهانتك فالجارية التي لاترضيك ولا تسر بطاعتك ولاترين فيها السكينة والحكمة والتعقل والكمال لاتبقيها في القصر لأني لهذه الغاية أتيت بك ومنـذ تلك الساعة ينفر الملك من الجاريه ولايعود يقبل أن يراها . فتقدم له العجوز غيرها وتدخل معها في طرق الخداع والدسيسة وعدم التكليف مدة يومين أو ثلاثة والملك يقربها ويدنيها منه ويبين لها حبه واخلاصه ويقدمها حتى ترى في نفسها أنها صارت صاحبه المقام والملك واذ ذاك تغير العجوز مشربها ومعاملتها للفتـاة فيصيبها ما أصـاب غيرها وهكذا حتى طردوا كل الجواري اللاتي أتوا بهن أولا ثم يأمر الملك بشراء غـيرهن كل ذلك والملك لا يعلم خيانة العجوز ودهاءها ومكرها وانها هي المسببة في طرد الجواري بمعاملتها الظالمـه وأنه لوكان في الجواري دهاء ومكر لأدركن دسائس العجوز وقابلنها بالمثل وحاربنها بسلاح المكر وتلقين هجومها بمجن الخداع والحيل بل كن جميعهن من البساطه بحيث لا يعرفن النميمة ولا يسعين في ضرر لتلك العجوز التي تضع في طرقهن العقبات وتحفر لهن الحفائر لترميهن على أم رأسهن .

وبناء على أمر الملك ذهب الوزير الى السوق فاشترى غـيرهن . وجاء بهن الى الملك وفي مدة شهرين أصابهن ما أصاب غيرهن مع أنهن كن يقمن بالواجب اللائق ويبذلن جل مافي وسعهن لرضائه وخدمته ومع ذلك لم يصادفن منه الا النفور والجفاء ومن أين يطيب لهن أو للملك الزمان والعجوز أم الخبائث والدسائس قائمة لهن بالمرصاد ولاتترك للملك مجالا للتمكن من مقابلتهن بالمثـل ولاتدعه يرضى عن واحدة لأكثر من يومين او ثلاثة ايام او اسبوع على الـكثير ريثما يكون قد نال منها غرضه ومن المؤكد ان الملك في هذه المدة القصيرة يكون مهتما بنوال مراده وقطف زهرة غرضه فحالما يأتي الوقت الذي يفكر الملك بأن يعلق نفسه بالفتاة تأتيه العجوز بغيرها وتبين له انها اوفق وأصلح من تلك وانها ذات حسن باهر وجمـال زاهر وانها لاتزال بكرا عذراء فيميل اليها حتى صار ذلك عادة فيه فأكثر من شراء الجواري وامر بالبحث عن كل فتاة جميلة بديعة في كل انحاء مملكته حتى شاع امره بين الرعيـه واشتهر ذكره بحب النساء وسموه

بدلال النساء .... وقد مر عليه مدة على هذه الحال وصارت ترد عليه تجار الجوارى من سائر الجهات طمعا بالأرباح والمكاسب الى أن كان ذات يوم وهو فى قصره دخل عليه كبير الدلالين فوقف بين يديه وأكثر من الدعاء والثناء ثم قال له لايخفي على مولاى أنه حضر فى هذا اليوم نخاس من الصين ومعه عدة من الجوارى كأنهن الأقمار وبينهن جارية لا أظن يوجد مثلها فى جميع الأمصار لا أقدر أنا ولا غيري أن يصفها حق الوصف وليس النظر كالعيان فاذا شئت فاصدر أمرك باحضار التاجر المذكور ودعه يأتيك بالجوارى اللاتى معه لترى هذه الجاريه .

فلما سمع الملك هذا الكلام فرح غاية الفرح وأمر فى الحال بعض حاشيته ان يذهب مع الدلال ويأتيه بالتاجر ويأمره بأن يستصحب معه البنات ليختار مايحلو له منهن فسار ولم يكن الا القليل حتى عاد مصحوبا بالتاجر والجوارى الصينيات ولما مثلن بين يدى الملك نظر اليهن ورأي فيهن من الحسن ما اعجبه لكنه لم يقدر ان يعرف الفتاة التى أشار اليها الدلال لأنهن كن فى الحسن متقاربات ولذلك سأل الدلال أن يدله على التى وصفها فقال اطال الله عمر سيدى الملك ان الجارية التى رأيتها وعرضت صفتها لعظمتك هى ليست هنا فلم يحضرها مع البنات فزاد عجب الملك وسأل التاجر هل لا يزال عندك غير هذه الجوارى واين الفتاة التى يشير اليها الدلال فأجاب بعد الدعاء نعم ياسيد البلاد وولى نعمة العباد لا يزال موجودا عندي جارية من احسن الجوارى لاأظن لها ثان بين بنات حواء لكن لما كنت أعلم أن بها صفة لا ترضي سيدى الملك لم أحضرها مع بقية الجوارى لتأكدى أنها لا تليق بعظمتكم خوفا من أن يهيج عليها غضبكم أو تكون سببا لتكدير خاطركم .

فزاد تعجب الملك من التاجر وقال له ماهي الخصله الرديئة التي توجب تهييج غضبي قال أطال الله عمر سيدى الملك ان لهذه الفتاة مدة سنتين عندى وقد بعتها ست مرات والذي يأخذها فى المساء يعيدها الى في اليوم الثاني أو الثالث وذلك لأنها تكره الرجال ولا تحب مايجده غيرها من النساء فلا تمكن أحدا منها ولو قطعوا رأسها مع أنها كاملة الأوصاف باهرة الجمال زاهرة الخصال فصيحة اللسان خفيفة الروح لذيذة المعاشرة يسر منها جليسها ويثمل بخمر حديثها سامعها ولولا هذه العلة لكانت أليق فتاة بمعالى عظمتك .

فلما سمع الملك هذا الـكلام زاد به العجب والرغبة الى مرأى الجارية فأمر التاجر باحضار الفتاة بالسرعة فرجع التاجر الى مكانه وعاد ومعه الجارية فقدمها للملك فلما رأى الملك حسنها وجمالها وشاهد رقتها ودلالها مال اليها قلبه كل الميل وأصبح فى الحال مغرما بها ولهانا واكتوي قلبه بنار الحب وقد أعجبته كثيرا وعلى الخصوص بعد أن سألها بعض أسئلة أجابت عليها برقة وأدب وحكمة غريبة وقد تعجب من سعة علمها واطلاعها وقد فكر فى نفسه قائلا أنا آخذ هذه الجارية فلعها ترضى وتمكنني منها فألذ بمعاشرتها ووصالها ثم افهم منها ما هو السبب الذى حملها علي كره الجماع فلا تمكن أحدا منها اذ لابد لذلك من سبب وفي الحال اشتراها من التاجر ونقده الثمن وأرسلها الي قصر الحرم . ولما كان المساء دخل الملك الحرم فرأي أن الفتاة قد أحضرت كل أسباب الحظ وهيأت معدات الملك فوق ما يجب وزينت غرفة جلوسه ورتبتها ترتيبا موافقا فى خدمته فسر من ذلك غاية السرور وزادت محبتها فى قلبه أضعاف الاضعاف وبعد أن استقر فى مكانه دعاها اليه وأمرها بالجلوس فأبت وقالت له ان قدرى لم يبلغ إلي هذا الحد فهل يليق بى وأنا جارية حقيرة خلقت للخدمة أن أجلس فى حضرة سيدى ومولاى الملك العظيم صاحب القدر والشأن والملك والسلطان فأطرق الملك لهذا الـكلام ولم يفه ببنت شفة وقد قال فى سره فلندعها بضعة أيام وبعد ذلك نري كيف تصير .

ومن ثم تبسم لها وعاد مشغولا عنها وقد دعا العجوز فأخذتها لتعتني بها وتهتم بشأنها ولما رأت أن الملك يرغب فيها ويهتم بها ويميل اليها انفطرت مرارتها وقالت لا نفع فى حياتى اذا كنت أترك الملك على هواه .

وفي اليوم الثانى خرج الملك الي دار الأحكام كسابق عادته فأرادت العجوز أن تمتحن الفتاة وأخذت فى ذم السلطان وشتمه أمامها ففي الحال احمرت وجناتها وهاج غضبها وأخذت تلتهب ككانون من نار ودنت من العجوز فلطمتها على وجهها عدة لطمات وقالت لها ألا تستحين منى وتراعين جانبي ياخائنه وناكرة الجميل فانك تأكلين خير الملك وترتعين فى نعمه وتشتمينه دون حياء وخجل هل أن ذلك منك عن قلة وفاء أو أنك تجربيننى وتقصدين الضرر بى ثم أعادت الضرب عليها وطردتها خارج الغرفة وأوصدت الباب من خلفها فعظم الامر على

العجوز وكبر عليها المصاب كيف أنها تعاملها بالشتم والضرب بخلاف بقية الجوارى التى كن يخفن منها ولا يتطاولن عليها وقد أقامها الملك عليهن مراقبة .

ولكنها صبرت حتى المساء فدخل الملك دار الحريم فأسرعت الجارية فى الحال لاستقباله من بعيد وقبلت ذيله داعية له بكمال الاعتبار والاحترام فأخذها الملك من يدها وقبلها فى وجهها وسار بها الى الغرفة المخصصة لجلوسه وجلس فى مكانه ووقفت الفتاة بين يديه منتظرة خدمة أو أمرا فطلب إليها أن تجلس فأبت وامتنعت وأبدت لديه معذرة لطيفة مقبولة فسكت وقد اشتد به الحب المقرون بالاعتبار والوقار حتى أصبح كالمخجول أن يطلب اليها أن تجلس بالرغم عليها وأن يمد يده اليها ويلاعبها ويداعبها وينال غرضا منها بل بقى جالسا ينظر فى جمالها ويتأمل فى معني كمالها وهى واقفة بين يديه تنتظر أمره بما يريد من الخدم وفيما هما على ذلك دخلت العجوز بغتة وألقت بنفسها على أقدام الملك

فلما رآها على هذه الحالة تعجب وعلى الخصوص لما رآها تكثر من البكاء والنحيب فسألها عما أوجب لها ذلك فزادت فى التشكى والأنين وقالت له أيليق بمقامك العالى أن خادمتك الأمينة على أغراضك وعلى صالحك التى ربتك وأنت صغير وكانت لك فى مقام الأم الحنون أن تهان وتضرب وتحتقر من الجارية التى أتيت بها الأمس وهى مجهولة النسب لا أصل لها ولا حسب .

فتأثر الملك من كلام العجوز كسابق عادته وعلى الخصوص من كثرة شكواها وأنينها واحتيالها وتلونها فى التذلل والخضوع ونظر إلى وجه الصبية فرآها لم تتأثر ولا تغيرت قط وقد احمرت وجنتاها ووجهها وبان عليها أنها لولا الحياء منه لكانت هجمت عليها وضربتها فى الحال وبعد أن أمعن النظر فيها وتفكر فى حالتها ورأى أن خديها قد توردا من الغضب بلون الجلنار وسال العرق فوقهما كنقاط من اللؤلؤ فزادها بهاء وجمالا أصبح فى حالة العدم وكاد يغيب عنه صوابه ثم افتكر فى هذه المحاكمة الواقعة بين يديه فقال فى نفسه نعم من العبث والعار أن تضرب أمينة الملك فى بيته وعلى الخصوص إذا كانت مربيته وفى مقام أمه . ولكن هل يتصور العقل أن فتاة كاملة الاوصاف بديعة المعانى تتعدى عليها وتضربها بلا ذنب ولا سبب عظيم فلا بد أنها تطاولت عليها أو شتمتها وأهانتها ولذلك استحقت الضرب نعم ليس فقط مربيتى أو أمي بل كانت أهانتنى نفسي لو عاملتها بالقسوة والعنف . وكان يفكر بمثل هذه الافكار وهو

محدق بالفتاة وأنوار جمالها تتدفق من ينابيع المحاسن التي خصها الله بهـا وميزها بأدبها وكمالها عن سواها وحينئذ رفع الملك رأسه وقال للعجوز انى على يقين أنها ما ضربتك إلا لتعديك عليها وإطالة لسانك انك امامي وفى حضرتي تقصدين إهانتها وغضبها بقولك عنها لا أصل لها ولا حسب فهذا الـــكلام وحده كاف لمجازاتك وقصاصك ألا تعلمين أن شرف الملك يشرف كل من فى حوزته فيجعلهم ذات أصل وحسب ويرفعهم عن باقي رعيته خصوصا حرمه الخاص فأنت ليس فقط تقصدين تحقير الفتاة بل تقصدين تحقيرى أيضا

ثم أمر فى الحال باحضار عدة جوارى من الجوارى السود وقال لهن اليكن هذه العجوز الشمطاء فاحبسنها في غرفة مخصوصة وليقم على حراستها أربع منكن ولا تدعنها تخرج خارج الغرفة إلا لقضاء حاجة ضرورية واذا بلغنى أنها ملــكت حريتها ساعة واحدة أو كلمت أحداً أو خرجت بلا داع موجب أعدمتكن الحياة فأطاع الجوارى الأمر وسجن العجوز وفعلن بها كما أمر الملك وشددن عليها كل التشديد لأنها كانت تعذب الجميع

وأما الفتاة فانها لمـا رأت أن الملك جازى العجوز من نفسه دون أن يسألها عن السبب بل قرأ ذلك فى وجهها طاب خاطرها وانصرف عنها الغيظ ورأى الملك منها ذلك فسر وقال في نفسه لا بد أن معاملتى هـــذه ترضيها فتلين وتخضع فأتلذذ بوصالها وأتمتع بجمالها وأتغلب على عنادها كل هذا والفتاة قائمة بين يديه تخدمه وتجتهد فى انفاذ أوامره حتي انقضي الوقت فانصرفت الى سريرها ونامت الى الصباح

ومضى على الملك خمسة أو ستة أيام صابرا متأنيا لا يفاتحها بأمر حتي اشتد به الوجد وهاج الغرام ولم يعد فى امكانه الصبر والاحتمال ففي ذات ليلة أمرها بالجلوس فأبت فأكثر من الالحاح والتشديد

ولمـا رأت أن لا مندوحة من الجلوس وأن عدم جلوسها ربما يغيظ الملك ويكون عناداً لاصراره وأمره جلست وهى تقول كيف العمل (الأمر فوق الأدب) وحالما رأى الملك أن الفتاة أطاعت أمره وجلست كاد يطير من المسرة والفرح وقد استدل من ذلك على أن الامر قد هان وأنها أصبحت راضية بتسليم نفسها اليه وتقربها منه وأخذ في ملاعبتها ومداعبتها ويقول فى نفسه انه ربما تكون نفرتها ليس من كل الذكور بل من اناس عرفتهم أو اشتروها ولم يرضوها

وعلى الخصوص أن الفتاة لم تمانع في مد عنقها اليــه ليقبلها والقاء نفسها عليه ليضمها ولا فترت عن التبسم والدعاء ولا أبدت ممانعة أو مخالفة لأمر الملك ودام الحال على هــذا المنوال حتى انقضى الليل وطلب اليها الملك أن تصحبه إلى السرير فأبت واعتذرت وآبانت له عدم رغبتها في ذلك واستمالته بألفاظ رقيقة مشهية اقتنع منها الملك ورضى بها وسمح لها بالذهاب لغرفتها وفي قلبه غصة تكاد تذهب بصوابه وهو لا يعرف كيف يتصرف معها فانها متسلطة على عقله وقلبه تسحره بكلامها وتأسره برقة حديثها وسحر بيانها حتى يتغلب على هواه ويقهر نفسه عن طلب مشتهاها ولا يقوى على اجبار الفتاة ومخالفتها

وفي الصباح نهض من سريره فوجدها بانتظاره لاداء واجب الخدمة فضمها اليه وقبلها ومن ثم خرج من القصر الى ديوان الحكم وعاد في المساء وقلبه يطير أمامه فوجدها في انتظاره فلاقته بالتأهيل والترحيب ومشت في خدمته الى مكان جلوسه وهي على الخدمة والادب وبعد أن خدمته بنفسها الخدمة اللازمة أمرها فجلست بقربه ومدت له عنقها فقبلها ومرت عليه هذه الليلة كالليلة الماضية وكذلك الليــلة الثالثة حتي مرت عدة ليال وهو مكتف منها بالضم والعناق والتقبيل فقط كل هــذا والعجوز محبوسة تحت تضييق الجواري والعبيد وقد سلكت كل طرق الحيل والخداع والمكر والتذلل للخلاص فلم تنج ولا أمكن الافراج عنها بل بقيت الصبية مصرة على التشديد عليها خائفة من شرها ومكرها أهلكها الله وأهلك كل عجوز محتالة وأهلك كل من لا يقول آمين .

آمين آمين لا أرضي بواحدة   حتى أبلغها ألفين آمينا

ومرت عدة أيام والملك على حاله مع الصبية وقد رفع الخجل والحيــاء من بينهما وصارا على حرية تامة بين بعضهما البعض ولم يكن ممنوعا بينهما الا الوصال مع أنها جارية الملك وهو مالك لها متسلط عليها وله القدرة على الذي يرغبه والذي لا يرغبــه فاذا رضيت كانت تفعل ماهو واجب عليها واذا امتنعت نفي وسعه أعدامها أو بيعها أو حبسها لــكن بالنظر لدلالها ورقة معانيها وعذوبة ألفاظها وترفع آدابها وشرف خصالهـا أصبح الملك أسيرا يسير بارادتها كالريشة في مهب الريح ولا يفعل إلا ماتأمره به ولا يسمع إلا ماتقوله وانها وان كانت لاتقول من له شيئا بصفة الأمر بل بالالتماس والرجاء لــكنه كان يرى في كل كلمــة

كلامها الفرض الواجب عليه ويرى نفسه مسرورا عند ما كان يفعل ماتقول أو ماتريد ويحسب نفسه سعيدا وكان كل هذه المدة يبحث فى داخله عن الوسيلة التي يقدرها أن يتمكن منها وينال غرضه دون أن يكدرها أو يخالف أرادتها والأهم من ذلك انه كان يحب أن يعرف السبب الذى بغض اليها الرجال . في ذات ليلة بينما كانا على الحظ والانشراح والمداعبة والملاعبة والبوس والعناقه قال لها الملك . أى محبوبتى الحسناء ومالكة قلبي وفؤادى لو كنت اتخذتك جارية لى كغيرك لكنت براحة تامة وكنت خففت عن نفسى الآلام والعذاب ومنعت عن عيني كثرة سكب الدموع وما كل هذا وانا أخفى أمرى وأتجلد وأتصبر وأتحمل عذاب غرامك حتى طفح الكيل ولم أعد قادرا على الصبر . والآن أريد أن أسألك سؤالا واحدا وأؤمل منك أن تصدقيني الجواب وتطلعيني على الحقيقة لأن فى الحقيقة السلامة ولابد أنك تعلميني قصة سليمان عليه السلام وماذا كان من نتيجة الصدق وعدم المين والتلاعب وقد أشفي الله ابنه من المرض الذى لحق به وكان يورده موارد الحمام والهلاك .

فلما سمعت الجاريه كلام الملك تقدمت منه وقبلت ذيله بكمال الحشمة والأدب ودعت له بدوام العز ورفعة الملك والسلطان ثم قالت له إن جاريتكم يامولاى بانتظار أمركم فى كل آن وزمان وليس من قدرى وانا جارية لعظمتكم وخادمة امنية مطيعة لاشارتكم ان اتكلم فى حضرتكم غير الصدق والصحيح وتراني ياسيدى ومالك رقى مستعدة لأن اجيبكم على ماتأمرونى به بكل صدق وأمانة لكن أتجاسر أنا الحقيرة المشرفة بالتفاتكم وعنايتكم أن تتكرموا على رقة وكرما بقصة سليمان الحكيم لأني أجهلها فسر الملك من كلام الجارية سروراً عظيما وفى الحال قبض عليها من يدها وأدناها منه فقبلها بين عينيها ثم أجلسها الى جانبه وقال لها هاك قصة سليمان عليه السلام فاسمعيها .

حكاية سليمان عليه السلام

كان سليمان نبي الله ذات يوم جالسا مع زوجته بلقيس وأمامهما ولد لهما ولد ويداه ورجلاه ملتصقان بعضهما بالبعض وكل منهما ينظر اليه آسفا على حالته منفطر الفؤاد لأجله تسيل الدموع من عينيه حزنا وكدرا على تلك الخلقة التى

خلقه الله بها وبعد مرور ساعات على تلك الحالة قالت بلقيس لسليمان انى أتأثر جداً كلما رأيت يدي ولدي ملتصقتين ببعضهما البعض ورجليه كذلك فهل ياترى من وسيلة لجعله مثل غيره من بني الانسان فمثلك نبي عظيم يغيب عنه ذلك فهل ياتري إذا صلينا لله تعالى عز شأنه وتضرعنا اليه أن يخلصه مما هو به ألا تستجاب صلاتنا .

فرأي سليمان أن ذلك مناسبا فانسحب واياها الى خلوة وصحبا الولد معهما وأخذا بالصلاة والتضرع إلى الله أن يرحم ولدهما وفيماهما على ذلك أوحى الله اليهما قائلا لهما ان صلاتكما وصلت الى وأدعيتكما مستجابة لدي ولكن شفاء ولدكما متوقف على أمر واحد فاذا فعلتماه انفكت يديدا الولد ورجلاه عن بعضهما البعض وذلك أن يعترف أحدكما للآخر بالذى يضمره ويكشف له خفايا قلبه ومكنوناته .

فلما عرفا ذلك أخذهما الحياء والخجل وغاصا بالأفكار والتأمل برهة . ثم دار حضرة النبي سليمان وجهه من بلقيس وقال لها من العيب والعار أن أخبرك بخفايا قلبي لكن ما الفائدة وقد أمر الله سبحانه وتعالى وصار من اللازم أن أخبرك بالصحيح دون زيادة ولا نقصان (انى مع ما أنا عليه من الجاه وعلو المقام وسعة الملك حتى أنى أعطيت النبوة من الله وملكت على الجن والانس وأطاعت لى الطيور والسباع وسائر الوحوش لم أكن قانعا فأوصلني الطمع الى أنه اذا جاءني اثنان يتقاضيان عندى أرغب فى أن يكونا قد أحضرا الى هدية وليس فقط ذلك بل أن نفسي تميل الى أن من يأتيني منهما بهدية فأقدمه على الآخر وأقربه مني وأعتني بدعواه أكثر من رفيقه) . وما انتهى سليمان من كلامه حتى انطلقت يدا الولد وانفكتا من الالتصاق بقدرة الله فاذذاك قال سليمان لبلقيس ها انى قد اعترفت بذنبي وماهو مخفي في قلبي فأطلق الله يدى الولد فأصبحتا سالمتين لا عيب بهما مطلقا فاعترفى أنت بما فى ضميرك فيفك الله رجليه فاحمر وجه بلقيس من الخجل واضطربت من الحياء ولكنها وجدت أن لا بد لها من الاقرار والاعتراف أمام زوجها وأمام الله العارف بما فى قلبها وما يستكن عليه ضميرها وحينئذ قالت نعم انى أفكر وأميل الى ما هو أعظم مما قلت وبه العيب والعار ولست مسرورة من الاعتراف به ولكن ما الفائدة وقد أجبرت على الاعتراف والاقرار بالصدق (فانك مع أنك نبي عظيم وملك فوق ملوك العالم أجمع ولا يقارنك فى

سلطانك ورفعة جاهك سلطان وقد اتخذتني زوجة أولى بين حرمك وجعلتني فوقهن جميعا وشاركتني فى ملكك وخيراتك فكل هذا لا أراه يرضيني بل كل ما رأت نفسي شابا جميلاأميل اليه وأقول ليت هذا كان زوجى فهاك ما أضمره وأخفيه والسلام) وفى الحال انفكت رجلاالولد وقام ووقف وصار سليماصحيحا بقوة الله .

فبعد أن حكى الملك لجاريته هـذه الحكاية قال لها ان قصدي من سرد هذه الحادثة أن نتمثل بها فاذا كنت تخبريني بالحقيقة عن السبب الذى حملك على كره الجماع وبغضه ربما تتخلصين أنت وأتخلص أنا من العذاب الداخلي الواقع فيه أما الجارية فانها بعد التفكر والاطراق برهة أخذ العرق يتصبب فوق جبينها من الحياء والخجل .

ثم ثبتت جأشها وتبسمت وقالت له حيث أمرت أن أصدقك الصحيح فهاك السبب فانى أعرضة لأعتابكم كما هو . انى لا اكره الجماع ولا أنفر من الرجال وانى أحب الذكور وأسر منهم كغيرى من بنات جنسي وانى أعلم أن لا راحة للنساء ولا حياة لهن بغير الرجال لكنما المانع من ذلك هو أنه يوجد في كل بنت من بنات عائلتنا خصلة غير حميدة سيئة العاقبة وهذه الخصلة متلبسة لنا لم تنفك ولن تنفك ولا أعلم هل هي ناتجة عن اللطافة والرقة أو أنها تنتقل بالارث من الام إلى ابنتها . . .

ولمـا انتهت الجارية إلى هذا الحد تنهدت وتأوهت ثم سكتت مطرقة الى الارض فقال لها الملك انى لم أفهم شيئا بل زاد بى الامر واشتد بى الهوس الي معرفة الحقيقة فلا أعلم يا روحى ممن تخشين ولمـاذا لا تتكلمين أنهى كلامك أمن اللطافة لم أفهم ما معنى قولك من اللطافه والرقةأوبالارث . وبعد أن أكثر الملك من الالحاح والالتماس . قالت الفتاة : نعم ياملـكي . . . ان ذلك . . . آه . . . الحاصل . . . ماذا اقول . . . نعم . . . انه من زمن أجدادنا الى الوقت الحاضر ان كل واحدة من بنات عائلتنا عندما تصل الى سن الزواج وتضم الي الرجال اما بالزواج واما بالتملك فحالما تفض بكارتها تموت فاذا صودف لاحداهن ولم تمت فلا يكن الا وتموت عندما يأتي الولادة واخراج المولود عالم الوجود ولا تقدر أن تتحمل الاوجاع والآلام فتموت وقدجربن في ذلك وسائط كثيرة وراجعن الاطباء والفلاسفة والمنجمين والعارفين فلم يستفدن

شيئا فضلا عن أن البعض أيضا من بنات عائلتنا لا يقدرن على تحمل الجماع فيمتن تحت الرجال وبما أني أحب ذاتي أخاف أن شهوتي تضيع جمالي وحالي فأموت وأنا محققه أنه سيصيبني ما أصاب المئات من بنات عائلتي ولأجل ذلك لا أحب أن أمكن أحدا من الرجال مني نعم اني أخدم من يكن مالكا لى خدمة لا يمكن أن يراها من غيري وأجتهد في أن أرضيه حتى يراني فوق مايؤمل ولكن لا أوافقه على الجماع .

فلما سمع الملك من جاريته هذا الكلام تعجب كثيرا وقال لها لماذا ياروحي ومن هي أعز من حياتي تتكلمين كلاما غير موافق . هل الانسان يعلم في أي وقت يموت أم هل إن الممات والحياة بيد الانسان . وهل أن الانسان بغير حكم الله وارادته يموت فهذا وهم منك باطل ورأى فاسد فما أحد من المخلوقات من الملوك والأمراء والسلاطين والشرفاء يقدر أن يزيد أو ينقص ساعة واحدة في حياته حتي أنه لا يعلم بقرب الأجل ولا يعرف ساعة الموت ولو كان فيها . فأجابته الفتاة بتأدب نعم يامولاي أن الحق بيدك وأنك مصيب في قولك لكن اعتقاد جاريتكم هكذا ففكر يا سيدي وتأمل في حال العالم وفي طرق جريانه ترى أن الموت لا بد منه ولكن لا يكون بلاسبب وأن في التحوط تأخيرا في الأجل لأن الله عرف بسابق علمه زمن موت الانسان والسبب الذي يتسلط عليه ليميته ولكنه لم يحدده له ويحتم به عليه ظلما . ومع ذلك فان العالم جميعا يعلمون أن الله قادر على كل شيء وأن بيده الأعمار والأرزاق ولكن من عادتهم التحوط والمدواة واليه ترتاح نفوسهم فهم عند الشدائد يصومون ويصلون فتصرف عنهم وإذا انهمكوا بالمعاصي والفجور قوبلوا بالامراض والاوجاع ان الله على كل شيء قدير فالانسان ليس بأكرم منه فهو يفسح بالاجل وهو يعجله وعلى الانسان أن لا يقصر في المحافظة على حياته التى أمنه عليها الله سبحانه وتعالى فاذا قصر انتزعها منه وإذا اهتم بها وعرف نعمتها تركها في يده زمنا غير قصير .

فلما رأي الملك منها شدة اقتناعها بذلك ورغبتها في المحافظة على حياتها وخوفها من الموت اقتنع ببراهينها ودلائلها وعرف أن المرء مجبول على الآمال مفطور على الرجاء ولهذا لا يؤاخذ بضد اعتقاداته فقال اني أسلم معك بما تقولين وأنك من الواجب أن لا تمكني أحدا من الرجال منك وأن تكرهي الجماع لكن لو تعرفي

أني أجبرتك عليه ماذا تعملين وماذا يخرج من يدك وكيف تقدرين على الممانعة فقالت يامولاي الحق معك فى ذلك لكن لا أظن أن عظمتكم تقدمون على مثل هذا العمل واذا فرض المحال وفكرتم فى اجبارى فحالما أرى علامة الاكراه والاجبار أعلم أنى هالكة لا محالة فلا أقصر فى إهلاك نفسي بيدى وإلقاء تبعة ذلك على ظالمي ومكرهي .

فأجابها آه يانور عيني لقد فهمت غير المقصود لانك فتاة شابة ، لا تزالين فى بداية عمرك لاتبلغين الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر وأنك أجمل فتاة رأتها عيني وأعقل أبناء جنسك وأكثرهن تأدبا ورقة وقبولا فى قلب مالكك فاذا حرمت نفسك من لذات هذه الدنيا ونعيمها تكونين فى خطاء مبين وأنت تعلمين أنى مغرم بك تائه العقل بجمالك وأخاف ذات يوم أن يحملنى العشق والهيام إلي درجة الجنون فأفقد صبرى وأقتنصك جبرا عنك فيكون ذلك على غير ماترتضين وربما قادك الي الهلاك ولذلك أرى من الصواب ترك هذا الوهم المتسلط عليك فتكونين كغيرك من بنات جنسك تتنعمين وتتلذذين ولا تحرمين نفسك من نعيم هذا العالم فاذا دنا الاجل لا تكونين قد ضيعت صباك محرومة وحرمت غيرك منك لان أمر الوفاة بدون شك مجهول غير معلوم ولو تقرر فى عقلك وثبت فى ذهنك فلا يعلمه غير الله ولبثت الجارية سامعة لكلام الملك حتي انتهى من كلامه فأجابته نعم ياسيدى إن كل ما أشرت اليه وأمرت به حق وواجب غير أن جاريتكم تلتمس اليكم أن تسمحوا لها بالاصغاء كرما ومروءة وأن تتنازلوا بدقة النظر فيما تطرحه لدى أعتابكم العلية إذ من الواجب على الانسان أن يتحرز ويتجنب الامور المخيفة التى يتصور أنها ترعبه وتضر به ويعتقد بتأكد أنها لا بد أنها تقع على رأسه وذلك (أولا) لقد تفضلتم بأنه لا يناسب للفتاة الشابة الحسناء أن تحرم من لذة الدنيا ونعيمها فهل ياترى الشيخ البالغ المائة سنة من العمر بعد أن رأى العالم وذاق حلوه ومره يقف عند حده من لذات هذه الدنيا ومسراتها لاسيما اذا كان قد صرف اكثر اوقاته الماضية منغمسا فيهامتعودا عليهامع انك بالعكس تراه إذا صرف هذا اليوم متنعما مسرورا يأمل فى اليوم التالى بمثله إذا لم يكن بأعظم وهكذا مهما مرت عليه الايام والسنون فآماله بالملذات لا تنقص وتعلقه بأفراح هذه الدنيا يزيد بأكثر مما فى الشاب وقد يظهر أن الشيوخ يرتاحون الي التنعم والتلذذ أكثر من الفتيان والفتيات (ثانيا) لقد بينتم أيضا بأني اذا كنت

أقتل نفسي يكون ذلك جريمة وخطيئة وأخسر الأبدية أي يعتبر ذلك عصيانا على ارادة الله . مع أني لست مجنونة لأفعل ذلك بارادتي ورضائي فاذا كنت أفعل اختيارا فلا ريب يكون ذلك مخالفا لارادة الله جل شأنه ولكن اذا كنت أنت الباعث الى قتلي أي إذا أرغمتني واغتصبتني وأكرهتني على قتل نفسي فتكون عاقبة الخطيئة عليك . فاذا كنت لا تفتض بكارتي رغما وتأخذني قنصا فلماذا أقتل نفسي ولكن اذا فعلت ذلك اضطر لقتل نفسي ويكون ذلك في عنقك ففي يوم القيامة ستكون أنت المؤاخذ والمسئول وأنا لا يكون علي ذنب فهاك ياسيدي وسلطاني ومالك رقاب العالم أمري ففكر فيه وافعل مايعن لك أن تراه الصواب

فلما سمع الملك كلام الجارية وقد رآه عين الصواب وشاهد فيها صدق اللهجة المقرونة باللطف والانكسار أصبح في حيرة عظيمة وغاص في بحار الافكار وبعد أن فكر برهة رأى أن لا فائدة إذ ذاك في نوال المراد وغابت عنه طرق التدبير وجعل يقول في نفسه ياللعجب ماذا أعمل بهذه الفتاة وفي أي يوم تصغى لارادتي فهي ممانعة حتي أصبحت بالرغم عني وبغير إرادتي كالمجنون تائه العقل غائب عن الصواب .

وبعد أن تراكمت عليه الأفكار الكثيرة ولم يجد طريقة لنوال غرضه عزم أن يصرف تلك الليلة مع جاريته كالليالي التي قبلها وعليه بدأ بالملاعبة والمداعبة والتقبيل والعناق والمسامرة والمباسطة حتي مضى الوقت فنام الى الصباح وفي الصباح خرج من الحريم وسار إلى دار الأحكام وانهمك في أمور السلطنة حتى المساء فعاد الي قصر الحريم فلاقته الجارية بالبشاشة والترحاب وسارت في ركابه إلي مقعده وهي تخدمه بنفسها وتزيد له في الاكرام والتعظيم وقد صرف أيضا ليلته علي مثل ماتقدم وفي الصباح خرج إلى ديوانه ومر عليه وهو على مثل تلك الحال سبعة أيام لا يفكر بأمر من الامور بأكثر مما يفكر في طريقة تمكنه من نوال غايته منها وهو يناجي نفسه على الدوام بهذه الجملة (ماذا يا ترى أعمل لأحمل هذه الفتاة لتمكنني من نفسها لنوال غرضي اذ لا يمكن لي أن أجبرها عليه)

وفيما هو على مثل تلك الأفكار خطرت في خاطره العجوز وكانت لا تزال محبوسة تحت التشديد والتضييق فخطر في باله بأن يأمر باطلاق سراحها غير أنه توقف وقال ربما إن خلاصها يغيظ الفتاة ويكدرها فأكون عوضا عن استجلاب خاطرها قد زدتها بغضا في ونفورا مني وبهذا أهدم ماأنا آخذ ببنائه ثم فكر أنه في المساء

يرجو حبيبته بأن تسمح له باطلاق سراحها إذ أن من العدل أن لا يزيد عليها لأكثر من ذلك وتعذيبها فوق هذه المدة لا يرضي الله

وفي المساء دخل الحريم فلاقته الفتاة كجاري عادتها وسارت به الى غرفة الجلوس فجلس وأخذت في خدمته وهو ينظر اليها ويحدق نظره في وجهها ونار الغرام تلتهب في فؤاده وتزيد اضطراما كلما خطرت أو مالت أو دنت منه لتأدية واجب الخدمة وهي مع كل ذلك تكثر له من الدعاء والثناء والشكر على عنايته بها والتفاته اليها ثم أنها وقفت بين يديه وانتظرت أمره فلم يسعه إلا أن وقف على رجليه وتقدم منها وأخذها من يدها وأدناها منه فقبلها وجاء بها فأجلسها إلي جانبه فملا وجهها الاحمرار والخجل والحياء فزاد في اكرامها وامتداحها وبعد أن صرفا الوقت بالحظ والسمر سألها أن تسمح له بتخلية سبيل العجوز فقد كفاها قصاصا مامر عليها من عذاب الوحدة والسجن . فاضطربت من ذلك وأخذلونها يتغير من الأحمر إلي الاصفر ومن الأصفر إلي الاخضر وكادت تغيب عن صوابها ثم قالت للملك بعد أن ملكت صوابها ودعت له بدوام الملك والسعادة كيف أيها الملك السعيد يمكنك أن تكون أمينا من خيانة هذه العجوز وحيلها وبأي وجه تركن اليها . واني أرجوك لكي تكون أمينا من غدرها وايقاعها بي أن تطلقها من سجنها وتأمر بحبسي عوضا عنها وبذلك لاتقدر أن تغدر بجاريتك الامينة . فأرجوك أن تبقيها في سجنها ولا تطلقها أبداً .

فتبسم الملك من كلامها وأجابها لاتضطربي ولا تغضبي ياعيوني فمن هي هذه العجوز الضعيفة العديمة الناصر التي تغدر بك وتوصل شرها اليك وأنت صاحبة الامر والنهي عليها وعليّ وعلى مملكتي ومع ذلك فاني أدعوها وأحذرها من التعرض لك وأتهددها بالموت إذا صدر منها مخالفة لك أو لفظت كلمة ضد إرادتك . فسكتت الفتاة عندما رأت أن الملك يريد ذلك وهي على يقين أنها لاتخلص من كيد العجوز وشرها وأنها ستضطر لمحاربتها ثم قالت للملك إني لا أرغب في أن أرى وجهها مطلقا ولذلك لا أرغب في اطلاق سراحها ولكن من حيث أن عظمتكم ترغبون ذلك فأنا أقبله على رأسي فقط أتجاسر على الرجاء من عظمتك أن لاتدعني أرى وجهها ولاترى وجهي أبدا (من هنا يفهم درجة الغرام كم هي عالية فالملك المالك البلاد والمتسلط على العباد أصبح مغلوبا لسلطان الهوى مطيعا كالعبد منتظرا أمر وارادة محبوبته التي بعد أن كانت رقيقة مملوكة لديه أصبح

هو المملوك وهى المالكة ... نعم إن الغرام يصير الوضيع ملكا والملك وضيعا)
وحينئذ أمر الملك باخراج العجوز بعد أن شرط على نفسه ان لا يدعها ترى وجهها
للجارية ولا تكلمها كلمة واحدة قط ... خرجت العجوز من السجن ولكن
كيف خرجت منتفخة من القهر والغضب مستوية من الغم والكدر . ولو أنها
كانت فى الاول لا تريد أن تخرج من السجن لكنها كانت تعلم أنها لو بقيت
محجورا عليها لا تقدر على الانتقام ولا تتمكن من الاحتيال للايقاع بعدوها وتبقى
يداها مقيدتين عن ادراك ماتروم فعله فى بنى آدم وبالاخص فى الجوارى اللاتى
يقدمن الى الملك وفي مقدمتهن هذه الجارية التى كانت سبب سجنها فأضمرت لها
الكيد والانتقام (حماها الله منها وحمى كل انسان من غدر العجائز المحتالات).
وبقيت العجوز تضمر الشر للجارية ولا تتظاهر الا بالعبادة والصوم والدعاء
للملك ولا تجسر أن تقف أمام الجارية ولا تدخل غرفة هى فيها وتتجنب كل
التجنب أن تظهر أمامها أو تريها وجهها خوفا من غضب الملك وانما لخدعتها
وحيلتها وكان جل ما يحلو لها أن تميت الفتاة وأن السلطان يقطعها قطعا قطعا وتدوس
بأرجلها فوقها وكانت تعرف أنها لا تقدر على ذلك الا اذا تمكنت من الدخول
والخروج كسابق عاداتها وصبرت على نفسها وهى تراقب الفرص لتتمكن من
الدخول عليه دون أن تكون الجارية عنده اذ كانت لا تجسر على الدخول وهى
لديه بعد تأكدها أنه مغرم بها وأنها أي الجارية ذكية فطنة لا يمكن صيدها
بسهولة وبعد أن مر عليها عدة أيام صابرة على حكم القضاء والقدر سهرانة على
اتمام رغائبها وقد اغرت بعض الخدم أن يراقب لها انفراد الملك فيخبرها بذلك
وجاءها الخادم وأخبرها بأن الملك منفرد بنفسه وأن الفتاة استأذنت الملك بالدخول
إلى غرفتها لانحراف قليل فى صحتها وقد دخلت غرفتها وأوصدت الباب فكادت
تطير من الفرح وأسرعت فى الحال ودخلت على الملك وألقت بنفسها على
رجليه وهى تطلب من الله أن يطيل عمره ويديم صولته ويوسع مملكته وينصره
على أعدائه . ومع أن السلطان كان يتمني أن لا يجيبها بكلمة ولا يسمع لها قولا
خوفا من خاطر حبيبته غير أنه رأى من الضرورة مراعاة لشيخوختها جبر خاطرها
ولو بكلمتين فقال لها لقد عفوت عنك انما الذى أريد منك أن لا تذهبي بعد الآن
نحو الجارية كي لا تغضب منك وتتكدر عليك . فتظاهرت العجوز عند سماعها
كلام الملك بكل تذلل وخضوع واستعملت أبرع طريقة لاستجلاب قلب الملك

وشفقته عليها وبكت وأنت . وقالت أطال الله عمر سيدى وولي نعمتي أن حبسك لي وهجرك فخر وشرف لى وما ذلك إلا منة منت بها علي أو خلعة أوصلتها إلى حتى لو أنك أمرت بقتلي وإعدامي ورفع وجودى من هذا العالم لحق لك ذلك لكن على ما أرى أنك لا تعرف صالح نفسك لأنى أري أن حبسي غير لائق منك لأني فى الابتداء لم أكلم الجارية قط ولا كدرتها ولا أتيت عملا يضيق به صدرها مني حتي أنك حبستني وحرمتني من تقبيل أذيالك وأقدامك كل وقت على ما عودتني عليه ومع ذلك فـكفانى انك فى صحة جيدة وسلامة وهذه غايتى . وجل ما أتمناه لأنى حبست بأمرك وتخلصت بأمرك وأنا على يقين أنى بعد قليل من الوقت سأرجع إلى أعظم مما كنت فيه وتتأكد صداقتي وخلوصى فتشملني برضاك زيادة عما أؤمل خصوصا بعد أن يثبت لديك أنى ساهرة علي راحتك أريد خلاصك من كل ملمة وبالأخص من كيد النساء لأنى أخبر بهن وبأحوالهن وأعرف دواء مايصدر عنهن من الادواء ولذلك ماأتيت الا لأعلمك أنك لوأمرت بعذابى وقتلى لوجدتنى وأناتحت يد الجلاد أشكرك وأتمنى لك السعادة وأدعو الله أن يقيك كيد النساء ولاسيما الشابات الجميلات اللاتى يلعبن بالعقول ويتسلطن على القلوب ليفتكن بمن يقع فى حبالتهن ويقتلن من يقع في شراكهن ولا ينلن عاشقا مراما مالم تبلغ روحه التراقي .

فلما سمع الملك كلام العجوز تذكر فعل الجارية معه وحبه لها وخطر له أن يستشيرها عليها تعرف دواء مرضه أو تهديه طريقا يتوصل منه الى ساحة نيل المقصود فقام علي رجليه ودنا من العجوز واعتذر اليها وقبل يدها وقال لها الرحمة ياوالدة المعونة يامربيتي انى أصبحت في حالة يرثى لها وقد ضاقت بى الدنيا مع سعتها ولم أعرف الوسيلة التى أتخلص بها مما أنا مصاب به . إن هذه الفتاة عجيبة فى أحوالها وأطوارها فهى تكره الرجال ولا يمكن أن تمكن ذكرا منها وقد أعيتنى الحيل فارحميني .

فعندما رأت العجوز أن الملك رجع اليها وغمرها بالتفاته وعنايته كادت تطير من الفرح فاغتنمت هذه الفرصة للانتقام وتقدمت من الملك فقبلت أذياله ودعت له ولدولته بالبقاء ثم قالت له لابد الآن أن ترى فعل جاريتكم المسكينة العجوز المخلصة فى خدمتكم المتهالكة فى قضاء غرضكم ومتي رأيت أنه لا يمر هذا الأسبوع

إلا وقد نلت غرضك وشفيت مرضك وترامت هذه الفتاة على قدميك تطلب اليك أن تأتيها ولا تمنع عنك أمرا يتأكد لك صدق أماني وما أقوله بحق وصدق عن محبتي لكم ورغبتي في راحتكم ولو أنك أخبرتني منذ الأول بذلك لدللتك على الطريق الموصل إلى الغاية بسهولة دون تعب ولا شقاء ولكن واحسرتاه ياسيدي الملك أنك قد تكون تعذبت وقاسيت من حر الغرام ووطأة الجفاء ولذعة الصد والامتناع ما انفطرت له مرارتك وذابت له مهجتك فقاتل الله الحب وقاتل المحبين الظالمين الذين لا يرثون لحال عاشق ولا يرحمون قلب مغرم ولا يرغبون إلا باذلال من يعلق بهم مهما كان عزيزا وإني أشكر الله الذي دخلت عليك في هذه الساعة لأفرج همك وأزيل غمك .

فلما سمع الملك من العجوز هذه البشارة لم تعد الدنيا تسعه من الفرح فقبل يد العجوز ثانية وجعل يرجوها ويلتمس منها وقال لها العفو ياوالدتي لقد قصرت في حقك ولم أعرف قيمة فضلك وحبك فلا تفكري في الماضي بل اهديني إلى الطريقة التي أنال فيها وصال جاريتي باللطف لا بالجبر وتحملها على القبول بقضاء مصلحتي بالاختيار والرضي لا بالقوة والعنف . فأجابته لاتهتم ياسيدي ولا تعذب قلبك بأمر هو أسهل عليك من شرب الماء وقد قلت لك انك ستنال منها الوصال بالرضي والاختيار دون عناء ولا عذاب فقط أريد منك أن تصغى الي وتسمع مني وتفعل كل ما أطرحه بين يديك وأشور به عليك . فقال أقسم لك بالله العظيم أني أفعل ما تقولين ولا أحيد عن رأيك قط الا إذا كان فيه استعمال القوة والجبر .

وعلى هذا الوجه تهيئت العجوز لكيد الفتاة عدوها الألد فقالت للملك يلزمك أن تتخذ لك جارية جميلة لطيفة وتتظاهر بحبها والميل اليها وتداعبها وتلاعبها وتضمها وتعانقها أمام هذه الفتاة وفي النهاية على مرأى منها تدخلها غرفة النوم وتنام معها والحاصل اصرف وقتك كله بالحظ والسرور ولا تترك أمرا من أمور الحب والتلذذ الا وتستعمله مع الجارية الجديدة أمام الجارية القديمة وأنا الكفيلة لك أنها لاتقدر أن تتحمل ذلك أكثر من أسبوع بل تطلب اليك أن تواصلها وترجوك بذلك ولا يبقى لها صبر على مثل هذه الحالة .

فلما سمع الملك من العجوز هذا الكلام اطرق برهة متفكرا وقد رأى هذا الرأى من أنفع التدابير لاستجلاب خاطر الفتاة وتسليمها نفسها اليه وحينئذ أمر

باحضار جارية بديعة الصفات جميلة المنظر وأخذني ملاعبتها ومداعبتها أمام الصبية على حسب ما أشارت اليه العجوز وعلمته إياه وعلى مقتضي الطريقة التى خطتها له ومن الجهة الثانية كان عشقه للصبية ينمو ويزيد بدون حد .

أما الصبية فقد فهمت لدى مشاهدتها الجارية الجديدة مع السلطان سر المسألة وأدركت أنه من دسائس العجوز الشيطان الرجيم وقد أشارت به عليه لتحرك الغيرة فى قلبها فتجلدت وصبرت واجتهدت بالتظاهر بخدمة الملك أكثر من الأول كي لا يظهر عليها أثر الغيرة مع أنها أصبحت كالجليد من جراء الغيرة ومن قهرها من العجوز بنت الحرام التى قصدت كيدها واغاظتها ولكنها أرادت أن تبين للملك أنها غير متأثرة من ذلك فصبرت دون جدوى ولم تعد قادرة على الثبات فى وجه هذه الصدمة القوية . نعم ان الحق بيدها اذ كيف تقدر أن تصبر على هذه الحالة وترى الملك الذي كان يثبت لها أنه آتخذها كملكة وجعلها صاحبة أمره ومالكة قياده وربة بيته يداعب جارية أخرى هى دونها فى الجمال والآداب وفي الآخر يضمها اليه ويحملها أمام عينيها إلى السرير لينال منها غرضه فانفطرت مرارتها لذلك واشتعلت نار الغيرة والحسد وهى تثبت وتتظاهر بالعزيمة والصبر حتى مر عليها خمسة أوستة أيام ففرغ الصبر وانتهى بها الحد ووصلت الى الدرجة الأخيرة من الثبات ورأت أن ضياع حياتها أسهل عليها مما شاهدت وما تشاهده فى كل ليلة واحتمال تلك السهام الحادة سهام الغيرة التى كانت تمزق احشاءها ففي ذات ليلة كان الملك جالسا بمفرده فى غرفته فدخلت عليه ووقفت أمامه كأنها تنتظر أمرا منه لقضاء خدمة وهى فى حالة صعبة الاحتمال تكاد تختنق من شدة عذابها فأدرك الملك منها ذلك وخاف ان يلحق بها ضرر ولم يعد قادرا أن يتحمل أو يصبر على تعذيبها أكثر مما فعل فنهض اليها وأخذها من يدها وأجلسها الى جانبه فتركت نفسها ولم تمانعه وتظاهرت بالطاعة له بأنها لا تمانعه في أمر وقد لحظ منها قبولا بقضاء غرضه فكاد يطير من الفرح ولم يعد عارفا ماذا يعمل فضمها اليه وقبلها فى وجهها وعينيها وأخذ معها فى المداعبة والملاعبة .

أما الفتاة فانها قبلت الملك ثم قبلت ذيله فطلبت اليه أن يسمح لها بأن تسأله سؤالا ترجوه الافادة عليه فأذن لها وهو بكمال السرور والفرح . فقالت وهى مظهرة العزيمة والثبات أطال الله عمر سيدى الملك انك منذ بضعة أيام شملت جاريتك الحقيرة بالالتفات فحكيت لى قصة سليمان عليه السلام وطلبت الى أن

أحكى لك بالصدق سبب كرهى للذكور فأصدقتك الخبر وبقيت أنت المدين لي حيث أني كما تنازلت وحكيت ان كلا من بلقيس وسليمان عليه السلام أباح مافى ضميره أى ليس بلقيس وحدها التى اصدقت زوجها الخبر وحكت مافى ضميرها بل هو أيضا أصدقها وصرح لها بكل ما يستكن فى داخله فأنا يامولاى قد طرحت لديكم حكايتي ولم أكذب عليك وأجبت أمرك طاعة لك والله الذى يكره الكذب ولا يرضيه غير الصدق لا سيما بين الزوجين وبقى على عظمتكم أن تعترفوا لجاريتكم بالصحيح ليكون ذلك متبادلا ومرضيا لله كما سبق فأمرتم لأن الله لا يرضيه غير الصدق فاصدقنى من هداك الى هذه الطريق ومن علمك اتخاذ هذا التدبير ويغلب على ظنى أن الذى علمك ذلك هو امرأة لأنه لا يعرف شدة غيرة النساء الا النساء .

فلما سمع الملك كلامها رآه عين الصواب وأنها محقة فى طلبها وأن الكذب عليها واخفاء الحقيقة عنها ضرب من الخيانة والمكر اللذين يتجنبهما ولا سيما فى مثل هذا المقام فلم ير وسيلة للكتمان فقال لها . نعم إن الذى دلني على اتخاذ هذه الحيلة هى العجوز التي أطلقناها من سجنها وذلك لأنه لم يبق لي طاقة على الصبر وقد أصبحت فى حالة اليأس وهان على ترك الحياة ولا آخذك جبراً ولا أقدر على الاحتمال وعشقي بك يتزايد اليوم بعد اليوم حتي كدت أصير الى الفناء فارحميني الآن وأرثى لحالى ولا تزيدى فى عذابى وما كانت الحالة التي تحدث لنساء عائلتك الا وسيلة لعذابى وقهرى وعندي أن الله سيشفق على ويصون حياتك لى ويخلصك مما تخافين فأطرقت الفتاة الي الأرض متفكرة برهة ثم قالت للملك مادام الأمر قد بلغ هذا الحد والعجوز المحتالة تطلب هلاكي وتطوف باجتهاد حولى لتميتنى متمسكة بحبال الدسائس . أما أنا فلا أمانع قط ولا أصر بعد الآن على عنادى مادمت أنت ترغب فى ذلك وقد دبرت العجوز على كيدى وهلاكى ليسر خاطرها ويفرح قلبها . ولكنى أرجوك أن تمهلنى فقط أربعة أيام ربما أرى فى شأن نفسى وارتاح من اضطراب الفكر الذى أعانيه . فوافقها الملك على طلبها وسمح لها بمهلة أربعة أيام .

وفى اليوم التالى أحضر اليه العجوز بدون علم الصبية وحكي لها كل ماجرى له معها وكيف حملتها الغيرة على الانقياد وكيف أنها طلبت اليه مهلة لمدة أربعة أيام فمنحها المهلة المذكورة .

فلما سمعت العجوز هذا الكلام طار صوابها وأصبح لونها أصفر كلون الأموات وأطرقت الى الأرض متفكرة ثم رفعت رأسها وقالت لماذا سمحت لها بمهلة ياسيدى ولماذا لم تستشرنى فى ذلك فقد قصدت التخلص منك وأبانت لك ان وصلها صعب جدا وربما كانت تقصد الفرار . فغاب عقل الملك من كلام العجوز واضطرب فى داخله وقال لماذا تقصد غشي ولأى سبب تعمل على كيدى وتكذب فى وعدها . قالت انها لم تسألك المهلة إلا اسوء قصد تريد اجراءه فى نفسها لانها على جانب عظيم من العناد وقد يهون عليها قتل نفسها بيدها ولا تسلم لأمرك بالرغم عنها هذا إذا لم يتسهل لها طريق الهرب . والآن إذا كنت تتغافل عنها أو تصبر عليها ولم تتخذ الاحتياطات اللازمة خسرتها لامحالة أما بقتل نفسها وأما بالفرار .

فزاد هذا الكلام فى اضطراب الملك ورأى من المناسب أن يبقى مدة المهلة أى أربعة أيام فى دار الحريم وحالما دخل أسرعت الفتاة لاستقباله ودخلت به الى غرفة الجلوس وسألته عن سبب عودته حالا على غير عادة . فأجابها إنى أرى نفسي منحرف المزاج قليلا ففضلت البقاء فى البيت طلبا للراحة فلم تتغير قط ولاقصرت فى خدمته بل زادت فيها عن الحد المعتاد حتي مرت الأربعة أيام والملك مقيم فى القصر لايخرج منه وقد سلم أمر تدبير المملكة لوزيره الأول وفى اليوم الرابع كان الملك والصبية معا وقد أخذ بالمداعبة والملاعبة حتى أظلم الليل فذكر الملك الفتاة بوعدها فأجابته بمنتهي اللطف والتأدب والخجل . نعم يامولاى هذاهو اليوم الرابع وفيه وفاء الوعد لكن أريد أعرض لمعاليكم أمرا لتكونوا مطمئنين فتعجب الملك فى نفسه وقال ماذا نريد هل تبحث عن طريقة أخرى للتخلص ثم سألها ماذا تريد وهو مصغ لها .

فقالت أنت تعلم ياسيدى وولى نعمتي أن العجوز تقصد بي شرا وتتمنى هلاكي فهى فى عيني عدو الد تترقب الفرص للايقاع بى واهراق دمى وتبذل كل مافى وسعها لنوال منيتها بالانتقام منى ولهذا ترانى مضطرة على الدوام للتيقظ والتحفظ منها والتحذر والسهر حرصا على حياتى وأنتم تعلمون ذلك وهذا صعب على وثقيل على حياتى ولذلك طلبت مهلة أربعة أيام لأجد وسيلة نافعة لراحتى فتفكرت فى هذا المعنى وقلت فى نفسى إن بقيت على هذه الحالة فحياتى تعب وشقاء أبات بالخوف وأصبح بالترقب وربما كان ذلك مضرا بصحتى فأموت رغما وإذا سعيت بقتلها

للتخلص منها وهذه أعظم طريقة لراحتي وارتياح بالي أفكر أيضا أن الله سبحانه وتعالى لا يرضي بذلك وقد حرم قتل النفوس فيكون ذلك على بلاء أشد من بلاء الخوف منها والتحذر من مكائدها وأخيرا لم أر أوفق من أن يأمر سيدى الملك بارسالها الى بلاد بعيدة بأطراف المملكة تقيم فيها باقي حياتها فلا أري وجهها ولا تراه أنت فيما بعد وبهذه الطريقة أتخلص أنا من نتائج شرها وعداوتها المستمرة وأصبح أمينة على روحي ولا يبقى لدى شىء أخافه وأنت أيضا تنال ما أنت طالبه مني وفقا لما وعدت عظمتكم به .

فلما سمع الملك من الصبية هذا الكلام كاد يطير من الفرح والاستبشار وفى الحال استدعي بعضا من الفرسان وأمرهم أن يصحبوا معهم العجوز ويسيروا بها إلى أطراف الهند ويتركونها هناك فى أحد البلاد وبعد أن وهبها شيئا من المال أخذوها وساروا بها الى حيث أمر الملك . ومن بعد أن اشتفت الصبية ببعد عدوتها وأمنت من كيدها دنت من الملك فشكرته وقبلته وأخذت تداعبه وتلاعبه وتصرف كل جهدها فى إنماء حظه وازدياد سروره حتى طار به الوجد واشتعلت فيه نار الغرام ولم يعد قادرا علي التصبر والتحمل سيما بعد أن وعدته وعداً صحيحا وسلمت اليه نفسها فرأى الدقيقة سنة والساعة دهراً ولهذا أسرع فحملها الى سريره وافتض بكارتها وشعر من نفسها بلذة غريبة لم ير مثلها فى طول زمانه وقد انشرح صدره وسر سرورا لا مزيد عليه لكنه ما لبث أن نظر الى الفتاة حتي رآها قد غابت عن الوجود واصفر لونها اصفرارا غريبا ولا إصفرار الأموات فطار قلب الملك خوفا وجزعا وأمر فى الحال باستدعاء أمهر الاطباء والقوابل وأحضر الجواري لخدمتها ولم يكن الا أقل من القليل حتي حضر الأطباء وباشروا الاعتناء بها واستنشاقها الروائح القوية ودلك جسمها بالأدوية الحارة وكلهم يعجبون من شدة الاصفرار المستولى علي ذاك الجسم البديع الجمال ولم يمر على ذلك أكثر من نصف ساعة حتى عادت اليها الروح وجلست فى سريرها وتبدل اصفرار وجهها بالاحمرار .

وبعد أن كانت الصبية قد قطعت الأمل من الحياة رأت نفسها قد عادت إلى الوجود ثانية فتأكدت كأنها قد ولدت من جديد وأن الخطر الذى كانت تخافه قد زال وأخذت تصلي وتشكر الله على عنايته بها وتثنى علي الملك لاهتمامه والتفاته اليها حتي زال خوفها على يده وقالت له بأى لسان أثني على سيدى الملك فما

من فتاة فى عائلتى قدرت أن تعيش بعد افتضاض بكارتها واذا صادف وتخلصت فلابد أن تموت فى وقت الولادة وها أنا قد سررت من عنايتك ولى ثقة أن أتخلص اذا قدر الله بالولادة فقال لها إن كل شيء بأمر الله وإرادته فهو رحيم كريم وهكذا كان أيضا فقد أصابها فى وقت الولادة كما أصابها فى الأول ولكنها تخلصت بعناية الله وسر الملك بها سرورا عظيما وصرف باقي عمره معها على الحظ والسرور لم يلتفت إلى سواها ولا مال إلى غيرها .

ولما انتهت هماى بنت قيصر الروم صاحب الأقليم الثاني من حكايتها قالت له ومما تقدم يعلم أن الاصفرار الذى وقعت فيه الفتاة كان سببا لخلاصها وهذا ماجعلنى أحب اللون الأصفر لأنه من أرفع الالوان قيمة ومقدارا ومحبة من الناس أكثر من كل الالوان فالنار التي هي من المنافع العمومية للانسان صفراء اللون أيضا ومما يجعل الاصفر مفضلا على كل الالوان هو كون الذهب منه فهو الذى يجعل الانسان عزيزا كريما واليه يتسابق الناس من الحقير الى الملك فكل منهم يحبه ويفديه بروحه ولا أظن أن أحدا فى العالم لا يتهالك فى حب هذا الاصفر الرنان ولهذا ترانى قد اخترته وفضلته على سائر الألوان واقتداء بباقى الناس وإذا لم يكن من أفضل الالوان وأسماها لما اتفق الناس على حبه .

فلما سمع بهرام شاه من زوجته هذه الحكاية سر منها جدا ووقعت فى قلبه موقعا رفيعا وزادت رفعة فى عينيه فضمها إلى صدره وقبلها وأظهر سروره منها وشكرها وكان الغروب إذ ذاك قد دنا وعزمت الشمس على الاحتجاب فصار الأفق أصفر فقالت له انظر يا مولاى ما أجمل لون الافق فانه يصفر شوقا لمفارقة الشمس رفيقته ولا يحب أن تفارقه برهة من الزمان فزاد سرور الملك من قولها وعاد فعانقها ثانية وشكرها ومدح ذكاءها وعلمها وآدابها وكانت حكايتها موضوعا كافيا لتحريك احساسه وأشواقه نحوها فأخذ فى مداعبتها وملاعبتها مداعبة العاشق المشتاق ولما دنا وقت الطعام دعت الملك فنهض وإياها الى مائدة الطعام فاذا هى صفراء وكل ماعليها من الاوانى من الذهب الاصفر حتى أن الطعام جميعه كان مرشوشا بالزعفران فسر أيضا لذلك وشكر الله على ما أعطاه من العظمة والمجد ولاسيما وأن الجوارى والخدم المحيطين بالمائدة للخدمة كانوا لابسين الملابس الصفراء البهية .

وبعد أن نهض عن الطعام ودخل غرفة الحظ والانشراح وجد معدات المدام

والنقولات والازهار والاثمار مهيأة وكلها صفراء بلون واحد فالطاسات والاقداح من الذهب الخالص والشربيات والفاكهة والأثمار منتخبة جميعها من الاصفر وكذلك لون الغرفة ومفروشاتها وكذلك البابوج الذى لبسه فى رجله كان لونه اصفر وبعد أن صرف الملك السهرة على الحظ والانشراح مع زوجته أخذها من يدها ودخل بها غرفة النوم وقد رسخت فى عقله الحكاية له فتذكر أنها هى أيضا لطيفة المزاج رقيقة الحركة أشبه شىء بالفتاة الصينية صاحبة الحكاية التي حكتها له فنام معها الى الصباح وقد سر منها سرورا لا مزيد عليه ولاقى من اعتنائها به وغنجها ودلالها وخضوعها ما أنساه الدنيا وملكه وكل شىء عزيز عنده ولما قرب وقت السحر غرق بالنوم طلبا للراحة من عناء الاخذ والرد .

وبعد أن نام عدة ساعات نهض من النوم فوجدها قائمة عند رأسه في انتظاره فقام اليها ولفها بين يديه وقبلها فى عنقها وخدها وهى تاركة رأسها على كتفه يميله كيف أراد ولما انتهي من استصباحه بها سارت به الي الحمام فنزعت عنه ثيابه بيديها وأدخلته الي الداخل وأخذت تغسله بيديها وترش عليه العطورات الزكية والمياه المقطرة من أزكي الازهار وكانت قد سألته عن القصر الذى يقصده فى اليوم الثاني فأجابها انه عازم علي صرف اليوم الثانى عند السيدة برى بنت الملك خوارزم صاحب الاقليم الثالث وهى ساكنة القصر الاخضر ولذلك هيأت له ثوبا أخضر بلون الزمرد وأخذت تفرغه عليه وهى تمازحه وتقبله وتباسطه وكان بهرامشاه مسرورا جدا من نسائه فانه لم ير فى قلبهما من الغيرة والحسد مايوجد عند سائر النساء بل ان الواحدة منهن كانت تهيئه وتلبسه وفقا لذوق ضرتها وكان الملك يعلم أن ذلك ناتج عن حسن تربيتهن وآدابهن وعظم محبتهن واحترامهن لشخصه فشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك وبعد اذ فرغ من كل عمل هناك ودع زوجته وخرج من القصر الاصفر بفرح وغبطة أكثر مما دخل .

وفى اليوم التالى سار بهرام الى القصر الأخضر محفوفا بالاتباع والخدم ولما وصل اليه ترجل عن جواده فدخله ولم يجتز العتبة حتي استقبلته السيدة برى بنت ملك خوارزم سيدة القصر المذكور محاطة بجواريها وخدمها وفى أيديهم المباخر والقماقم الذهبية فرحبت به وقبلت يديه فقبلها فى خدها الايمن ثم أخذته من أبطه وتقدمت به الى حوض بداخل القصر حيث أعدت له من أسباب الراحة

والزينات ما يناسب عظمته ومشي الجواري بين أيديهما و كان بهرام على غاية في المسرة والنشاط لما رأى السيدة برى وقد كانت على جانب عظيم من الحسن والجمال النادر المثال فهي بالحقيقة مـلاك معبود في صورة انسان و كانت قد أفرغت عليها الملابس الخضراء المموجة بلون الزمرد وزينت القصر وأطرافه بالنباتات الخضراء والازهار البديعة العطرية الروائح فكان يرى من نفسه كأنه في الجنان محاطا بالحور الحسان ولذلك لم يفتر عن شكر العناية الالهية التي منحته هذه السعادة .

ولما وصل قريبا من الحوض وجلس عنده للراحة بقي مبهوتا من تدبير زوجته وحسن اتقانها فان كل مايراه كان يدهش القلوب ويحير الابصار ولاسيما تلك الرياحين الزاهرة الزاهية التي كانت جميعها بلون المكان ولون ملابس زوجته .

ولم يستقر به الجلوس حتى أخذت بنت ملك خوارزم في مباسطته وممازحته وملاعبته والجوارى وقوف حولهما وقد ظلل الحوض المذكور رواق من العرائش والاشجار المخضرة الأوراق وكان الماء يسيل فيـه مجدولا بين النبات البديع المصنوع والمقطوع بمقـدار واحد ولون واحد وكذلك كانت الأواني جميعها من الزمرد الأخضر موضوعة على خوان من جنسها ولونها محاطا بالنباتات على شكل غريب . وبعد مدة قليلة نهضت برى وقبلت أيادى بهرام شاه ودعت له بالبقاء بطول العمر وقالت له أجل يا سيدي ويا سلطاني ومالك رقي إني أراك تحدق في كل ماتراه وأشاهد على وجهك علامات التعجب والاستحسان ولا ريب أنه يتردد في فكرك أن تسألني لماذا اخترت اللون الاخضر وفضلته على باقي الألوان ولهذا فاني أريد أن أبين الك السبب اذ أن لـكل شيء سببا فاذا تنازلت وأمرتني نقلت لك حكاية غريبـة في هذا المعنى تسر لها وتتأكد منها تفضيل هذا اللون على سواه .

فشرح صدر بهرام شاه لذلك وأظهر اشتياقه واستعداده لاستماع حكايتها وأمرها أن تبتدئها . فدعت له وأثنت عليه مرة ثانية وابتدأت في سرد حكايتها فقالت .

قصـــة بشر العابد

يحكي أنه كان رجل عابد في احدى مدن بلاد الروم اسمه بشر فلما بلغ الخامسة والعشرين من عمره وصل إلى أرفع درجة من العلوم والمعارف والذكاء المفرط فزهد في الدنيا وانصرف عنها وتبرع بكل ماتركه له والده من المال والجواهر على الفقراء والمعوزين وكان مكتفيا لنفسه بالخبز اليابس والماء فقط وعكف على الدرس والمطالعات والصلوات ارضاء لله جل جلاله وما بلغ عمره الثلاثين الا وقد أتقن علوم الكلام بأجمعها وبالأخص العلوم الدينية فأصبح معروفا محبوبا من خاص الأهالي وعامتهم كلهم يحترمونه ويجلون قدره حتى الحاكم ورجال الدولة فانهم كثيرا ما كانوا يأتون اليه ويتبركون به لما يرونه عليه من التقوى والعبادة ومداومة الصلوات ليلا ونهارا واقباله على فعل الخيرات والمبرات فكان اذا قدم اليــه أحد من الموسرين مالا قبله وفرقه على الفقراء والمحتاجين فاتخذ لنفسه صومعة في سفح جبل وأعد فيها لوازمه وجعلها محلا لاقامته ومقرا لعبادته وصار لا يدخل المدينة إلا في الاسبوع مرة أو في الشهر مرة وبعد أن يطوف فيها ساعات معدودة لشراء بعض الضروريات لطعامه أو شرابه أو لبسه ويعتكف فيها للصلاة والعبادة .

ففي ذات يوم خرج هذا الحبيس العـابد من محل عبادته وجاء الى أطراف المدينة وفيما هو سائر رأي امرأة تسير أمامه وحالما أصبح تجاهها وجها لوجه اشتدت الريح فأطارت غطاء رأسها وظهر من تحته وجه صبيح جميل أشرق كالبدر المنير انقشعت عنه السحب وارتفعت عنه الحجب والغيوم أو كالشمس المنيرة بددت أستار الظلام .

ولما وقع نظره عليها وشاهد معني حسنها وجمالها كاد يطير صوابه وأراد أن يحول وجهه عنها أو يغمض عينيه عن مشاهدة أنوار ذلك المحيا البهيج فلم يقدر وبالرغم منه صادف الحب قلبه فارغا فتمكن منه وانجرح قلبــه وطار صوابه ووقع عن غير اختيار إلى الارض مغشيا عليه .

وأما الفتاة فقد استولى عليها الخوف والهلع فلم تقف وخشيت أن يقول المارة إن ما أصاب الرجل هو منها فأسرعت إلى غطائها فرفعته عن الارض وأعادته

إلى رأسها وأسرعت المسير وبقى الرجل العابد مطروحا فى مكانه لا يعى شيئا مما حوله مقدار دقيقتين حتى اجتمع حوله الذاهب والآيب من الناس وبالطبع فان حادثا كهذا الحادث يحدث لرجل مثل بشر يعرفه الناس جميعا حادث ينبغى أن أن تقوم له قيامة الناس فاجتمع حوله الجماهير الكثيرة وحملوه على أيديهم الى معبده ورشوا الماء على وجهه واعتنوا بأمره حتي فتح عينيه وعاد إلى وعيه ولما رأى القوم محيطين به وأدرك الحالة التي هو فيها انفعل فى نفسه ثم جلس متسائلا منهم عن السبب الذى أغابه عن الوجود وأضاع رشده فقالوا له لا نعلم بل رأيناك ملقى على الارض غائباً عن الوعى فحملناك وذلك في المحل الفلانى فى الطريق الفلانى من المدينة وحينئذ عاد اليه خيال الفتاة التي رآها وكانت السبب في تلك المصيبة وأدرك السر فى كل ما جرى له فوقف فى الحال وأخذ فى الصلاة والاستغفار إلى الله والتوبة من ذنبه الذى ارتكبه برؤيته الفتاة وعشقه لها . وعندما رأى الجماعة حالة العابد أخذوا بجملتهم يقبلون أذياله وأياديه ويسألونه الدعاء ثم انصرف كل منهم الى حاله .

وما انصرف القوم إلا وقد عاودت الأوهام بشر العابد وأخذ قلبه يضطرب شوقا الى جمال تلك الفتاة التي أخذت بمجامع قلبه واطارت عقله من نظرة واحدة عن غير قصد ولا تعمد ولكنه علم أن أول الحب نظرة ثم جعل يناجى ربه قائلا أسألك العفو يارب وأسألك الأمان ياليتنى ما خرجت من صومعتى فى هذا اليوم أو ليت الغطاء لم يقع عن رأس تلك الفتاة الفاتنة فماذا أعمل الآن نظرة واحدة أضاعت صوابى وأفقدتنى رشدى وأضحت معارفى وعلومي وعبادتى وصيامى ضحية لتلك النظرة . وأخذ يجتهد ليبعد عنه هذا الفكر ويطردن من خاطره صورة تلك المخلوقة البديعة ويشغل قلبه عن حبها بالصلاة والعبادة ولكن هيهات هيهات فقد قضى الأمر وشغل الفكر وسرى الحب فى كل عروقه ورأى الغرام مكانا خاليا فى قلبه فتمكن وما كان يعلم ما الحب وما قدرة سلطانه حتى وقع فيه فكان تارة يقول ان ذلك تقدير من الرحمن وتارة يقول إن ذلك طغيان من الشيطان . والغاية ان الغرام لعب بعقل العابد واستبد به العشق والهيام وأخذ يزيد من ساعة عن أخرى ومن يوم إلي آخر وكلما مر عليه يوم ازدادت بلابله وهاجت وساوسه وتعلق قلبه بتلك الفتاة وأصبح لا هم له إلا استعراض صورتها البديعة فى مخيلته التى كانت لا تفارقه طرفة عين وظل يبحث عن طريق

يخلصه مما هو فيه ولكن بدون جدى فكان كلما وقف الى الصلاة رأى محبوبته واقفة أمامه بكمالها وجمالها ورأى الغطاء طائرا عن رأسها وهى تنظر اليه فى حياء وخجل ومر عليه أسبوعان وهو على ماهو عليه ولم ير وسيلة لخلاصه من غرامه ولا نفعه علمه وآدابه وتقواه وورعه لدى قوة سلطان الحب القادر الجائر . وأخيراً لما رأى أن لا وسيلة إلى التسلي وعز عليه السلوان أدرك عجزه وأن هذا الحب كان أمراً مقدورا عليه من الأزل فلجأ إلى التضرع الى الله تعالى كثيرا ليبعده عنه ويخلصه من مصيبة الحب والورطة التى وقع فيها فلما لم يستجب الله منه بالرغم من الدعوات اشتعلت نيران الحب فى قلبه بأكثر من الحالة الاولى عاد فسلم أمره للمقادير وصار يسأل الله تعالى ويتوسل اليه أن يريه تلك الفتاة ثانية عسى أن يجد فى ذلك سلوى أو تعزية وعند ذلك فقط اطمأن قلبه واستراح نوعا ما إذ اعتقد فى ضميره أن الله سيمن عليه يوما ما برؤيتها وأصبح ذلك فى نفسه كالعقيدة الثابتة . فصار يقصد المكان الذى رآها فيه فى كل يوم مرتين أو ثلاث مرات يطوف فيه ويتعمد الوقوف والتلفت الى الجهة التي واجهته الفتاة فيها ولكن محاولاته ذهبت عبثا أدراج الرياح فانه لم يرها ولم يستفد من ذهابه وزيارته وطوافه غير التعب واشتداد الحب والضنك وعذاب القلب حتى رق وضعف وأصبح كالخيال نحولا وسقما . وعندما رأى العابد أن حاله قد وصل الى هذه الدرجة غرق فى بحار من الهموم والافكار وجعل يقول فى نفسه أين العفة أين الطهارة أين العبادة التي صرفت زمانى عليها وعاهدت الله أن لا أنفك عنها ماذا جرى لى ومن أين جاءتني هذه المصيبة وما المقصود بهذا الحب هل أن الله لا يرضى لى بحالة التعبد منفرداً عن الناس بل يريد أن يجربنى فأرسل لى الشيطان فألقى فى رأسى هذا الوسواس ولكن محال أن يكون ذلك من الشيطان ولو كان من الشيطان لتغلبت على طرده باسم الرحمن مع انى طالما صليت وسألت الله أن يخلصنى من هذا الحب الجارف فلم أزدد الا تعلقا واشتدت بى نيران الغرام والهيام نعم ان لله فى ذلك سرا عجيبا ولكن ماذا يا ترى هذا السرور وماذا أعمل وكيف السبيل الي الوقوف علي حال تلك الفتاة ومن هي يا ترى وهل هى متزوجة أو بكر واذا كانت متزوجة فان النظر الى وجهها حرام على ولا أرضي به بل ويستحيل زواجي بها .

ولم يكن لبشر العابد شاغل ولا اهتمام بغير هذه الافكار التي شغلته عن العبادة غير أن كان وكلما قصد التخلص من أفكاره عمد إلى الصلاة فصلى وسأل الله أن يبعد عنه خيال تلك الفتاة وينزع حبها من قلبه ولكن دون جدوى فأصبح يرى أن من المستحيل البقاء على تلك الحال وقد يستحيل عليه أن يترك صومعته ويسكن فى المدينة ويبحث على تلك الفتاة التي لا بد أن تكون محجبة فى بيتها لا يراها أحد واذا رآها فتكون مستترة فى أثوابها فلا يعرفها وليس فى قلبها من حبه شيء فمن أين يتوصل اليها هذا فضلا عن أنه يصبح مضغة فى أفواه الناس فبعد ذلك التعظيم والاعتبار وتلك العفة والطهارة وذلك العلم والتقوى يصبح عاشقا مغرما بفتاة لا يعرف طريق الوصول اليها والحصول عليها ولما زاد به الحد وخرج عن قاعدة القياس لاح له أن يترك تلك المدينة ويقصد بيت المقدس ويقدم العبادة هناك لله عسى أن يفرج عنه وقد ترجح لديه أن هذه الفكرة هى الواسطة الوحيدة لسلوان من أحبها فأولا هو سيبتعد عن المدينة فيقل طمعه فى رؤيتها وربما زالت من خياله صورتها فينساها . وثانيا زيارة الأماكن المقدسة . وفعلا فانه بأسرع زمن وأقصر مدة أى في الساعات القليلة التي كانت باقية من ذلك النهار هيأ ما يحتاجه فى سفره وما وصلت اليه يده من الهدايا لبيت المقدس وفى الصباح ركب جواده وصار قاصدا مدينة القدس الشريف ولم يكن له شغل إلا ذكر الله والعبادة ومع ذلك فقد اجتاز الطريق كله فى عدة أيام وشخص فتاته لا يفارقه وحبها يعظم فى قلبه وكلما رام بعدا زاده قربا .

ولما صار قريبا من بيت المقدس نزل عن جواده ومشى باحترام بقية الطريق وفرسه بجانبه وعليه الأحمال وما زال على تلك حتى دخل المدينة فبدأ بزيارة الاماكن المقدسة ثم سأل الله أن يفرج عنه غمه ويذهب كربه ويطفىء نيران الحب المشتعلة فى قلبه وأن يجرى ارادته فيه بلطف واحسان وبدون عذاب وضنا فاذا كان ذلك بأمره تعالى فليقرب زمن رؤيته ووصاله عن جعلها موضوع أفكاره حتى شغلته عبادته وإن كان من الشيطان لينزع حبها من قلبه ويخلصه مما هو فيه وليطرد عنه الشيطان ووساوس الشيطان .

ولما فرغ من وقت الزيارة رأى نفسه مضطرا للعودة ودع بيت الله بالدعاء والصلاة وخرج من المدينة وفيما هو سائر فى طريقه صادف رجلا فحياه وسلم كل منهما على الآخر ثم سأله من أين هو آت وإلى أين يذهب فقال له انه

عائد من المدينه الفلانية الى مدينته . فلما سمع العابد بشر أن الرجل من مدينته وأنه سيرافقه المدة الباقية من الطريق فرح جداً وقال له وأنا أيضا ذاهب الى المدينة المذكورة وسنترافق الطريق بطوله . فقال له الرجل حبا وكرامة وقد ظنه أحد مواطنيه الأعيان .

ولما قطعا جانبا من الطريق سأل الرجل بشراً عن اسمه ومن أين هو آت : فأجابه اسمى بشر وقد ذهبت الى بيت المقدس لأداء الزيارة وأنا الآن عائد الى بلدى . فقال له الرجل . الآن تبين لي مما ذكرته أنك رجل جاهل عديم المعرفة لا تعلم شيئا عن حالة هذه الدنيا وأحوالها .

فلما سمع بشر من الرجل هذا الكلام تعجب منه جدا وسكت متفكرا قائلا ترى من يكون هذا الرجل وما معنى توبيخه لي وتعبيره لي بالجهل وقلة المعرفة وماهو علمه وفضله ثم صمم النية على سؤاله واستخلاص ما في خاطره فقال له لقد عرفت اسمى ومن أنا وأين كنت وإلى أين أقصد فاخبرنى الآن من أنت وما اسمك وما معنى الكلام الذى قلته ففتح الرجل فمه وأطلق لسانه بالكلام دون تردد ولا انقطاع وقال .

نعم يا بشر الحق أنك رجل جاهل وبسيط لا تعقل ولا تدرك ما الفرق بين الناس أنا الذي يقال له مليخا إمام الأئمة وفيلسوف العالم ورب من اشتهر بالعلم والفضل وتفرد فيهما بين الانس والجن . وليكن مؤكدا لديك أنه لم يأت الى هذه الدنيا رجل عاقل كامل فاضل مثلي ولا يمكن أن يأتى والآن اعلم الحقيقة أنه لا يوجد شخص يضاهيني تحت قبة الفلك فاصغ الآن واعلم مقدار علمى وفضلى وكمال اطلاعى على أسرار الدنيا وخفاياها فكل ماهو على الارض وفى البحر بل كلما يخطر للانسان ويلوح له موجود علمه عندى وظاهر لدى وهذا الذي يجعلنى فريد الدهر وحيده نعم نعم لا يوجد مثلى فى العالم مطلقا فأنا نادرة الزمان ودرته الفريدة أنا العالم الذي لم تفتح الشمس عينها على رجل عالم فى درجتي يقاربها أو يدانيها . وقد عقم الزمان عن أن يوجد مثالى فقد أوصلني العلم إلى درجة أعلم منها ماهو أصل تكون الجبال ومقدارها وارتفاع كل واحد منها وكذا السهول والانهار وكيف تجرى وإلى أين تنتهى وأجناس النباتات والحيوانات بأنواعها وماهو جميل وماهو قبيح وما هو محبوب وماهو مكروه منها وأعلم أصل منشأ كل شىء وأعلم الابراج الفلكية ومكان الشمس والقمر

والـكواكب والملائـكة وكيف صارت وما هو عملها وكلما يخطر فى أذهان المخلوقات من أولها وأعظمها حتى النملة على صغرها وضعفها فانى أعلم ماهى عليه وما يخطر فى بالها وكذلك أعلم زمن تسلط كل ملك وزمن سقوطه أوانقراضه وأخبر به قبل ألف سنـة وأيضا أعلم الطب علما لم يسبقنى اليه أحد حتى أننى أقدر أن أدفع كل مرض يقع فيه الانسان وأرد عنه الموت إذا أردت . نعم مهما قلت فأنا فوق ما أقول أنا لست حيوانا مثلك وانمـا أنا انسان ، انسان كامل لا يدانيني فى الفضل أرسطو ولا أفلاطون ولا فيثاغورث وكل فلاسفة العـالم وحكمائه أطفال صغار بالنسبه إلى أقول وأنا أعنى ما أقول انى انسان وأنك حيوان فالانسان الذى يقال عنه انسان هو من كان مثلى ومن كان دوني فى الفضائل والمعارف فهو حيوان مثـلك . الانسان من يعلم كم حبة تراب فى الارض ويعرف مافيها من الجواهر والخزائن والخفايا التى دفنت فيها فاعلم يابشر أنك الآن أسعد حيوان على وجه الارض لأنك الآن فى صحبة الرجل الذي لا يوجد له نظير ولا فى هذه الدنيا حتى ولا فى الفلك والسلام .

فلما سمع العابد من رفيقه هذا الـكلام بقي مقدار نصف ساعة محدقا فى وجهه بكمال الحيرة والتعجب ولم يجسر أن يفتح فمه وكان يفكر فى نفسه قائلا من هذا الرجل وما هو هذا الهذيان الذى يقوله أهل أحد غير الله سبحانه وتعالى يقدر على مثل ادعاءاته فكل ماذكره إنما هو من العلوم التي اختص الله بعلمها وفيماهو يفكر إذ ظهرت فى ناحية من الأفق غيمة سوداء وفى ناحية أخرى غيمة بيضاء ولما رأى مليخا هاتين الغيمتين التفت الي بشر وقال : أى بشر الاحمق هل تقدر أن تعرف لماذا إحدى هاتين الغيمتين بيضاء والثانية سوداء ؟ فضاق صدر بشر العابد من كلامه القبيح وادعاءاته العريضة ولـكنه تصبر وتحمل وقال لنفسه صبرا إلى النهاية وحينئذ فتح فاه وقال . نعم يا مليخا إن حكمة الله سبحانه وتعالى قد قضت بذلك فالسوداء هى متراكمة بالمياه التى رفعتها حرارة الشمس متكاثفة من ثقلها بالامطار بعضها فوق البعض سوف تسوقها الرياح الى الاراضى الميتة التى لا مياه فيها حيث تسقط أمطارا تملؤ الانهار وتسقى الارض وتنبت الزروع والاعناب أما البيضاء فهي غيمة رقيقة خالية من المياه ولا مطر فيها لضعف اجتماعها ورقتها وعدم تكاثفها .

فقال مليخا كلا وهذا الذى يبرهن لى عن جهلك وعدم معرفتك أأدركت

العلم كم هو عظيم إن هذا الذي تراه ليس غيما كما ترى بل هو دخان محترق ولا يقدر أن ينكر ذلك انسان في رأسه عقـل . وأما البيضاء فهي رطوبة خفيفة متصاعدة من الارض أعلمت أيها الجاهل في أي درجة أنا من العلم والمعرفة فسكت بشر أيضا وتحمل وصبر ولم يجبه بكلمة واحدة وبعد لحظة واحدة هبت ريح شديدة فعاد مليخا الى الـكلام فقال لبشر أتعـلم هذه الريح من أين مصدرها إذ يلزم أن تكون عارفا كل شيء ولا تكون عائشا كالبقر والحمير لا تعلم شيئا . فأجابه بشر سبحان الله لقد تماديت يامليخا في سوء أدبك وتجرأت علي وعلى كل حال فهي بأمر الله سبحانه وتعالى فتقع عندما يريد ولا تظهر عندما لا تكون له إرادة في ظهورها .

إن الرياح تيارات هوائية تنشأ عن الاعاصير الواقعة في البحار العظيمة من الانطلانطيقي والأطلسي والباسفيكي والهندى حيث تقع أعظم حرارة شمسية في هذه المناطق فتتأثر بها المياه في أعماق البحار . فاحمر وجه مليخا وغضب وقال له يالك من سفيه قليل العقل أتيت أيضا بدليل ضعيف فالى أى وقت تعتقد أنت بهذه الاعتقادات الباطلة والى متى تتمسك بالخرافات العجائزية لماذا تجتهد دون أن تدرك وتدعى العلم وأنت جاهل ألا تعلم ما في الدنيا في الحقيقة إنك لم تحصل علما واحدا وإن دماغك على كبره وضخامته لم يسع واحدة ان ماتقوله هو من الأوهام الفاسدة والاباطيل الزائدة ان أصل هذه الريح من الخلاء بحركه بخار الارض ويهزه

فلما سمع بشر كلامه ضاق عليه رحب الارض وكاد لا يصبر عليه لولا أن عقله حمله على السكوت والتأني منتظرا النهاية وهو يقول في قلبه رحماك يارب أية بلية جلبت على نفسي ياليتني مارأيت وجه هذا الرجل ولارافقته في طريقي وفيما هو يفكر في ذلك صادف مرورهما على جبل عال فالتفت مليخا إلي بشر وقال له الآن أسألك سؤالا تعلمه الاطفال وتجيب عليه بصواب فاذا زغت عن الحقيقة ضاق صدرى وأحوجتني إلى الغيظ والـكدر .

أسألك لماذا هذه القمة من الجبل أعلى من باقي القمم ولما هذه القمم أصغر من تلك القمه أجب حالا . فأخذ بشر يهتز من سؤاله اهتزاز الأغصان عند هبوب الرياح وعزم أن لا يجيبه لـكنه فكر أن يصبر أيضا ويطيعه ليرى النهاية فقال له ان ماتسأله فهو واضح فان الرياح وعمل الانسان من القدم وتأثير البراكين

والزلازل ومياه الامطار هو أسباب ذلك وهذا أيضا راجع الى أن الحكمة الالهية قد قضت بمثل هذا التفاوت بين القمم كما قضت بالتفاوت بين أجناس الانسان والحيوان والنباتات وكل المخلوقات سواء كانت فى الارض أو فى السماء . فأظهر مليخا الغضب والحدة الى منتهاهما وقال يالك من بليد أحمق جاهل هل تظن بنفسك العلم والمعرفة وأنت حيوان أعجم لاتعى ولا تفرق بين النور والظلام ألا تعلم عندما تمطر السماء ويسير المطر على الارض لا يلحق بالمحلات المرتفعة فتبقي على حالها والمحلات التي تسيل عليها مياه المطر تنقص وتنخفض بما تجرفه المياه منها وكلما اشتد المطر فى ناحيـة زادت انخفاضا هذا هو السبب فى ارتفاع الجبـل وانخفاض السهول وتفاوت الآكام عن بعضها البعض بالارتفاع والانخفاض هل علمت .

ففي هذه المرة ضاق صدر بشر العابد ولم يعد قادرا على التحمل والصبر فقال له والغضب يقيمه ويقعده ان كل هذا الهذيان الذى تكلمت به هو كفر صريح واثم وصار من الواجب قتـلك ومحوك من مملـكة يحكمها الله ويدبرها بعنايته فياويح لنفسك أيها الخبيث استجمع عقلك وافتكر فيما تقوله فانك تقـاوم الله وتخالفه فاذا كنت لا تعلم شيئا فلماذا تدعى العلم أعوذ بالله هل أنت شريك الله فى عمله ومعرفته حتي تأتى بالادعاءات الفارغة ماهو حدك لتتكلم مثل هذا الكلام ومن أنت لقدصبرت عليك واحتملت منك الاهانة والتحقير ولم أفه ببنت شفة حتي زاد بك الـكفر والطغيـان فلو بلغ الانسان بعلمه أعلى درجات المعرفة لايحسب ذرة بالنسبة لعلم وعمل واجد الوجود نحن لانقدر على عمل شيء والانسان الحقيقي الكامل من يعلم من نفسه بأنه مخلوق مصنوع بيـد خالق عظيم وصانع عجيب فكيف يتساوي الخالق بالمخلوق ان ذلك الا عصيان وكفر واذا كنا نعلم ما يعلمه فكيف لا ندفع الموت عن أنفسنا ونتغلب كما هو متغلب عليه فنحن نموت وهو لا يموت ففي الحق ان فخر الانسان بعلمه ومعرفته جهل فاضح فما علم الانسان في حالة الوجود إلا كعلم الجنين وهو فى الرحم فأقصر الآن عن غيك ولا تدعى معرفة ماتجهله .

فلما انتهى بشر من كلامه قال له مليخا الآن تأكد لى جهلك وحمقك وقلة فهمك .... ثم هز رأسه وسكت عن الكلام . فقال له بشر لقد أحسنت فاني أريدك أن تسكت وقل عنى جاهلا . أو قل عنى حيوانا ومهما قلت فقل ولكن

اصمت عن كل كفر . ولكـن هل يصمت مليخا كلا فانه كان كلما صادف شيئا اعترض عليه وطلب من بشر الايضاح عنه وعارضه فيه بالادعاءات الباطلة الفارغة وبشر يتململ ويتضجر ويتمنى أن لو لم يكن التقى بهذا الرجل الكافر

وبعد أن سارا على مثل ذلك عدة أيام وصلا إلى بر مقفر وصحراء محرقة معطشة واشتد بهما الظمأ وكان لشدة حرارة الهواء يتضايقان من شدة العطش حتى أصبحا فى حالة يرثى لها وقد تدلى لسانهما من حلقيهما ونشف ريقهما وكان كل واحد منهما يبحث عن الماء من جهة وبشر يقول فى نفسه من أين جاءتني هذه البلوى كل ذلك من كفر هذا الرفيق الخبيث ولم ينقض النهار حتى رأيا عن بعد شجرة اجتمعت عليها الطيور وحامت حولها فقالوا لا بد أن يكون تحت هذه الشجرة ماء فأسرعا اليها فوجدا عند أسفلها ماء صافيا رائقا ووجدا فى الأرض حفرة كبيرة كأنها فم كوب والماء داخلها فلما رأيا الماء فرحا وكان أشدهما فرحا مليخا وقال لرفيقه أنظر كيف وجدت لك المـاء أعلمت مقدار عقلي وعلمي فلا تعد تنكر على بعد الآن ما أقوله لك فقـال له بشر أخذ الله روحك وأراحنى من كفرك هل أنت الذي أوجدت الماء ثم انهما جلسا حول الماء وشربا منه فوجداه لذيذا صافيا شهيا فاستنسبا أن يقيما ساعة هناك للراحة . ومع ذلك فان مليخا لم يكف عن الكفر وكثرة الكلام فقال أي بشر أريد أن أسألك سؤالا لأرى هل تقدر أن تجيبني عليه تماما من الذى أدخل هذا الكوب في الارض على هذه الطريقة ولماذا يجرى هذا الماء ومن أوجده فيه فقال بشر نعم انه لم يكن ماء فى هذه الصحراء المقفرة فلاجل راحة المسافرين والمارين في هـذه الصحراء التي لا ماء فيها ويشتد فيها الحر والظمأ أقام أهل الخير هذا المـاء ثوابا لوجه الله ولأجل وقايتها وضعوها فى صورة كوب داخل فى الارض وهم الذين يحافظون عليه من الكسر ويأتون إلي هنا بالماء فيضعونه فى هذا المكان كلما فرغ وبذلك يكتسبون دعاء الذاهب والآيب وينالون الأجر والمثوبة من الله عليه تعالى فهذا الماء سبيل من أهل الخير فقال له مليخا ما شاء الله عليـك أيها الفيلسوف الماهر وألف ماشاء الله عليك وعلى هذا العقل الناقص والفكر القاصر ولو كنت أعلم ما أنت عليه من هذه الافكار الجنونية التى لا تصدر إلا عن البسطاء والجهلاء من الناس ولا يقولها إلا كل ضعيف الرأي عديم الادراك والصواب لاخترت الانفراد بنفسى ولا اتخذتك رفيقا لأن من أعظم الضربات ابتلاء العالم

بالجاهل . ألا تعلم أيها الكبير الدماغ الصغير العقل أن هذا الماء ما وضع هنا إلا كفخ لأن الصيادين اللذين يطوفون الصحارى والبرارى لأجل صيد الحيوان قد اختاروا هذا المكان فوضعوا فيه هذا الكوب وملأوه ماء وزرعوا عنده هذه الأشجار وصاروا عندما يطلبون الصيد يأتون فيختفون فيها وبالطبع فأن الحيوانات كالأرانب والغزلان ونحوها عندما يشتد بها العطش والظمأ تطوف الصحراء مفتشة على الماء حتي تأتى هذا المكان متهالكة من الظمأ فترمى بنفسها الى الماء فينقضون عليها ويمسكونها أو أنهم يرمونها بالسهام فيقتلونها وهذا هو القصد من وجود الماء هنا .

فقال له بشر ليس هذا بالمهم فكل انسان يعتقد ما يلوح له ويخطر فى ذهنه ويري الأمور بحسب ضميره وطهارة قلبه فالرجل المتدين الذى يخاف الله يظن بالناس خيرا ويرى الخير فى كل ناحية وأما الرجل الكافر فيظن بالناس سوء فكل خير يعملونه يراه شرا لأنه لا يعرف للخير بابا فاصغ لي واقبل منى النصيحة ولا تكن كافرا ولا تتكلم بالناس شرا ولا تحد عن طرق الخير وتب الى الله سبحانه وتعالى فيعفو عنك فان المرء يأكل من ثمرة أعماله فاذا سمعت منى وقلعت من قلبك ورأسك هذه الافكار الباطلة والاوهام الفاسدة والمعتقدات وطهرت نفسك من أدران الكفر ذهب عنك غضب الله وتخلصت من انتقامه .

فهز مليخا رأسه وقال له أقصر عند حدك فقد ابتليت بك فلا حول ولا قوة والآن بعد خروجنا من هذا المكان سر أنت وحدك وأنا وحدى لأن رفقة الجاهل مصيبة كبرى وبلية عظمى فكفانى ما لقيت منك فيما مضى .

ثم إنهما وضعا الأكل وأكلا وشربا واستراحا برهة وبعد ذلك قال مليخا انى أريد أن أنزل فى هذا الماء واغتسل فانتظرنى بضع دقائق . فلم يخالفه بشر بل نهض واقفا وأخذ يتمشي بضع خطوات مفكرا فى أمر رفيقه متأسفا عليه غير ناظر الى نفسه .

أما مليخا فانه نزع ثيابه وغاص فى الماء ولم يعد يظهر له أثر وبقى بشر على حاله مقدار ساعة ثم جاء لجهة العين ونظر جهة الماء فلم ير أحدا فوقف مبهوتا متعجبا حائرا لا يعلم ماذا يعمل ولا يعرف ماذا جري لرفيقه هل أن الارض ابتلعته أو أن العفاريت اختطفته وقد لاح له أن العين عميقة وأن مليخا ربما يكون قد غرق فيها رفيقى على حاله نحو ساعتين واذا بجثة مليخا تطفو على وجه الماء

فمد بشر يده اليها وتناولها بأسرع من لمح البصر وأخرجها إلى الارض فاذا هو ميت فحزن عليه جدا ولكنه قال فى نفسه هذا فعل الله العظيم إن في ذلك عبرة لأولى الكفر ثم خرّ للأرض ساجداً وصلى لله وشكره على رحمته به وسأله العفو عن روح مليخا الذى أنكر قدرته وادعى لنفسه معرفة كل شيء . ثم حفر فى الأرض قبرا فدفنه فيه وجمع ثيابه وأمتعته وما يحمله من المال وكان مقداره مائة دينار ذهب وقال من اللازم أن أحمل تركته الى المدينة وأسأل عن أهله وأقاربه فأدفعها اليهم إذ لا يليق بى أن اختص بها لنفسى أو أتركها لغيرى وركب جواده وسار في طريقه وهو لا يفتر عن ذكر الله ولا يغيب عن ذهنه كل ما وقع له مع مليخا تارة يأسف عليه ويحزن لأجله وطورا يقول كمن يناجيه . أى مليخا كيف أغرقت نفسك وكيف مت مع أنك أمام العالمين وتدعي أنك تدفع الموت إذا أردت أين تركت علمك ومعرفتك وأين كرامتك وفضيلتك قلت أنك تعلم علم الغيب وتعلم ما يكون قبل وقوعه بألف عام وتعرف كل ما في الارض والسماء مع أنك لم تعلم مافى هذه الحفرة الصغيرة لماذا لم تخلص نفسك من الموت لماذا تركت هذا الماء القليل يقوي عليك ويخنقك . لقد قلت لك أن هذا الماء وضع هنا لأجل حياة الانسان ووقايته من الظمأ ولعمل الخير وأنت قلت انه وضع لاجل صيد الحيوان والوحش فها قد جوزيت بسوء ظنك .

ومازال سائرا فى طريقه عدة أيام حتى وصل المدينة وكان جل اهتمامه أن يوصل أمتعة مليخا والمائة دينار التى وجدها معه الى أهله ويخبرهم بما وقع له معه وهو على يقين أنهم يصدقونه فى كل ما يقوله . ولكنه حالما دنا من المدينة عادت اليه أفكاره الغرامية وعاد اليه خيال تلك الفتاة الحسناء التى رآها وقد طار الغطاء عن رأسها يتراءي أمامه ويلوح لعينيه خصوصا عندما مر من تلك الناحية التي رآها فيها فلما اشتد به الحال قال اسألك العفو والمغفرة يارباه لقد فارقت المدينة وقصدت بيت المقدس وتبت اليك واستغفرتك من ذنبي وسألتك أن تخلصنى من ربقة سلطان الغرام . فها أنا أرى حالتى كما هى بل أشد فما هى ارادتك وما هى حكمتك يارب اغفر ذنبي ياربي ارحمني ولاتجعل حياتى شقاء وخلصنى من كل شر وكان أهل المدينة لما علموا بوصوله خرجوا كبيرا وصغيرا للقائه وكلهم يقبلون يديه ويتبركون به .

وما زالوا يسيرون حوله وبين يديه يرحبون به حتى أوصلوه الى صومعته فودعوه وسألوه الدعاء لهم وبقي هو كسابق عادته يصلي فى صومعته ويحارب أفكاره الغرامية مدة أسبوعين .

ثم رأى من الضرورة السعي والسؤال عن بيت مليخا كي يوصل أمواله إلى أهله فدخل المدينة وسأل عن بيت مليخا فتسابق الناس الى خدمته حتي أوصلوه اليه فشكرهم وصرفهم ثم طرق الباب فأجابته امرأة من الداخل . من الطارق . فقال لها أهذا بيت مليخا . ففتحت المرأة الباب ووقفت من خلفه وقالت له نعم هذا بيت مليخا فلماذا تسأل عنه وما هو طلبك فربما أمكننا أن نلبيه . فدخل بشر ووقف مبهوتا متفكرا كيف يباغتهم بالخبر وكيف يعلمهم بموت مليخا .

وبعد التردد سأل المرأة هل أنت زوجته . أجابت نعم أنا أسيرته أو بالحرى زوجته المعذبة فالله يفكنى من هذا القيد . فتعجب العابد من كلام المرأة وطعنها بزوجها . فسألها هل أنت غير مسرورة من مليخا أجابته انى أطلب من الله إما أن يأخذ روحى واما أن يأخذ روح هذا الخبيث الكافر الطاغي ويخلصنى من يده لأني لاقيت من كفره وظلمه وعذابه مالا يمكن أن تكون امرأة على وجه الارض قد لقيته من الكفر والظلم والعذاب . ما رأيت في كل مدة وجودى معه دقيقة واحدة من الراحة والهناء ولهذا السبب ترانى غير مسرورة من هذا البخث التعس والحظ النكد وقد أخفيت حالي عن كل الناس ولم أخبر بحالى أحدا لاقريبا ولا غريبا والآن لا أعلم ما السبب حتي بحت بظلمى وعذرى أمام رجل لا أعرفه ولكن ما ذلك إلا بقضاء الله وقدره فاعذرنى يا سيدى فقد تكلمت عن غير وعى . ولكن هذه حالتي أنطقني الله بها والسلام .

فتعجب بشر غاية التعجب وقال فى نفسه انى ما رأيت ولا سمعت طول عمرى ما أسمعه الآن من هذه الفتاة فهى على ما يظهر فى ريعان الصبا ومقتبل العمر ونضارة الشباب فكيف تزوجت برجل تكرهه وما هو الداعى لزواجها منه وما هو العذاب الذي تلاقيه منه وقد رأى من عذوبة كلامها ورقة ألفاظها ومعانيها ما وقع فى قلبه موقعا رفيعا وبعد أن أطرق إلى الارض برهة قال لها قلت انك تكرهين مليخا فاذا كنت تكرهينه حقا فلماذا تزوجت به ومن كان سبب هذا الظلم احكي لي ولا تخفي فانى أكره مليخا أكثر مما تكرهينه وسترين ذلك بعد قليل .

فقالت كيف لا أكرهه وهو لم يعتبرني بمقام الزوجة بل كان يحتقرني ويهينني ومع ذلك فاني لم أخالفه قط في أمر من الأمور إلا في مبادئه الكفرية فأنا بنت التاجر فلان وقد أحبني أبي وأمي كثيرا . فلا أعلم من أين سمع بي مليخا ولا من وصفني له فصرف جهده للاقتران بي وقد تظاهر أمام والدي بالغنى والعقل فزوجاني به . وبعد أن أقمت عنده يومين فقط بدأت تظهر منه أحوال غريبة وآراء كفرية وأطوار وحشية فهو يتكلم بكلام غير معقول ويكفر بالله وبقدرته وحتى الآن لم أر من هذا الرجل الا المعاكسة والاهانة ومع أن أبي وأمي كثيرا ما اجتهدا من منعه من الهذيان والشطط فهو لم يزد إلا غلظة ووحشية وكفرا بالله العظيم ثم صار يمد يده الي ويضربني من غير ذنب مع أني أري العاقل من الناس يعيش مع زوجته بالحب والسلام لتتم سعادتهما ولا سيما اذا كانت الزوجة متهالكة في راحة زوجها وقيام بيتها عاملة على كل ما يطلبه الله منها من الحقوق الزوجية المقدسة كاملة في محاسنها وآدابها وطهارتها .

وكانت تتكلم وبشر العابد يسمع لها وقلبه يختلج من فصيح كلامها ورقة معانيها وحسن مباديها وسمو آدابها ثم قال لها إذا كان الأمر كما زعمت فاني أقدم اليك بشارة كبرى فيها نفعك وخيرك وخلاصك من مليخا فانك لن تعودي ترى وجهه بعد الآن وذلك أني بينما كنت آتياً من زيارة بيت المقدس صادفت مليخا في الطريق فاتخذته رفيقا لي ولكني تكدرت منه لكفره وادعائه الباطل ونكرانه قدرة الله فقد لاقيت منه في هذه الايام القليلة من الهذيان كما قلت ماجعلني أكرهه وأندم على مرافقته وما زلنا حتى أتينا عين ماء وكنا من العطش في حالة يرثى لها وبعد أن شربنا وأكلنا ذهب لكي يغتسل في الماء فابتعدت عنه قليلا ونزع مليخا ثيابه وغاص في الماء فانتظرت ساعات فلم يخرج من الماء فافتقدته فاذا بجثته تطفو فوق وجه الماء وقد مات مختنقا بالغرق فأخرجته متأسفا عليه وقد تيقنت أن الله جازاه على كفره وعناده وبعد أن دفنته حملت ما كان معه من الامتعة والاموال وأتيت بها وقصدي أن أستدل على بيته وأهله فأسلمها اليهم لأنها حقهم الشرعي ولذلك بعد أن وصلت المدينة ببضعة أيام سألت أهل المدينة عن بيت مليخا فدلوني عليه وقد استصحبت معي الأمتعة والمال لأسلمها اليك فها هي حاضرة معي لان الله جل جلاله يحب الصدق وقد أوصي بالامانة فمن الواجب على أن أؤديها كما هي .

فلما سمعت المرأة كلام بشر لم تتكدر على زوجها ولا بكته بل بالعكس فرحت لانها كانت مظلومة معه وكانت تكرهه لكفره ونكرانه قدرة الله جل جلاله وادعاءاته العريضة الباطلة ولكنها كانت تفكر فى عمل بشر ثم قالت له بالحقيقة انك أمين وصاحب مروءة وكرامة ولو كان غيرك لأخذ كل ما كان يحمله زوجى وأخفي أمره أما أنت فقد أديت شروط الامانة فمثلك يجب أن تكون الرجال وإلا فلا والآن أرجوك أن تدخل الى الداخل وتجبر خاطرى وتتناول ولو شربة ماء جزاء معروفك وحسن ذمتك . ولما ألحت عليه دخل معها وهى تعظمه وتبجله وتحترمه وتكرمه .

ولما دخل بشر البيت وجده واسعا عاليا مزينا بأنواع الفرش الفاخرة وفيه خدم وجواري وكلهم واقفون فى خدمته . فتحير بشر العابد مما رآه ودهش وتعجب كيف أن مليخا مع كفره ونكرانه واجد الوجود حصل على غني وافر وسعادة كاملة وزوجة فاضلة مع أنه لا يستحق شيئا من هذا النعيم . فكان فكره موزعا تارة يتجه الى غنى مليخا ويسره مع كفره وإلحاده ، وتارة ينشغل بزوجته وفضلها وأدبها وقد شغل قلبه بها وصار يختلس النظرات اليها بالرغم منه ثم يعود إلى وعيه فيندم على ما فرط منه ولكن قلبه لا يطاوعه فيطمع فى التقرب اليها ولهذا كان يحدث نفسه ويتمني أن تقبله زوجا لها حلالا وكان يقول لو تم ذلك لى فانها تخدمنى وتكرمني وتعرف فضلى واعتبرها وأجعل عيشتها راضية فهى صالحة تقية . ثم يغالط نفسه ويقول كلا كلا لا يلزم أن أفتكر بمثل هذا الامر وأطمع فى زوجة الرجل وأمواله ولا سيما وهي لا يمكن أن تقبل بذلك ومن أين تعرفنى وتركن إلي وعلى الخصوص فقير لا أملك مالا ولا عقارا وكل ما كان عندى أنفقته فى سبيل الله .

وبعد أن قدمت زوجة مليخا لبشر حق الضيافة جاءت فجلست أمامه وسألته أن يعيد عليها خبر موت زوجها فأجاب طلبها وحكى لها الحكاية من أولها الى آخرها حرفا حرفا وكيف أنه صادفه فى الطريق وكيف ادعي أنه عالم الانس والجن وأنه عارف ما فى الارض والسماء وكيف قاومه وعانده وخاصمه وبين له قدرة الله ووحدانيته وهو يهزأ ويسخر حتى لقى عقابه . فجعلت المرأة تشكر الله وتشكر بشر العابد وتقول له نعم ان أفكاره كما قلت فهو لم يكن مسررا من أحد ولذلك كنت أكرهه وقد قضيت معه عدة أشهر وأنا كارهة له ولعناده

وكان كل همه متجها إلى حملي على الكفر والاشراك بالله ويكرهني لأعترف بوحدانية علمه فكنت أخالفه وأجتهد لكي أرده الى الله فكان يهينني ويضربني فالآن أشكر الله تعالى لأني تخلصت منه نهائيا ولو أني بقيت اشكر الله مدة عمري فلا أوفيه ماله علي من الفضل والمنة لخلاصي هذا .

وأما بشر فانه كان نشوانا من عذوبة ألفاظ الفتاة ولطف حركاتها وحسن محاضرتها ورفيع آدابها وكان يتمنى لو أنها تكون له وفي حوزته وهي لما رأت انشغال باله وتوهان عقله أدركت أنه تولع بها وعلق قلبه بحبها وكانت هي أيضا لما رأت فيه التقوى والعقل والذكاء وشاهدت فيه حسنا باهرا ووجها مشرقا مالت اليه وقالت في نفسها ماضرني لو اتخذته زوجا واقترنت به فاني لاشك أعيش سعيدة وأغسل تلك الأيام السوداء بأيام بيضاء فقد ساقه إلي القدر لهذه الغاية ولكن ما الوسيلة لمفاتحته في هذا الموضوع ولكن بعد التفكير والامعان قالت له وهو لا يزال غائبا عن وعيه لا يعرف خلفه من أمامه ولا يميز رأسه من رجليه . وإذا كان مليخا قد مات وتخلصت منه فالحمد لله على سلامتك أنت والآن اذا ساعدني الحظ وخدمني التوفيق يسهل لي الاقتران بزوج عاقل نظيرك محب فاضل تقي ينسيني أيام العذاب والعناء التي صرفتها مع مليخا فلاشك في أني أعيش أنا واياه عيشة صالحة براحة وهناء كروحين في جسد واحد .

فكاد يطير من الفرح وهو يقول في نفسه أصحيح ما تقوله أتريد الاقتران بي ولكن ما الفائدة وقلبي وفكري معلق بتلك المرأة التي رأيتها في الطريق وصورتها لاتبرح من ذهني وفيما هو غائص في أفكاره لايدري بماذا يجيبها سمعها تقول له . نعم اذا كنت تقبلني زوجة فانه يكون من سعادتي لأني لا أتوثق لوجود زوج أوفق منك لأني حالما رأيتك وقعت محبتك في قلبي وبعد أن أخبرتني بموت مليخا تأكدت ان ذلك فعل الله . وأنك ستلاقي من الزوجة المطلوبة فضلا عن أنه عندي من الاموال ما يكفي لعيشتنا هذا فضلا عما أرثه مني مليخا ومن أبي وهذا يساعدني على القيام بخدمتك حق القيام وأنت تعلم أن لابد للمرأة من الزواج لتعيش مستورة وتفي بواجبات هذه الدنيا التي فرضها الله عليها بمساعدة الرجل وما من شك عندي أننا سنكون راضيين من طالعنا ونصرف عمرنا في الهناء والسعادة لأني أراك رجلا كامل الصفات حسن العبادة فلا يمكن لي أن أتوصل للزواج برجل مثلك وكذلك أنت لا يمكن ان تقع على زوجة مثلي

تعرف قدر الرجل وكيف يجب أن تخدمه فضلا عما أعطانيه الله من الجمال النادر المثال ولكي تتحقق ذلك أكشف لك عن وجهى لتتأكد صدق قولى ثم أزاحت اللثام عن وجهها وبان من تحته جمال باهر وحسن فاضح لم يخلق الله مثله .

فلما وقعت عين بشر عليها تبين له انها هى نفس الفتاة التى رآها فى الطريق وأطار الهواء غطاء رأسها وقد أصابه من حبها وغرامها من نظرة واحدة ماكاد يذهب بقلبه ولبه وفى الحال أغمى عليه ووقع الى الارض فاقد الحواس فتعجبت الفتاة من حاله وقالت ياللعجائب ماذا أصابه وقد شغل بالها لأجله . ثم أسرعت فرشت الماء على وجهه حتى فتح عينيه ورآها الى جانبه فعادت اليه حواسه وجلس في مكانه وبعد أن عاد اليه وعيه سألته عما أصابه وما سبب ما هو فيه فأجابها كيف تسأليني إذا كنت أقبلك زوجة وأنت سبب شغل بالى واضطراب أفكاري وموضوع حبي ليس من اليوم بل من مدة أشهر وقد أصابنى بالرغم مني من عذاب الحب مالم يصب به عاشق فالشكر لله تعالى الذي أوصلنى اليك لأطفى نيران غرامى

فزاد تعجبها من كلامه وسألته من أين وقعت فى غرامى وأنت لم ترنى قبل الآن وأنا لم أسمع بك ولارأيت وجهك قبل هذه الساعة . أجابها صدقت لأنك لاتعلمين بحبي وأما أنا فقد رأيتك فى الوقت الفلانى فى الطريق الفلانى وقد طار الغطاء عن رأسك من الهواء وظهر لى حسنك وجمالك فعلق بك قلبي وارتبط بك عقلي وبقيت عدة أيام أصلى الى الله وأطلب اليه أن يقتلع حبك من قلبي فما كنت أزداد إلاحبا وغراما . ولما أعيانى الامر وضاقت بى الحيل خطر لى أن أزور بيت المقدس لعلى أسلوك وانسى حبك فجرى لي مع زوجك فى أثناء عودتى ماجرى وما ذلك الامن غرائب الصدف وأسرار العناية التى قصدت خلاصك من زوجك الكافر الخائن لان الله عادل فلا يبقي نفسا فى ضيق ولا يجمع بين الكافر والتقى جل جلاله فزاد تعجب الفتاة من هذه الصدفة وقالت له ما من شك فى أن الله قدهيأ هذه الفرصة لاجتماعنا لنعيش كما يريد وأتخلص من كل شيء لاقيته ولهذا أعتبر نفسي كأنى ولدت من جديد فى حجر السعادة والاقبال .

وفي الحال اهتما باتمام العقد وفي مدة قصيرة نالا الحظ الوافر – والسعادة الدائمة وعاشا عيشة خضراء بهناء وراحة وبقيت كل أيامهما مخضرة زاهرة إلى أن فرق بينهما الممات .

وبعد أن قصت السيدة برى بنت صاحب الاقليم الثالث أى سلطان خوارزم حكايتها على ما تقدم . قالت له وهكذا ياسيدى أمرى من الحكاية التى سمعتها أن اللون الأخضر هو اللون المقبول أكثر من سائر الألوان كالنبات عندما يكون مخضرا يكون محبوبا مرغوبا وكذلك الزمرد كلما زاد اخضرارا زاد قيمة وغلا ثمنا واللون الأخضر يجلو النظر وتتوق إليه النفس وقد فضلوا الربيع على باقي الفصول لاخضرار الارض فيه ثم انتهت من الكلام .

وعندما سمع بهرام شاه هذه الحكاية تعجب غاية العجب وبعد أن تفكر فيما كان من أمر مليخا وبشر قال فى الحقيقة لا يستطيع أحد من الناس أن يعرف مقاصد الله وأعماله فكم من فتي نراه فى أعيننا جميلا وهو قبيح الصفات والأعمال والعكس بالعكس فما كل جميل جميل وقد صدق من قال .

وقبيح ظن لما أن دعى بجميل أنه أضحى جميل

كيف لا يدرى بأن الكلب قد لقبوه بالوفى وهو ذليل

ثم أخذ هو وزوجته فى البسط والانشراح والمداعبة والملاعبة الى أن أقبل المساء وبناء على أمر برى لبس نحو خمسين جارية من جواريها الحسان الملابس الزمردية من رؤوسهن الى أقدامهن وحضرن وبيد كل واحدة منهن مصباح أخضر فعلقنها جميعها فى أغصان وأشجار تلك الحديقة فأمست مزينة بالألوان فكان بهرام وهو في الوسط يرى نفسه كأنه فى جنة النعيم ومن حوله السماء قد زينت بالكواكب وبين يديه الحور العين يتمايلن ويتسابقن فى خدمته فسر غاية السرور ولما حان وقت الطعام تهيأت المائدة بلون أخضر ووضعت عليها الاوانى والصحون وكلها من الصينى الاخضر المرصع بالزمرد ولما جلس للطعام طاف البنات بالمائدة وهن كالاقمار وبأيديهن الشمعدانات والشموع الخضراء ولم يكن بهرام ليجحد فضل الله الذى أنعم عليه بمثل هذا النعيم ولذلك كان لا يفتر عن شكر الله عز وجل . وبعد مناولة الطعام نهض وزوجته عن المائدة وغسلا أيديهما وعادا إلي الحوض فجلسا مكانهما وغاصا فى بحر الأنس والصفا وقضيا سهرة طويلة الى أن جاء وقت النوم فدخلا القصر والتصقا ببعضهما حتى الصباح فنهضت الملكة قبل بهرام وأمرت باحضار الحمام وما يلزم ثم عادت إلي جانب بهرام شاه تقبله وتعانقه ففتح عينيه وشاهد جمال زوجته وكأن وجهها قمر

يشرق فوق وجهه فمد يديه ولفها فوق عنقها وجذبها الى صدره وقبلها فى خديها وألصقها به ثانيا .

ثم خرجا من السرير ودخلا الحمام فاغتسلا وحينئذ سألته : من من زوجاته يقصدها فى ذاك اليوم فأخبرها أنه سيذهب عند نسرين بوش بنت ملك صقلاب ملك الاقليم الرابع فأتته بثوب أحمر مرصع بالياقوت الاحمر وأفرغته عليه بيدها وخرجت به الي غرفة الراحة وبعد أن شرب ما قدمت له من الأشربة السكرية الملوكية نهض فقبلها فى خديها وقبلته فى عنقه وجبهته وودعها وخرج عازما على الذهاب الى القصر الاحمر وهو لابس الملابس الحمراء .

وما زال الملك بهرام شاه سائرا فى طريقه بالابهة والاجلال الي وصل إلى منتصف الطريق فرأى صيوانا أحمر مرصع جميعه بالياقوت الرائق الشفاف يتلألأ كالشمس فى رابعة النهار يعجز النظر عن التحديق فيه وكان حول الصيوان نحو من خمسمائة فارس بالألبسة الحمراء فوق خيول حمراء وبيد كل واحد منهم سيف مرصع بالياقوت الاحمر وقد اصطفوا صفين صفين لتأدية السلام عند قدوم الملك بهرام .

فلما رأى بهرام ذلك قال عجبا ماهذا الصيوان المنصوب هنا وماهؤلاء وما الفرسان القائمون عنده . وأما الفرسان فانهم حالما رأوا بهرام شاه وقد صار قريبا منهم خفوا لاستقباله بانتظام وترتيب وقاموا بواجب السلام والاحترام فتحير من أمرهم واستدعى قائدهم وقال له ما هذا الصيوان فأجابه القائد بعدأن قام بواجب الدعاء والثناء إننا أرسلنا من القصر الأحمر وأمرنا بنصب هذا الصيوان فى هذا المكان لأجل راحتكم وارتياحكم وقد وضع فيه صندوق ليسلم الي عظمتكم ولكننا لانعلم ما بداخله .

﴿ انتهى الجزء الاول من قصة بهرام شاه ويليه الجزء الثانى ﴾